وهكذا يقود العلم أشرس الملاحدة إلى الإيمان...

رحلة عقل

د. عمرو شريف

تقديم: د. أحمد عكاشة

حقيقة الذات الإنسانية

البرهان الكوني في الميزان

كون أعد لاستقبالنا

من الجينات إلى الروح

الوجود الإنساني .. المصدر - المسار - المنتهى

مكتبة الشروق الدولية

الطبعة الرابعة

١٤٣٢هـ - يونيو ٢٠١١م

مكتبة الشروق الدولية

٧ أ شارع فريد سميكة - مصر الجديدة - أمام نادى الشمس

تليفون وفاكس : ٢٦٤٣٢٤٨٨ـ ٢٢٤٠٤٨٦٨

٢٢٤١٥٨١٦ـ ٠١٠١٦٣٣٧١٨

Email: <shoroukintl@hotmail.com>

<shoroukintl@yahoo.com>

http://shoroukintl.com

رحلة عقل

هكذا يقود العلمُ أشرسَ الملاحدة إلى الإيمان

د. عمرو شريف

أستاذ الجراحة العامة

تقديم

د. أحمد عكاشة

مكتبة الشروق الدولية

البرنامج الوطنى لدار الكتب المصرية
الفهرسة أثناء النشر
(بطاقة فهرسة)
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية (إدارة الشئون الفنية)

شريف، عمرو .
رحلة عقل : هكذا يقود العلم أشرس الملاحدة إلى الإيمان/
عمرو شريف؛ تقديم أحمد عكاشة .
ط ١ . ـ القاهرة : مكتبة الشروق الدولية، ٢٠١٠م .
٢٨٢ص؛ ١٧×٢٤سم .
تدمك ٩٧٨-٩٧٧-٦٢٧٨-
١ ـ الإيمان (إسلام) .
أ- عكاشة، أحمد (مقدم)
ب ـ العنوان . ٢٤٣

رقم الإيداع ٢٩٢٥ / ٢٠١٠م
الترقيم الدولى I.S.B.N. 978 - 977- 6278

تصميم الغلاف
المهندس مدحت مجيب هلال

الفهرس

الموضوع	الصفحة
إهـــــداء	٧
الكتاب والمؤلف: للدكتور أحمد عكاشة	٩
قـــبل أن تقرأ هذا الكـتاب	١٣

الجزء الأول: هناك إله

مقدمة	٣٥
• الباب الأول : كيف أصبحتُ فيلسوفًا ملحدًا ؟	٤٥
الفصل الأول : بذور الإلحاد.	٤٧
الفصل الثاني : ثمار شجرة الإلحاد.	٥٤
الفصل الثالث : من الإلحاد إلى الشك إلى الإيمان.	٦٣
• الباب الثاني : اكتشاف الإله	٧١
الفصل الرابع : العلم والحكمة.	٧٣
الفصل الخامس : هل يأتي شيء من لا شيء؟	٧٨
الفصل السادس : مَن وَضَعَ قوانين الطبيعة؟	٨٣
الفصل السابع : كونٌ أُعِدَّ لاستقبالنا!	٩٤
الفصل الثامن : كيف نشأت الحياة؟	١٠٠
الفصل التاسع : سقوط الحواجز.	١٠٦
الخاتمـــة.	١١١

الموضوع **الصفحة**

الجزء الثانى: ونستكمل الرحلة...

نظرة على ما سبق ١٢٧

الفصل الأول: البرهان الكونى فى الميزان. ١٢٩

الفصل الثانى: المبدأ البشرى فى الميزان. ١٣٩

الفصل الثالث: الفكر الدينى فى الميزان. ١٤٩

الفصل الرابع: الديانة الطبيعية والعلمانية فى الميزان. ١٦٤

الفصل الخامس: الإيمان والبيولوجيا ـ ١
من الجينات إلى المخ. ١٧٢

الفصل السادس: الإيمان والبيولوجيا ـ ٢
القلب والتدين. ١٩١

الفصل السابع: حقيقة الذات الإنسانية، ماذا بعد البيولوجيا؟ ٢٠٧

الفصل الثامن: العلم بين استغلال الملحدين، واتهام المتشددين. ٢٢٣

الفصل التاسع: الوجود الإنسانى: المصدر ـ المسار ـ المنتهى. ٢٤٥

الفصل العاشر: بين وحيين: حىّ بن يقظان. ٢٥٩

• **حصاد الرحلة.** ٢٦٧

• **هل وصلنا إلى نهاية رحلة عقل؟** ٢٨٤

• **الكاتب فى سطور.** ٢٨٧

* * *

إهداء

إلى المهندس **محمد نادر أحمد**

من رواد مفهوم التصميم الذكي ،

الذي لولا اتفاقاتنا واختلافاتنا ما كان هذا الكتاب

الكتاب والمؤلف

لا شك أننا نحيا مرحلة فريدة من تاريخ الإنسان، بلغ فيها العلم قممًا عالية، جعلته يقوم بدور لا نظير له فى الحضارات السابقة. وقد صاحب ذلك زوال الكثير من الحواجز بين العلم الحديث والقضايا الغيبية، كالألوهية والروح والدين، فأصبح الامتزاج بين العلم والإيمان حقيقة واقعة، حتى شاع بين العلماء القول بأن الفيزياء الحديثة قد أصبحت تعيش فى تخوم الميتافيزياء.

لذلك أعتبر أن «رحلة عقل» التى أبحر بنا فيها مؤلفها د. عمرو شريف بين عوالم الفكر والدين والعلم، رحلة جاءت فى موعدها تمامًا.

ومؤلف الكتاب، بالإضافة لمعرفتى به كأستاذ متميز فى الجراحة (فى الجانبين العلاجى والتعليمى) بكلية الطب بجامعة عين شمس، له اهتمامات علمية وفكرية عميقة متنوعة، تمثلت فى ثلاثة مؤلفات قبل هذا الكتاب. أولها: كتاب «أبى آدم، من الطين إلى الإنسان» ويطرح فيه مفهوم «الخلق بالتطور الموجَّه» الذى لا يتعارض مع الدين، وكتاب «رحلة عبد الوهاب المسيرى الفكرية» والذى يحلل فيه (من خلال المفكر الكبير) الحضارة المادية الحديثة وما أفرزته من نتائج أهمها الحركة الصهيونية، وأخيرًا كتاب «المخ ذكر أم أنثى؟!» (الذى قدمتُ لطبعته الثانية) والذى تناول فيه بعمق المتخصص وتبسيط المستوعِب الفوارق البيولوجية بين مخ الرجل ومخ المرأة.

ويشتمل كتاب «رحلة عقل» على جزءين. يعرض المؤلف فى الجزء الأول منه الرحلة العقلية لأستاذ الفلسفة البريطانى، سير أنتونى فلو، الذى يُعتبر أشرس ملحد فى النصف الثانى من القرن العشرين؛ إذ كانت كتاباته بمثابة جدول أعمال الملاحدة خلال تلك الفترة، وعندما جاوز الثمانين من عمره فاجأ العالم بأنه قد أصبح يؤمن بأن «هناك إله»، وأصدر عام ٢٠٠٧

كتابًا يشرح فيه الدوافع وراء هذا التحول، والتى تتلخص فيما أظهرته الاكتشافات العلمية الحديثة من تعقيد مبهر فى بنية ونشأة الكون والحياة.

وفى الجزء الثانى من الكتاب، ينتقل المؤلف من رحلة أنتونى فلو العقلية إلى رحلته هو. فيطرح للتقويم أربعة مفاهيم أساسية لا بد أن تدور حولها التساؤلات فى عقل كل إنسان يهتم بالفكر وبالدين وبنفسه. فيبدأ بتقويم الاكتشافات العلمية حول نشأة الكون، من ناحية دلالتها على وجود الإله الخالق (**البرهان الكونى**). وهل قصد الإله أن يكون الكون مُعَدًّا لنشأة الإنسان (**المبدأ البشرى**).

ثم ينتقل الكاتب بنا من هذه السياحة العلمية إلى مفاهيم التدين والإلحاد. فيعرض علينا **الديانات المختلفة التى يدين بها البشر**، ويضع لنا قياسات موضوعية للحكم على ما تعرضه هذه الديانات من مفاهيم. ولا شك أننى لم ألتقِ من قبل بهذا الأسلوب العلمى فى النظر إلى الأديان؛ إذ اعتدنا على استبعاد المفاهيم الدينية من التقويم الموضوعى.

وإذا كان الأمر لا يُعرَف إلا بنقيضه، فقد وضع المؤلف **مفاهيم الفكر العلمانى** فى الميزان، لنرى إن كان هذا الفكر يقف على أعمدة صلبة أم أنه مجرد فرار من الالتزامات الدينية.

ولا تكتمل الرحلة العقلية مع الأديان دون النظر فى **العلاقة بين ما نشعر به من مشاعر روحية ودينية وبين بيولوجيا الإنسان**. ويفاجئنا الكاتب بالأدلة العلمية على أن هذه المفاهيم مدموغة فى جيناتنا وفى أمخاخنا!.

وإذا كان الملحدون يأخذون على الأديان أنها **تجعل للقلب دورًا فى المنظومة المعرفية والشعورية**، فقد بذل المؤلف جهدًا كبيرًا للتنقيب فى الأبحاث العلمية الحديثة التى تؤيد هذا المفهوم.

ويبلغ اجتهاد الكاتب ذروته عندما **يطرح المفاهيم الغيبية الخاصة بجوهر الإنسان (الروح/ النفس) للتمحيص العلمى**؛ إذ إن لهذا الجوهر وجودًا فى عالم الشهادة، ومن ثم لا يستعصى عن البحث والنظر. كذلك يدهشنا الكاتب عندما **يطرح للتمحيص العلمى رحلة الوجود الإنسانى**: منشأه فى عالم الغيب، مساره فى الحياة الدنيا، منتهى رحلته بعد الموت.

ولا يفوت المؤلف عند ختام الكتاب أن يعقد مقارنة بين الفكر الفلسفى الدينى الإسلامى وبين الرحلة العقلية لأنتونى فلو. فاختار لذلك قصة حى بن يقظان للفيلسوف الأندلسى ابن

طفيل، وأظهر لنا جوانب السبق فى هذه الرحلة التى كُتبت منذ ثمانية قرون.

وبهذا التناول المتكامل العميق، وبهذا العرض العبقرى، يقنعنا الكاتب أن القضايا الغيبية التى تطرحها الأديان، ابتداءً من مفهوم الألوهية إلى حقيقة الذات الإنسانية إلى رحلة الإنسان فى الوجود، **تعتبر بمثابة الحقائق المطلقة التى تخضع للبراهين العلمية والعقلية.**

ولا شك أن هذا الطرح جديد كل الجدة، ويعتبر **ثورة فى المفاهيم العلمية وثورة فى النظرة إلى الدين.**

بعد هذا العرض لأفكار كتاب رحلة عقل، أسجل فى السطور التالية **بعض الملاحظات التى** خرجت بها من مراجعتى لأصول الكتاب:

إذا كان الكاتب قد استغل رحلة أنتونى فلو كمدخل لطرح رحلته العقلية، فلم يقف عند ذلك الحد، بل **حرص على استنفار القارئ ليُعمل عقله لتكون له رحلته الخاصة به.** ومن أجل معاونته فى ذلك قام الكاتب بعرض بعض التفاصيل العلمية والفلسفية (فى متن الكتاب وفى هوامشه)، لتكون مادة يبحر فيها القارئ بعقله. فنجده يُبَسِّط لنا نظريات الفيزياء الحديثة كنظرية الكم (الكوانتم) والنظرية النسبية والقوانين الحاكمة للصدفة، ويطرح علينا بنية وآلية عمل الشفرة الوراثية (الدنا DNA)، ويُبَسِّط لنا بعض النظريات الفلسفية، وعقائد الديانات المختلفة، وغير ذلك.

وقد استعمل الكاتب **أسلوب الحوار مع الأطراف المعارضة،** لما له من تأثير إقناعى قوى عند طرح القضايا الخلافية. فنجده يدير حوارًا مع الملاحدة، وحوارًا آخر مع الماديين المنكرين لجوهر الإنسان غير المادى، وحوارًا مع المتعصبين الدينيين، وحوارًا مع أصحاب الفكر الباحثين عن الحقيقة.

كذلك حرص الكاتب على **ألا يقفز إلى استنتاجات نهائية حول مفاهيم ما زالت تحت التأسيس،** كعلاقة القلب بالمنظومة الشعورية والفكرية والدينية.

وتلمس فى فصول الكتاب إدراك الكاتب أن **الصراع الحقيقى لا ينبغى أن يكون صراعًا بين الحضارات، أو بين الأديان، لكنه صراع بين التدين والإلحاد.** ولا شك أن هذا الإدراك يزيل ما بين أنصار الديانات المختلفة من خلاف، ويدفعهم للبحث عن جوانب الاتفاق بينهم لمواجهة الإلحاد.

كما تنبه الكاتب إلى **جوانب القصور فى الخطاب الدينى**، سواء عند عوام الخطباء والوعاظ أو عند المهتمين بقضايا الإعجاز العلمى فى القرآن الكريم. كما أدرك ما يؤدى إليه هذا العرض القاصر من **فقدان الثقة فى الفكر الدينى**. ولا شك أن ذلك أحد أسباب ما يعانيه المسلمون من تخلف حضارى. وأشارك المؤلف حملته لاستنفار الغيورين على الدين، وبصفة خاصة المهتمين بالعلم والفلسفة، لأن ينزلوا إلى الميدان ليتحملوا كامل مسئولياتهم فى **الثورة التى تهدف إلى تجديد الخطاب الدينى**.

والقارئ للكتاب يدرك بوضوح أن **المؤلف لا يقف عند منازلة الملاحدة** ليردهم إلى حظيرة الإيمان، لكنه يخاطب فى المقام الأول المتدينين الذين يسعون لأن يرقوا بتدين الميلاد إلى يقين العقيدة، والمتدينين الذين يشعرون بالنقص عند مواجهة الإلحاد المتشح بثياب العلم.

وفى ختام هذا التقديم والتعريف بالكتاب وبمؤلفه، أُسجِّل أنه **إذا كان أنتونى فلو قد توصل** فى رحلته العقلية إلى أن هناك إلهًا، ثم توقف عند قضايا الغيب التى تطرحها الأديان، **فإن د. عمرو شريف قد فاق أنتونى فلو فى استدلالاته على قضية الألوهية، وواصل رحلته العقلية بنجاح فى الاستدلال على باقى القضايا الغيبية**.

لذلك فإننى أهيب بكل باحث عن الحقيقة، وكل متدين يبحث عن يقين العقيدة، وكل ملحد، **أن يقرأ هذا الكتاب قراءة متأنية، وأن يشارك المؤلف** فى هذا الأسلوب الجديد فى النظر إلى العلم وإلى التدين، **وأن يشاركه فى دعوته لتجديد الخطاب الدينى**.

أ.د. أحمد عكاشة

أستاذ الطب النفسى بكلية الطب - جامعة عين شمس
رئيس مركز بحوث الصحة النفسية لمنظمة الصحة العالمية
رئيس الجمعية المصرية للطب النفسى
رئيس اتحاد الأطباء النفسيين العرب
الرئيس الأسبق للجمعية العالمية للطب النفسى

قبل أن تقرأ هذا الكتاب

سير «أنتونى فلو[1] Sir Antony Flew» (أستاذ الفلسفة البريطانى) اسم ذائع الصيت فى مجالات الفكر والفلسفة والإلحاد والتدين! كان يُعَد بحق من أكبر ملاحدة العصر الحديث، وتعتبر كتاباته الغزيرة جدول أعمال الفكر الإلحادى طوال النصف الثانى من القرن العشرين.

فى التاسع من ديسمبر عام ٢٠٠٤، فوجئ العالم بخبر ما زال صداه يتردد فى الأوساط الفلسفية والعلمية والثقافية والدينية؛ لقد أعلن أنتونى فلو (بعد أن بلغ من العمر ثمانين عامًا) أنه قد صار يؤمن بأن «هناك إله». وقد أذاعت وكالة أنباء الأسوشيتد برس الخبر بعنوان:

«ملحد شهير يؤمن بالإله، بدافع من الشواهد العلمية»

Leading atheist now believes in God, more or less,
based on scientific evidence.

أصاب الخبر الملاحدة من زملاء أنتونى فلو وتلاميذه بهستيريا عارمة، حتى امتلأ إعلام العالم الغربى الحر بسخريتهم وازدرائهم لهذا التحول!

وقد طُلب من أنتونى فلو مرارًا أن يُصدِر كتابًا يعرض فيه رحلته، من صبى مؤمن إلى رجل ملحد إلى شيخ فى الثمانين يؤمن بوجود الإله. وأخيرًا صدر عام ٢٠٠٧ الكتاب المنتَظَر:

«هناك إله: كيف عَدَلَ أشرسُ مُلحدٍ عن الإلحاد»

There is a god; How the World's most
notorious atheist changed his mind.

ونقوم فى كتابنا هذا «رحلة عقل» بعرضٍ لكتاب أنتونى فلو «هناك إله»، ثم طرح قضية العلاقة بين الدين والعقل والعلم للتحليل. ولـمَّـا كان الكتاب يدور حول الفيلسوف الكبير

(١) وُلد فى لندن فى ١١/ ٢/ ١٩٢٣.

الذى انتقل من الإلحاد إلى الإيمان بوجود إله، بعد أن راجع مفاهيمه الفلسفية والعلمية، وجب أن نعرض فى هذا التقديم تعريفًا بالإلحاد المعاصر ونشأته، وكذلك تعريفًا بالفلسفة والعلم وعلاقتهما بالدين، حتى نستطيع أن نتابع هذه الرحلة العقلية الممتعة.

أولًا : نشأة الإلحاد المعاصر وسماته[1]

حتى نُدرك مقدار وأسباب ما أصاب الملاحدة فى العالم الغربى من لوثة، بسبب موقف أنتونى فلو الجديد، علينا أن نتفهم الظروف المحيطة بنشأة الإلحاد فى أوروبا فى العصر الحديث.

تبدأ القصة منذ عدة قرون...

حتى خمسمائة عام مضت، كان المصدر الأساسى للمعرفة فى أوروبا هو الكتاب المقدس بعهديه (العهد القديم: التوراة، والعهد الجديد: الإنجيل)، كما تبنى رجال الدين فى الكنيسة الكاثوليكية آراء **أرسطو**[2] **وبطليموس**[3] العلمية حول الكون وكوكب الأرض والفيزياء والكيمياء والتاريخ الطبيعى...، وألحقوها بمفاهيمهم المقدسة.

بناءً على هذه المصادر، **كَوَّن إنسان العصور الوسطى فى أوروبا صورة عن العالم**، هى:

١- **تقف الأرض ثابتة فى مركز الكون**، وتدور الشمس والقمر وبقية الكواكب حولها فى دوائر.

٢- خَلَقَ الله العالم **عام ٤٠٠٤ ق.م**. وقد استنتج الكهنة هذا التاريخ من جَمْع أعمار الأجيال المتتابعة من أبناء آدم، كما جاءت فى التوراة فى سفر التكوين[4].

٣- سوف تكون نهاية العالم (أى يوم القيامة) فى تاريخ ليس ببعيد، عام ٤٠٠٤ ميلادية. وذلك لكى تتوسط حياة المسيح تاريخ العالم.

(١) عن مقدمة كتاب «الدين والعقل الحديث» للفيلسوف الأمريكى والتر ستيس، المنشور بالعربية عام ١٩٩٨، ترجمة أستاذ الفلسفة الدكتور/ إمام عبد الفتاح إمام - مكتبة مدبولى.

(٢) للتعريف بأرسطو انظر هامش ص ٥٠.

(٣) بطليموس Ptolemy : وُلد فى طيبة بمصر عام ٨٥م، ومات بالإسكندرية عام ١٦٥م، وهو فلكى ورياضى وجغرافى، من أشهر علماء التاريخ القديم، ظلت مفاهيمه الفلكية سائدة حتى العصور الوسطى.

(٤) العهد القديم هو كتاب اليهود المقدس، واعتُبر أيضًا الجزء الأول من الكتاب المقدس عند المسيحيين. وتوراة موسى هى أول أجزاء العهد القديم وأهمها؛ حتى يمكن إطلاق اسمها عليه مجازًا. وسفر التكوين هو أول أسفار التوراة الخمسة، ويحكى قصة الخلق من بدايته حتى وفاة نبى الله يوسف ﷺ.

٤- خلق الله العالم فى لحظة ما فى الماضى، تمامًا كما يصنع البشر المنازل والآلات والأثاث. والفارق الوحيد هو أن الناس تصنع ما تصنع من مواد موجودة سلفًا.

٥- يسير العالم طبقًا لخطة إلهية مُحكمة؛ **فكل شىء فى الكون له هدف وغاية (الغائية)**. فقد خُلقت الشمس لكى توفر النور للإنسان خلال النهار، بينما يُزَوِّده القمر بالضياء ليلًا، كذلك يظهر قوس قزح ليُذَكِّر الإنسان بوعد الله للنبى نوح بألا يُدَمِّر الجنس البشرى مرة أخرى عن طريق الطوفان.

وإذا كانت هناك أشياء مقززة، كالحشرات والثعابين والقاذورات، فقد تكون **عقابًا للإنسان على خطيئته الأصلية**، حين عصى آدم ربَّه وأكل من الشجرة.

وفى النهاية، لا يمكن لعقل الإنسان الكشف عن جميع أسرار الخطة الإلهية. ولكن عليه أن يثق كل الثقة فى أن لكل شىء غرضًا.

٦- **يمثل العالم نظامًا أخلاقيًّا**، وهذه فكرة بالغة الأهمية فى التاريخ العقلى والروحى للجنس البشرى. وهى تعنى أن القيم الأخلاقية (كتحديد الخير والشر) مطلقة يحددها الإله، وليست نسبية تعتمد على رغبات البشر ومصالحهم ومشاعرهم.

٧- ويقف وراء ذلك كله **إله خالق**، ينظر إليه إنسان العصور الوسطى، باعتباره **عقلًا واعيًا أو روحًا**، ليس له جسد مادى، له أفكار وتصورات، وربما انفعالات وعواطف أيضًا.

٨- **رجال الكنيسة هم الواسطة بين الإله وبين الناس، فى قبول التوبة والحصول على الغفران، ودخول الجنة.**

لقد أعطت الهيمنة على الدين والعلم رجال الكنيسة القوة، متمثلة فى **السلطة والثروة**. ولقرون طويلة مارست الكنيسة الكاثوليكية فى روما سلطتها على شعوب أوروبا وحكامها، حتى إنهم كانوا يُنَصِّبون الملوك ويعزلونهم.

ولما كان الشعور الدينى شعورًا فطريًّا، **تقبل الناس هذه الهيمنة**، وضحوا بحريتهم ومالهم لصالح رجال الدين[1].

(١) يكرر هذا النمط من سيطرة رجال الدين على العامة والحكام نفسه عبر التاريخ. فإذا كان المصريون القدماء ينظرون إلى ملوكهم الفراعنة باعتبارهم آلهة، وينظرون إلى الكهنة باعتبارهم حلقة الوصل بين الناس وبين الآلهة فى الأرض وفى السماء، فبمجرد أن حاول أخناتون تحدى سلطة رجال الدين، قتلوه ونَصَّبوا توت عنخ آمون كفرعون وإله بدلًا منه!

ثم وقعت الطامة الكبرى، عندما أعلن **كوبرنيكوس**[١] (بحساباته الرياضية) وأثبت **جاليليو**[٢] (بتلسكوبه) أن الأرض ليست مركز الكون، بل هى مجرد كوكب تابع يدور حول الشمس. لقد دفعا ثمنًا غاليًا لعلمهم وشجاعتهم؛ إذ تبنت الكنيسة حملة شعواء لاضطهاد وتعذيب وقتل العلماء باعتبارهم من السحرة والمشعوذين.

كذلك كان اكتشاف الميكروسكوب (عام ١٥٩٥) صدمة كبيرة؛ إذ مَكَّن العلماء لأول مرة من رؤية الجراثيم، التى ثبت بعد ذلك أنها المسئولة عن كثير من الأمراض. كيف ذلك؟! أليس الله (أو الشيطان) هو الذى يُنزل الطاعون والأوبئة بالبشر؟ كيف تستطيع، إذن، صلوات رجال الدين (مدفوعة الأجر) أن تشفى الأمراض؟

إسحاق نيوتن... وآلية العالم...

بلغت الجهود العلمية ذروتها بفضل عبقرية إسحاق نيوتن (١٦٤٢ - ١٧٢٧) التى أتمت إرساء أسس العلم الحديث. لقد كان نيوتن مسيحيًا ورِعًا، ولا شك أنه كان سيصاب بالهلع لو شعر أن إنجازاته العلمية سوف تُقوِّض أركان الإيمان الدينى فى الغرب.

لقد توصل إسحاق نيوتن إلى **قوانين الحركة الثلاثة الشهيرة، وكذلك قانون الجاذبية**. وقد وصف ـ بِدقة من خلال هذه القوانين ـ بنية المجموعة الشمسية (الشمس والكواكب الدَّوَّارة حولها). وهى القوانين نفسها التى تصف سقوط التفاحة من الشجرة، كما تصف ما يحدث إذا تصادم قطاران.

لذلك شَبَّه الفيزيائيون النظام الشمسى (كما شرحه نيوتن) **بالساعة الزنبركية**، التى تُملأ ثم تُترك لتعمل تلقائيًا. إن قوة الجاذبية، وقوة الطرد المركزية وقوانين الحركة، كفيلة بالمحافظة على عمل النظام الشمسى **دون التدخل من قوى خارجية**.

انتشرت فكرة **آلية العالم** انتشار النار فى الهشيم، فقام العلماء والفلاسفة فى أوروبا بتفسير كل شىء من خلال منظور الآلية. حتى إن توماس هوبز (فيلسوف الإلحاد البريطانى الشهير) شَبَّه أجهزة جسم الإنسان بمجموعة من الآلات التى **تحكمها القوانين الفيزيائية**.

(١) «كوبرنيكوس ـ Copernicus»: فلكى بولندى (١٤٧٣ - ١٥٤٣)، وقد نشر نظريته فى كتابه De revolutionbus Orbium Coelestium الذى صدر يوم وفاته.

(٢) «جاليليو ـ Galileo Galilei»: عالم الفلك الإيطالى الشهير (١٥٦٤-١٦٤٢).

وقد لاحظ نيوتن اختلافًا طفيفًا بين ما ينبغى أن تكون عليه مدارات الكواكب كما تحددها حساباته، وبين المدارات الفعلية التى يرصدها التليسكوب. وإذا تراكمت هذه الفوارق مع مرور الزمن، لانقلب النظام الكونى رأسًا على عقب؛ إذ إن الكواكب قد تبتلعها الشمس، أو قد تفلت من سيطرتها وتندفع فى الفضاء الكونى السحيق.

تغلب نيوتن على هذا الإشكال بأن قال بأن الله يتدخل من وقت لآخر ليُعدِّل مسارات الكواكب! لقد كانت هذه آخر مرة يطرح فيها عالِـم عظيم فكرة تدخل قوى غيبية، كتفسير لظاهرة طبيعية.

ثم أثبت الفلكى الفرنسى ماركيز لابلاس (١٧٤٩ – ١٨٢٧) أن الانحرافات التى عجز نيوتن عن تفسيرها بالقوانين الطبيعية ليست تراكمية، وأنها تلغى بعضها بعضًا بعد فترة من الزمان، وبالتالى لا تحتاج إلى تدخل إلهى لتصحيحها. لذلك أجاب «لابلاس» نابليون (عندما سأله عن دور الإله فى النظام الكونى) بأنه لا يرى حاجة للقول بهذا الافتراض!!

الإلحاد يطل برأسه...

لكن، كيف تسببت هذه الاكتشافات (وغيرها كثير) فى الصراع الذى نشب بين العلم والدين فى أوروبا؟

لم يكن الصراع بين العلم والدين بسبب مكتشفات «مُعَيَّنة» للعلم تعارض معتقدات «مُعَيَّنة» للدين.

كذلك فإن المفاهيم التى كان على الكنيسة أن تتخلى عنها، أمام طوفان العلم، لم يكن منها ما هو ضرورى للدين.

تتلخص أساسيات الدين فى ثلاث نقاط، نطلق عليها «النظرة الدينية للعالم»:

١ – هناك إله خلق الكون.

٢ – هناك خطة كونية وغرض كونى للخالق من الخلق (الغائية).

٣ – العالم يمثل نظامًا أخلاقيًّا يحدده الإله.

من المؤكد أنه منذ بداية الثورة العلمية فى القرن السابع عشر – وحتى الآن – لم يظهر اكتشاف علمى واحد ولا وُضعت فكرة منطقية تعارضت مع هذه الأساسيات، التى لولاها لانهدم الدين.

ومع ذلك، فإن الثورة العلمية كان لها بالفعل أثر مدمر للدين؛ إذ أعقبها مباشرة نزعة شَكِّية إلحادية كبرى، جعلت من القرن الثامن عشر أكبر عصر للشك فى التاريخ الحديث، حتى أن ملك إنجلترا كان يشكو من أن نصف أساقفة كنيسته ملاحدة!

كيف أدت الثورة العلمية إلى زلزلة النظرة الدينية للعالم، بالرغم من أنه سواء كانت الأرض هى مركز الكون أو كانت مجرد تابع صغير يدور فى فلك الشمس، فإن ذلك لا يمنع وجود إله خلق كل شىء ؟

سؤال منطقى آخر: هل نكون أكثر صدقًا وأمانة وأشد إخلاصًا وعدالة لو تمسكنا بقانون الحركة عند أرسطو، ولم نستبدله بقوانين الحركة عند نيوتن؟! لماذا قضت الثورة العلمية على اعتبار أن العالم نظام أخلاقى كما ترى الأديان؟

لماذا...

نؤكد عن يقين أن نشأة الإلحاد وإنكار (أساسيات النظرة الدينية) لم تكن مشكلة علمية على الإطلاق، بل مشكلة نفسية فلسفية!

يكمن مفتاح فهم هذه المشكلة فى أن عقول البشر لا تعمل بالطريقة التى يقول بها المناطقة. فإذا كان اقتناع رجل بفكرة معينة (أ)، ينبغى منطقيًا اقتناعه بالفكرة (ب)، فإن الواقع يخبرنا أن هذا الانتقال المنطقى هو الاستثناء وليس القاعدة!

فالأعم الأغلب هو الانتقال بين الأفكار عن طريق التداعى النفسى والإيحاء، فهى انتقالات نفسية وليست منطقية.

إذن، ما هى العوامل النفسية (السيكولوجية) التى أدت إلى هذه النزعة الشَّكية الإلحادية الكبرى؟

أولًا: لا شك أن ما تعرض له العلماء من اضطهاد وتنكيل على يد الكنيسة، قد أدى إلى تبنى العلماء والمفكرين موقفًا عدائيًا من الدين، انعكس على موقف العامة.

ثانيًا: إذا كان نيوتن قد رجع بعلاقة الإله بالكون إلى وقت خلق النظام الشمسى، وترك له دورًا يتمثل فى تعديل مدارات الكواكب من حين لآخر، فقد رجع لابلاس بهذه العلاقة إلى بدء خلق الكون، وألغى قيام الإله بأى دور كونى.

وبذلك تلاشت نظرة الكنيسة بأن الله خلق الكون منذ ستة آلاف سنة، وأنه خلق جدنا آدم بيديه، تلك النظرة التى كانت تعنى أن **العلاقة قريبة وأن الله يهتم بنا كثيرًا.**

كذلك كان الشعور بقرب الله يغذيه الإيمان بالتدخل الإلهى المباشر فى حياة البشر، فالصواعق تبيد أعداء الدين، والزلازل تعاقب العصاة. لكن التفسيرات العلمية لمثل هذه الظواهر **لم تدع مجالًا لذلك.**

ثالثًا : يرى من أراد (إمساك العصا من الوسط) أن الله قد خلق العالم، ووضع فيه قوانين الطبيعة التى تُسَيِّره. إن ذلك يعنى أن الإله الخالق لم يعد يفعل شيئًا لنا، وليس له أدنى تأثير فى أحداث العام. **إنه ببساطة إله لا أهمية ولا احتياج إليه!**

رابعًا : نجح العلم فى تفسير الظواهر الطبيعية بشكل لا يحتاج للبحث عن غاية أو هدف. كما نجح بشكل كبير فى التنبؤ بالظواهر الطبيعية، كالخسوف والكسوف والعواصف. وقد قدم ذلك خدمات مباشرة للإنسان، فأصبح يتحاشى الإبحار فى يوم محدد مثلًا تفاديًا لهيجان متوقَّع للبحر؛ لذلك اقتنع الإنسان بسذاجة تفسيرات رجال الدين ونبوءاتهم.

خامسًا : اعتقد رجل عصر العلم أن نجاح التفسير المادى للظواهر الطبيعية، واختفاء الغائية عن أحداث الكون، **يعنى اختفاء الغائية من خلق الكون.**

سادسًا : عندما لم يعد للإله غاية من خلق البشر وتلاشى دوره فى حياتهم، لم يعد هناك مبرر لأن يضع لهم منظومتهم الأخلاقية (ما يجب عليهم فعله وما لا يجب). وهكذا هدمت **الثورة العلمية الإيمان بأن العالم يمثل نظامًا أخلاقيًّا**، وارتبطت القيم الأخلاقية بمصالح البشر المادية العاجلة.

سابعًا : قدم العلم الحديث للإنسان إنجازات علمية وحضارية، وحقق له رفاهية وثراءً لم يكن يتصورها فى يوم من الأيام، فتبدلت عقيدته من الإيمان بالإله، إلى الإيمان بالعلم وقدراته وإنجازاته.

ثامنًا: لذلك كله، أخذ المفكرون يتساءلون : إذا كان العلم قد قطع شوطًا كبيرًا فى فهم آلية أمور كانت تُفَسَّر بشكل ميتافيزيقى، كالأمراض والرعد والبرق والزلازل...، فما المانع فى أن يتوصل العلم لتفسير كل ما نعتبره ميتافيزيقيًّا؟ وبذلك تلاشت تمامًا الحاجة إلى الدين وإلى الإله.

لقد ألقت هذه **الأسباب النفسية**(١) بالمفكرين والعلماء والعامة من الناس فى القرن الثامن عشر فى **مستنقع الشك**، حتى صار القرن التاسع عشر يُعرف ـ بالمقارنة بها قبله ـ بعصر العودة إلى الإيمان، بسبب النزعة الرومانسية التى ظهرت فيه. بل يمكننا القول **إن العقل العلمانى الحديث** هو نتاج الثورة العلمية فى **القرن السابع عشر**، وليس القرن التاسع عشر أو القرن العشرين.

وبدخول القرن العشرين، ظهرت مقولة **«الدين أفيون الشعوب»** التى أطلقها كارل ماركس. ويقصد بها أن الأغنياء والأرستقراطيين يستغلون مفهوم الدين لتخدير الفقراء، وحملهم على قبول ما هم فيه من بؤس كأمر واقع، طمعًا فى الفردوس فى حياة بعد الموت.

نتيجة لذلك كله، شاعت مقولة فريدريك نيتشه(٢) التي ألقاها آخر القرن التاسع عشر: **هل مات الإله ؟ ? Is God Dead. وبدلًا من أن تظل قولًا لفيلسوف يمثل رأيًا يؤمن به، أصبحت المقولة عنوانًا يتكرر فى الصحف اليومية.**

وينقسم الفكر الإلحادى إلى مجموعتين كبيرتين:

(أ) الفكر الإلحادى القوى Strong (Positive) Atheism

ويمثله الذين ينكرون وجود الإله، ويسوقون على ذلك الأدلة، ويبنون النظريات، ويروجون لفكرهم.

---

(١) بالإضافة إلى العوامل العقلية والنفسية التى رَجَّحت كفة العلم فى الصراع مع الدين فى القرن الثامن عشر، نطرح هنا نوعًا من الخلل النفسى Neurosis الذى يؤدى إلى تبنى الإلحاد على المستوى الفردى، وذلك حتى نستكمل دراسة العوامل النفسية المختلفة وراء تبنى الإلحاد.

بعد دراسات تحليلية مستفيضة أجراها أستاذ الطب النفسى بجامعة نيويورك، بول فيتز Paul Vits، على شخصيات عديدة من ملاحدة العصر الحديث، توصل إلى أن تبنى الإلحاد قد يرجع إلى خلل نفسى عُصابى، Atheism is a Neurosis تقف وراءه رغبة دفينة فى اللاشعور للتخلص من سيطرة الأب والحلول محله (كما يقول سيجموند فرويد)، بينما يقف وراء الإيمان بإله ما يحققه ذلك من الشعور بالأمان.

لذلك طرح فيتز مفهومًا أسماه «منظور التقصير الأبوى ـ Defective father Hypothesis» يربط فيه بين رفض سيطرة الأب البشرى، ورفض الأب الذى فى السماء، ويضرب فيتز الأمثلة على ذلك. فهذا الفيلسوف الفرنسى الكبير فولتير، الذى يُصنَّف من كبار الشكاكين، يعانى بشدة من سوء معاملة أبيه، حتى أنه يلفظ أباه ويرفض أن يحمل اسمه. وتضم القائمة فرويد نفسه، وكارل ماركس، وتوماس هوبز، وآخرين.

كما يرى فيتز أن حرمان الطفل من أبيه بالموت، يعتبره الطفل خيانة حرمته من الدعم الأبوى، تترك آثارها فى نفسه وتعزز فيه الشعور بالاستغناء، ويضرب مثالًا لهؤلاء بـ «جان بول سارتر» و«بيرتراند راسل».

وقد ظل بول فيتز ملحدًا حتى قارب الأربعين من عمره، ثم صار متدينًا ومهتمًّا بالعلاقة بين الدين وعلم النفس. وطرح هذا المفهوم فى أشهر كتبه Fath of the fatherless، the Psychology of Atheism، صدر عام ١٩٩٩.

(٢) فريدريك نيتشه Friedrich W.Nietzsche : فيلسوف الإلحاد الألمانى الأشهر (١٨٤٤ - ١٩٠٠).

(ب) الفكر الإلحادى الضعيف Weak (Negative) Atheism

ويمثله الذين لم يجدوا أدلة كافية تقنعهم بوجود الإله.

وينقسم الملحدون إلى ثلاث مجموعات

١ - **علماء وفلاسفة**، تبنوا الإلحاد، ثم وجدوا فى نظرية التطور الداروينى (تطور الكائنات الحية نتيجة لطفرات عشوائية تحدث بالصدفة) حجتهم العلمية الكبرى؛ إذ وضعت آلية مادية لخلق الكائنات الحية، فلم يَعُد هناك مبرر لافتراض وجود إله خالق للكائنات، أو للكون!

٢ - **الشيوعيون**، الذين يريدون تحويل المجتمعات البشرية إلى مستعمرات من النمل والنحل، ولن يمكن تحقيق ذلك فى وجود المعتقدات الدينية، فينبغى القضاء عليها ولو بالقوة.

٣ - عدد لا بأس به من **الصامتين!** من كل الديانات والمجتمعات والأجناس، ممن لديهم شك، لكنهم لا يطرحونه للنقاش. ويمكن إرجاع شك هذه الفئة إلى عاملين :

- **المظهر العلمى والفلسفى الذى يطرح به أصحاب الفكر الإلحادى القوى أفكارهم.**

- **الأسلوب المنغلق الذى تعلموا به دياناتهم**، حيث يرفض معلموهم أى منطق أو علم يخالف ما يفهمون، وهو ما يُسمى بأسلوب «هُوَّا كده» Just-so. كما يَدَّعى هؤلاء المعلمون الانفراد بالفهم عن الله، وأن على الآخرين أن يُسَلِّموا لهم بذلك.

ويتبنى الفكر الإلحادى المعاصر المفاهيم التالية:

١ - نشأ الكون تلقائيًا، نتيجة لأحداث عشوائية، دون الحاجة إلى صانع.

٢ - ظهرت الحياة ذاتيًا من المادة، عن طريق قوانين الطبيعة.

٣ - الفرق بين الحياة والموت هو فرق فيزيائى بحت، سيتوصل إليه العلم يومًا ما.

٤ - ما الإنسان إلا جسد مادى، يفنى تمامًا بالموت.

٥ - ليس هناك وجود لمفهوم الروح.

٦ - ليس هناك حياة أخرى بعد الموت.

٧ - من كل ما سبق، ليس هناك حاجة إلى القول بوجود إله.

لا أحسب أن الإلحاد المعاصر بهذه السمات، يختلف عن الإلحاد الذى واجه الأنبياء عند نزول الأديان السماوية.

ثانيًا: الفلسفة Philosophy [1]

لا شك أن **العلاقة بين الفلسفة والعلم علاقة قديمة**. فمنذ البداية كان العِلمان علمًا واحدًا، يهدف إلى غاية واحدة، هى البحث عن الحقيقة وخدمة الإنسانية.

ثم بدأ كل علم من العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية يستقل عن الأم (الفلسفة)، ليقف على قدميه، وتصبح له مُسَلَّماته وركائزه ومناهجه وأهدافه التى يسعى لتحقيقها.

لقد استقل العلم الطبيعى بدراسة ظواهر الكون ومكوناته، ونظمه وقوانينه، ومكوناته. **فالعالِمُ الفيزيائى** يهتم بدراسة المظاهر الطبيعية للمادة **والعالِـم البيولوجى** يهتم بدراسة الكائنات الحية، من غير أن يفكرا فى أصل المادة والحياة وعلة وجودهما. **والرياضى** يبحث فى الهندسة والحساب (غير مبالٍ بالتفكير فى معنى المكان والزمان). وهم جميعًا يبحثون **بواسطة العقل** الذى يتمتعون به، من غير أن يفكروا فى كُنْه هذا العقل، ومدى قدرته على إدراك الحقيقة.

وبالرغم من ذلك، ظلت **جذور كل علم تتصل بأصلها الأول**؛ لذلك يدرس العلماء فلسفة العلوم وفلسفة الطب، وفلسفة الجغرافيا وفلسفة التاريخ وفلسفة اللغة وفلسفة التربية وغيرها.

أمَّا الفيلسوف، فإنه يريد أن يفهم أصل الكون وعلته وحقيقته، وحقيقة المادة وأصلها وعلة وجودها، ومعنى المكان والزمان، وكذلك حقيقة العقل وقدرته على إدراك الحقيقة. أى أن **الفيلسوف** يتناول فى درسه وبحثه، **المعقولَ والعقلَ**، فى آن واحد.

ولا تكتفى الفلسفة بهذا العالَـم المحسوس، بل تريد أن تعرف **الخالق** لهذا العالم، وما كُنْه ذاته، وما حقيقة صفاته.

وما هو **الإنسان**، وما حقيقته.

وما هو الخير، وما هو الجمال، ولِـمَ كان الخير خيرًا، والجميل جميلًا؛ إلى غير ذلك من الأسئلة التى لا تنتهى.

---

(١) Philosophy لفظ يونانى يتكون من مقطعين Philo = حُب و Sophia = حكمة، فيكون تعريف الفلسفة لغويًا: حُب الحكمة.

لذلك قالوا: إن الفلسفة تشتمل على ثلاثة مباحث أساسية

- فلسفة الوجود.
- فلسفة المعرفة.
- فلسفة القِيَم.

وبتأمل هذه المباحث الثلاثة، نجد أن الفلسفة فى جوهرها هى «**البحث عن الله**». وقد عَبَّر رينيه ديكارت[1] عن ذلك بقوله: «**الفلسفة شجرة، جذورها الميتافيزيقا[2] وثمرتها معرفة الله**». لذلك عَرَّفوا الفلسفة بأنها (**محاولة العقل إدراك حقيقة كل شىء وأصله وغايته**).

والمحرك الأول للإنسان ليبحث عن الحكمة والغاية، هو شعوره **بالدهشة** وبطوفان التساؤلات عندما يمر بتجربة ما، أو عندما يمر بعقله خاطر ما. لذلك قال أرسطو: «**بالدهشة تبدأ الفلسفة**».

وإذا كانت هذه المسائل تهتم بما وراء الطبيعة (وتُسمى **الإلهيات أو العقائد والغيبيات**) فإن لها انعكاساتها على حياتنا اليومية، لذلك نشأت **الفلسفة العملية**، التى تهتم بالعديد من القضايا التطبيقية، مثل:

- **كيف يكون مسلكنا فى الحياة.**
- **كيف نُرَبِّى النشء تربية حسنة.**
- **ماذا يجب على قيادة الدولة، حتى تسير على النهج السليم.**

وتحدد هذه المسائل ما ينبغى أن تكون عليه **الأخلاق**، كما تُستمد هى من الأخلاق. وهى مصدر **التشريع** الذى يُحَرِّم المنكر ويردع الذين يرتكبونه.

وقد انعكس الفكر الإلحادى المعاصر، الذى سيطر على العقل الغربى الحديث، على ميدان الفلسفة. فسادت **مجموعتان من المذاهب الفلسفية**:

المجموعة الأولى: فلسفات عبَّرت عن **النظرة العلمية المادية إلى العالم**، منها: فلسفة هوبز، وهيوم، وفلسفة الوضعيين المناطقة أمثال ألفريد آير[3]... إلخ.

---

(١) رينيه ديكارت René Descartes : الفيلسوف الفرنسى العظيم (١٥٩٦ - ١٦٥٠).

(٢) الميتافيزيقا تعنى: «الاهتمام بما وراء الطبيعة»، والمقصود الأمور الغيبية.

(٣) نعرض الفلسفة الوضعية المنطقية، وكذلك التعريف بهؤلاء الفلاسفة، فى المقدمة التالية.

والمجموعة الثانية: فلسفات عَبَّرت عن النظرة الدينية إلى العالم، منها فلسفة ديكارت، وفلسفة كانط[١].

وحتى ندرك التكامل بين الفلسفة والعلم، نعرض ما آل إليه العلم فى العصر الحديث.

ثالثًا: العلم فى العصر الحديث[٢]

منذ القرن السابع عشر أصبح للمعرفة سبيلًا آخر، غير مفاهيم رجال الدين، وهو العلم[٣].

ويهدف العلم إلى التوصل إلى القوانين التى تربط بين وقائع معينة، وتكون قادرة على تفسير حدوث ظاهرة ما على نحو محدد، وليس على نحو آخر، بل والتنبؤ بتطور هذه الظاهرة مستقبلًا.

وتتميز **المعرفة العلمية** بأنها مبرهَن عليها منطقيًّا، ولا يوجد فى داخلها تناقض عقلى، وأنها قابلة للاختبار من خلال الملاحظة والتجربة العلمية. وبذلك تختلف المعرفة العلمية اختلافًا جذريًّا عن **الاعتقاد الأعمى (الدوجماتى Dogmatic)** الذى هو التسليم المطلق بصحة موضوع ما، بدون تأسيسه عقليًّا والتحقق منه تجريبيًّا.

---

(١) نلخص هنا آراء بعض هؤلاء الأعلام:

أيد ديكارت النظرة الآلية للعالم تجاه جميع الظواهر، باستثناء «النفس» و«الله». بينما عَمَّم توماس هوبز هذه النظرة الآلية المادية على جميع الموجودات، شاملة النفس البشرية التى طعنها أيضًا فى منظومتها الأخلاقية؛ إذ اعتبر أن الخير هو ما يَسرُّ الإنسان، وأن الشر هو ما يحزنه، أى أن الأخلاق نسبية ذاتية لا علاقة للإله (المتوَهَم) بها.

أما ديفيد هيوم فقد أنكر الآلية كما أنكر الغائية! فكان ينكر وجود قوانين الطبيعة التى تحكم النظرة الآلية! وينظر إلى الأمر كله بعشوائية مطلقة، ويرى أن قوانين الطبيعة ما هى إلا تربيطات بين الظواهر يقوم بها العقل البشرى!

وفى الجانب الآخر، صد كانط هجمات المذهب الطبيعى المادى المتلاحقة التى قادها أكبر أنصاره: ديفيد هيوم.

لقد أثَّر كانط فى مجرى الفكر البشرى كله، فكان معظم الفلاسفة المحترفين فى أوروبا الغربية، وإنجلترا، وأمريكا - على مدى مائة سنة بعد وفاته - من تلاميذه.

وربما كان أهم ما خَلَّفه كانط القول بوجود عالمين: عالم الزمان والمكان، وهو عالم الظواهر الطبيعية التى يدرسها العلم ويكشف قوانينها. ثم عالم اللازمان: عالم الأزل الذى لا يستطيع العلم أو العقل البشرى أن يصل إليه، وإنما تدركه الروح عن طريق الحدس والشعور والنظرة الصوفية. ويرى كانط أنه ليس هناك تناقض فى أن يعيش الإنسان فى عالمين مختلفين فى وقت واحد، عالم الزمان والمكان وعالم الروح اللامتناهى. وهذا ما ينبغى أن يتبناه إنسان العصر الحديث.

(٢) عن كتاب «الدين والعلم وقصور الفكر البشرى» للدكتور المهندس/ محمد الحسينى إسماعيل - مكتبة وهبة - ١٩٩٩.

(٣) العلم Science: مأخوذ من اللفظ اللاتينى Scientia، ويعنى المعرفة.

ولكن، كيف يتوصل العلم إلى المعرفة وليس لديه نصوص مقدسة يغترف منها ؟

إن الطريق إلى تحصيل المعرفة (أى معرفة) يمر من خلال الإجابة عن سؤالين:

السؤال الأول: لماذا (الغائية أو الحكمة) Why؟

لماذا خُلق الكون؟ لماذا خُلِقت الحياة؟ لماذا الشقاء والتألم؟....

أدرك العلماء أن التعرض لهذه الأسئلة، التى تبحث فى «الغاية» من الأشياء، يقع خارج نطاق العلم، فأنكر بعضهم الغائية، وقَبِلها البعض وتركوها لأهل السبق فيها، وهم الفلاسفة.

السؤال الثانى: كيف (الآلية أو الكيفية) How؟

ذلك هو مجال العلم، بشرط إخراج المخادعين والأدعياء من الميدان.

ولتحقيق هذا الشرط، وضع العلماء للعبة أربع قواعد، ينبغى لمن يريد المشاركة أن يلتزم بها :

القاعدة الأولى: لدينا حواس خمس، هى أداة العلم عند دراسة أية قضية علمية. ولما كنا لا ندرك بالحواس الجسيمات تحت الذرية والثقوب السوداء وغيرها، فقد أضاف العلماء «الرياضيات» وحساباتها الأدق من الحواس، كمصدر للمعرفة.

القاعدة الثانية: ينبغى استخدام منهج محدد فى تحصيل المعرفة العلمية، يُعرف بمنهج البحث العلمى، ويشتمل على عدد من المراحل المتتالية :

١- جمع المعلومات وملاحظة الظواهر التى لها علاقة بالمشكلة المراد بحثها.

٢- صياغة الفروض التى تربط بين هذه المعلومات.

٣- إجراء التجارب التى تفحص هذه الفروض، وملاحظة النتائج، والخروج بالاستنتاجات.

٤- التوصل من الاستنتاجات إلى القوانين التى تحكم ظاهرة ما.

٥- الخروج من القوانين بالنظرية العلمية المنسجمة منطقيًا، والتى تفسر الوقائع المعروفة لنا من قبل، وتكون قادرة على التنبؤ بوقائع جديدة.

القاعدة الثالثة: استبعاد أى تفسير ميتافيزيقى (غيبى) لأية مشكلة علمية. ويعتبر العلماء هذه التفسيرات مُعَوِّقات للعلم، بل يمكن أن تجهض تقدم العلم تمامًا.

فلو اكتفى العلم، مثلًا، بأن مسبب الأمراض هو الله (أو الشيطان)، لما اكتشفنا الجرائيم وغيرها من أسباب الأمراض، ولتوقف الطب عند مرحلة ما قبل أبقراط[1].

القاعدة الرابعة: ينبغى أن تُطرح المعارف العلمية بأدلتها التجريبية والعقلية، على الأقران والنظراء لتقييمها، ثم قبولها أو رفضها، وذلك من خلال المجلات العلمية والمؤتمرات والكتب وغيرها.

ونتيجة لهذا المنهج العلمى الحازم، نجد أن العلم يتخذ من قضاياه مواقفًا موضوعية، يستجيب فيها العالِـم لما تقوله الطبيعة. بينما تُعبِّر الفلسفة عن مواقف ذاتية ورؤى شخصية، كثيرًا ما تحمل تضاربًا بين آراء الفلاسفة.

وعلى الرغم من تعارضهما الظاهرى، يقدم كل من العلم والفلسفة للآخر خدمات جليلة. وإذا كان الإنسان يحتاج إلى العلم الذى يُعنَى بجوانبه المادية والجسدية، فإنه يحتاج إلى الفلسفة التى تعنى بجوانبه العقلية والنفسية، حتى يمكن القول بأن الاثنين وجهان لعملة واحدة هى تاريخ الفكر البشرى.

رابعًا: ما دور الدين؟

رأينا أن كلًّا من العلم والفلسفة (العقل) يشبعان فى الإنسان احتياجاته المادية والجسدية والعقلية والنفسية، ويؤكد ذلك أن الملاحدة يحيون حياة لا بأس بها. فما دور الدين فى حياة الإنسان؟

نجيب على هذا التساؤل من خلال منظور الإسلام، كما نفهمه:

أولًا: الدين هو السبيل الوحيد لتعريف الإنسان بربه معرفة صحيحة متكاملة، وتعريفه بما يجوز فى حق الله ﷻ وما لا يجوز.

والدين هو السبيل الوحيد **لتعريف الإنسان بمصدره**، ومساره، ومآله، والغاية من خلقه.

(١) أبقراط Hippocrates: هو الطبيب اليونانى العظيم (٤٦٠ ق.م. ـ ٣٧٠ ق.م). يلقب بأبى الأطباء؛ لتأسيسه علوم الطب على المنهج العلمى. وقد صاغ قَسَمًا اشتهر باسمه، يُقسِم فيه الأطباء عند بداية ممارستهم للمهنة على الالتزام الأخلاقى تجاه المرضى وزملائهم ومهنتهم.

والدين أيضًا هو السبيل الوحيد **لتعريف الإنسان كيف تكون علاقته بربه.**

هذه الأمور هي ما تعرف في الديانات بـ «**العقيدة**». وهي ليست من أجل ملء فراغ في فكر الإنسان ومشاعره، ولكن **من أجل إقرار حقائق** لن تنتظم حياة الإنسان إلا بها ـ كما سنرى في فصول الكتاب ـ.

ثانيًا: **يحدد الدين للإنسان «الشريعة»** التي تنظم حياته وعلاقته بالآخرين وبالبيئة من حوله. ويعتقد المتدينون أن الله الخالق للإنسان والعالِـم بخبايا نفسه هو الأقدر على سن هذه القوانين في خطوطها العريضة.

ثالثًا: لا شك أن للإنسان **جانبه الروحي المتطلع إلى الغيب**. ويسعى إنسان الحضارة الغربية الحديثة المنشغل عن الإله بإشباع هذا الجانب بطرق شتى، منها اللجوء إلى العرافين والمتنبئين، ومنها عبادة الشيطان، ومنها الحج إلى أهرامات الجيزة! وما شابه ذلك مما نسميه «ميتافيزيقا بغير أعباء»؛ كل ذلك في محاولة لتعويض الدين الذي هو السبيل الوحيد لإشباع الجانب الروحي في الإنسان.

ينفرد الدين بالدور الكامل في حياة الإنسان في المهام الثلاث السابقة.

ثم نأتي إلى **مهام أخرى يقوم فيها الدين بدوره من خلال علاقته بالعلم والعقل**، وهذه المهام هي:

رابعًا: **يحث الدينُ الحقُّ على طلب العلم** الذي يهتم بالجوانب المادية والجسدية للإنسان، كما يوجه العقل في بحثه الفلسفي لإشباع احتياجاته العقلية والنفسية.

بل إن الإسلام يمزج بين الدين والعلم والعقل في سبيكة ليس لها نظير في أي منهج آخر. انظر إلى قول الحق ﷻ: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ ﴾ [فصلت:٥٣].

ومن أجل ذلك نجد أن القرآن الكريم ملىء بالدعوة للتفكر، وملىء بالإنكار على من لا يستخدمون عقولهم ﴿ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴾ ؟، ويشبههم بالدواب.

خامسًا: الدين الحق هو القائد (المايسترو) الذى يوجه العازفين (العلم والفلسفة) ليلعب كلٌّ دوره فى موضعه المحدد، فلا يتسلل النشاز إلى حياة الإنسان، فهذا دور العلم، وهذا دور العقل، وهذا مجال المفاهيم الغيبية.

فمثلًا، ينبغى للإنسان ألا يتقاعس عن الأخذ بأسباب العلم انتظارًا لمدد السماء، كما ينبغى ألا يرفض مفاهيم الغيب لأنه لا يستطيع أن يرصدها بحواسه تبعًا للمنهج العلمى، فلكلٍّ مجاله.

سادسًا: وإذا كان الدين يهتم بالروح، فالدين هو الروح التى تسرى فى كلٍّ من العلم (الآلية) والفلسفة (الغائية)، وبدون هذه الروح يصبح الإنسان جثة تمشى على قدمين، تنشر العفن فى كل مكان حولها.

ليس هذا تشبيهًا أدبيًا بليغًا، لكنه وصف علمى دقيق لِما أصاب الإنسان والأرض، عندما فارقت الروحُ العلمَ والفلسفةَ.

لقد انطلق العلم هنا وهناك دون ضوابط:

فاخترع قنابل ذرية تقتل ملايين البشر، وتفسد البيئة إفسادًا لا صلاح له.

وابتكر عقاقير مخدرة تستعبد ملايين البشر. وخلّق سلالات مدمرة من الجراثيم والفيروسات، التى تصيب ملايين البشر بالمرض المعجز والموت.

كذلك انطلقت الفلسفة، بمعزل عن المعارف الدينية، لتصل بالإنسان إلى إجابات عن تساؤلاته المعرفية لم تروِ ظمأه، بل أورثته الحيرة والاغتراب[1]. وقد عبر عن هذه الحالة شاعر المهجر إيليا أبو ماضى فى أبيات بليغة تقطر بالضياع:

جئت لا أعلم من أين... ولكنى أتيت
ولقد أبصرت أمامى طريقًا فمشيت
وسأبقى سائرًا شئت هذا أم أبيت
كيف جئت؟ كيف أبصرت طريقى؟
لست أدرى

(١) كما حدث مع سارتر وفولتير، وسنشير إلى تفاصيل ذلك فى الجزء الثانى من الكتاب، الفصل الثالث.

سابعًا: إن الذين نشأوا فى بيئة متدينة، أكسبتهم ما تعارف عليه الناس بأنه التدين بالميلاد، يصبح للعقل والعلم - بالنسبة للقادرين منهم - دوره فى الترقى بتدين الميلاد إلى الاقتناع العقلى ثم إلى اليقين ثم الخشية ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر:٢٨].

بعد هذا الطرح لدور الدين، نوافق الذين يرون أن الدين منهج شامل يشتمل على كل شىء، وليست هناك حاجة إلى منهج سواه، بشرط أن ينظروا إلى الدين بمعناه الصحيح المتكامل. فكما يتفرد الدين بالدور الكامل فى أمور العقيدة والشريعة والروحانيات (الثلاث نقاط الأولى)، فإن له دورًا يقوم به من خلال العلم والعقل. لو أدرك المتدينون ذلك فلا شك أنهم: سيسعون قدر جهدهم فى البحث عن الآليات باستخدام العلم، ويسعون قدر جهدهم فى فهم الغائية باستخدام العقل، ولا داعى لأن أقول باستخدام الفلسفة، حتى لا نختلف مع البعض حول الأسماء بينما الـمُـسمى واحد!

* * *

عودة إلى أنتونى فلو

وتُعتبر رحلة أنتونى فلو خير مثال للتفاعل بين وجهى العملة (الفلسفة والعلم) كمصدرين بشريين للمعرفة. فأنتونى فلو يصف توصله إلى أن «هناك إله» بأنه ثمرة «رحلة عقل»، ليس للإيمان الدينى دور فيه. فقد عاش فلو حياته الفكرية كلها فى إطار القاعدة الفلسفية التى أرساها سقراط، وهى: أن «يتبع الدليل إلى حيث يقوده We must follow the argument wherever it leads »: ولقد قاده الدليل الفلسفى طوال حياته إلى الإلحاد، وإذا به يدله عند سن الثمانين إلى أن هناك إلـهًا.

أنتونى فلو والتصميم الذكى ...

إن الدليل العلمى / العقلى / الفلسفى الذى قاد أنتونى فلو إلى رفض الإلحاد هو مفهوم «التصميم الذكى Intelligent Design»، الذى تموج به الأوساط العلمية والفلسفية والدينية منذ الربع الأخير من القرن العشرين(١).

(١) يتبنى هذا المفهوم مجموعة من كبار علماء البيولوجيا والفيزياء والكيمياء والرياضيات، وكذلك مجموعة من الفلاسفة ذوى الاهتمام بفلسفة العلوم وفلسفة الأديان. وقد كوّن هؤلاء العلماء والفلاسفة ما يُعرف بحركة التصميم الذكى Intelligent Design movement، وأسسوا فى مدينة سياتل - واشنطن، بالولايات المتحدة معهد الاكتشاف Discovery institute وذلك عام ١٩٩٤، ويقوم المعهد بالبحث فى جوانب التصميم الذكى، وكذلك الترويج لهذا المفهوم.

ويدور مفهوم التصميم الذكى، حول: **إن نشأة الكون وبنيته، وكذلك نشأة الحياة والكائنات الحية تبلغ درجة هائلة من التعقيد، تستبعد تمامًا أن تكون قد حدثت بشكل تلقائى عشوائى، وتُحتم أن يكون وراءها مصمم ذكى عليم قادر.**

وفى هذا المعنى يقول الدكتور أحمد عكاشة[1]: إن من يفهم ويستوعب تشريح وفسيولوجيا وكيمياء المخ، ولا يؤمن بوجود الله، فإنه لم يفهم شيئًا، لأن المخ البشرى هو معجزة الخالق.

- **والآن، إلى التعريف بكتابنا «رحلة عقل»:**

يتكون الكتاب من جزءين: **فى الجزء الأول نعرض كتاب «هناك إله» لأنتونى فلو**، وذلك فى بابين:

نعرض فى **الباب الأول** (من خلال ثلاثة فصول) كيف تم تشكيل فكر **أنتونى فلو** ليصبح فيلسوفًا ملحدًا، بالرغم من أنه وُلِد فى أسرة مسيحية شديدة التدين.

وفى الباب الثانى نعرض (من خلال ستة فصول) رحلة أنتونى فلو من الإلحاد إلى الإيمان بأن «هناك إله»، فنعرض العوامل التى كانت وراء هذا التحول، وكذلك المفاهيم التى استقر عليها فكره بعد أن بلغ الثمانين من عمره.

كما نعرض **المقدمة والخاتمة** اللتين طلب أنتونى فلو من **روى أبراهام فارجيس**[2] أن يُقدِّم ويختم بهما كتابه. ويطرح فارجيس فى **المقدمة** تطور مفهوم الإلحاد المعاصر، ودور أنتونى فلو فى مسيرة الإلحاد فى القرن العشرين.

وتحلل **الخاتمة** القضايا الرئيسية التى تعجز الفلسفة المادية والعلم التجريبى عن تقديم تفسير مقبول لها.

انتهى أنتونى فلو فى رحلته العقلية إلى القول بأن «هناك إله»، لكنه لم يتوصل إلى الدليل على تواصل الإله مع الإنسان، من خلال الوحى والأديان السماوية.

(١) أستاذ الطب النفسى، ورئيس الجمعية العالمية للطب النفسى WPA.

(٢) روى أبراهام فارجيس Roy Abraham Vargeese: يُعد من أفضل مَن كتب باللغة الإنجليزية عن العلاقة بين الفلسفة والدين والعلم. وأشهر كتبه التى نالت حظًا كبيرًا من الذيوع والانتشار كتاب «أعجوبة الوجود The wonder of the world»، صدر عام ٢٠٠٣. وكتاب «الكون والحياة والإله Cosmos. Bios. Theos»، صدر عام ١٩٩٢، ويعرض مفاهيم ٢٤ عالِمًا من الحاصلين على جائزة نوبل، واختير أفضل كتاب صدر فى ذلك العام عن الإله. كما حصل روى أبراهام فارجيس على جائزة تمبلتون عام ١٩٩٥.

من أجل الاستدلال على ذلك وضعنا الجزء الثانى من الكتاب : «ونستكمل الرحلة».

يتكون هذا الجزء من عشرة فصول:

فى الأربعة فصول الأولى، عرضنا أربعة مفاهيم مهمة وأساسية لرحلة العقل، وقمنا بتقويمها بالمنهج العلمى والفلسفى:

- **البرهان الكونى،** الذى يعنى أن دقة بنية الكون تدل على وجود الإله الخالق.
- **المبدأ البشرى،** الذى يعنى أن الكون قد تم خلقه على هيئة ملائمة لظهور الحياة والإنسان.
- **الفكر الدينى:** كيف نشأ الفكر الدينى؟ وما دور الفطرة فى التدين؟ وكيف نُقَوِّم الدين الحق بأسلوب علمى موضوعى.
- **الدين الطبيعى والعلمانية:** هل خلق الله الوجود ثم اعتزله؟! وهل يُصَنَّف أنتونى فلو كأحد أتباع الدين الطبيعى؟

ولا تكتمل رحلة العقل إلى الله، دون النظر إلى **علاقة الدين بالبيولوجيا،** متمثلة فى الجينات والمخ (الفصل الخامس)، وفى القلب (الفصل السادس).

وفى الفصل السابع نبحث فى **«حقيقة الذات الإنسانية»،** وهل هى من نتاج المخ البشرى؟ أم أن الذات الإنسانية تتجاوز البيولوجيا؟

وبعد الوقوف مع العلم فى الثلاثة فصول السابقة، ندفع عنه كلًّا من الاستغلال والاتهام فى فصل بعنوان **«العلم بين استغلال الملحدين واتهام المتشددين».**

بعد إدراك المفاهيم السابقة، نصل إلى **الصورة المثلى للعلاقة بين الخالق والمخلوق،** وهى ما يبحث عنه أنتونى فلو، ونعرضها فى الفصل التاسع بعنوان **«الوجود الإنسانى: المصدر ـ المسار ـ المنتهى».**

ونختم رحلة العقل بالفصل العاشر، بعنوان **«بين وحيين».** ونعرض فيه قصة **«حى بن يقظان»** لمؤلفها الفيلسوف الأندلسى ابن طفيل، لنقارن بين رحلة العقل التى قام بها أنتونى فلو فى النصف الثانى من القرن العشرين، ورحلة العقل التى قام بها ابن طفيل قبله بثمانية قرون.

إن الكتاب رحلة مع الدين والعلم والفلسفة، تُعيننا على أن **نأخذ موقفًا يقينيًا تجاه أخطر قضية فى حياة الإنسان، ألا وهى قضية الوجود الإلهى.**

الجزء الأول

هناك إله...

مقدمة (١)

أنتونى فلو فى مسيرة الإلحاد

يمكننا القول، دون أن نجترئ على الدقة العلمية، أن سير أنتونى فلو Sir Antony flew أستاذ الفلسفة البريطانى الشهير قد تَزَعَّم حركة الإلحاد فى العالم لما يزيد عن نصف قرن. فقد أَلَّف أكثر من ثلاثين كتابًا وبحثًا فلسفيًّا كانت بمثابة جدول أعمال الفكر الإلحادى طوال النصف الثانى من القرن العشرين.

لذلك نزل خبر إقراره بأن «هناك إله» على الفلاسفة والمفكرين الملحدين كالصاعقة، فانبروا للدفاع عن إيمانهم المقدس بالإلحاد! وعبروا عن سخطهم وازدرائهم لهذا التحول، وكالوا للرجل كل ما لا يليق من التهم والنقائص.

إن عقول الفلاسفة التى عانت كثيرًا من اضطهاد محاكم التفتيش، ومن الحَجْر على حرية الفكر فى العصور الوسطى فى أوروبا، قد أصبحت تتلذذ بأن يأكل بعضها بعضًا. يبدو أن التعصب والفظاظة والغطرسة وادعاء الاستئثار بالمعرفة، لم تعد حِكرًا على المتعصبين الدينيين وحدهم.

والسؤال الذى يطرح نفسه فى بداية الكتاب: ما هى إضافة أنتونى فلو إلى منهج معالجة قضية الإلحاد؟

(١) هذه المقدمة هى عرض لمقدمة الكتاب الأصلى «هناك إله»، التى كتبها «روى أبراهام فارجيس».

يمكن القول ـ دون أدنى مبالغة ـ إنه خلال المائة عام الماضية لم يعرض أى فيلسوف ـ من ذوى الوزن ـ الفكر الإلحادى بالأسلوب العميق المنظم كما فعل أنتونى فلو. فقد طرح حججًا جديدة ضد الإيمان بالله، كما رسم بأفكاره الأصيلة خارطة الطريق للفلاسفة الذين عارضوا الإيمان والتدين طوال النصف الثانى من القرن العشرين.

فإذا أخذنا كتابات فيلسوف عظيم مثل «برتراند راسل[1] Bertrand Russell»، كمثال لما كُتب عن الإلحاد فى القرن التاسع عشر والقرن العشرين، وجدناها لا تخرج عن مقالات أدبية سطحية، لا تطرح فكرًا عميقًا، وفى أفضل حالاتها تلفت النظر إلى المشاكل النفسية للإنسان (مثل معاناة البشرية للشر والألم) دون معالجة جديدة.

يبدو أن الفلاسفة الكبار كانوا يترفعون عن أن «يلوثوا أيديهم الرقيقة وعقولهم الحكيمة بالخوض فى هذه القضية الشعبية السوقية المبتذلة!»، قضية التدين والإلحاد.

* * *

الفلسفة الإلحادية المعاصرة

وحتى نستطيع أن نتتبع مسيرة أنتونى فلو الفكرية، نعرض ما كانت عليه الفلسفة الإلحادية فى القرن العشرين ومدخل القرن الحادى والعشرين، وذلك من خلال طرح مفاهيم الفلسفة الوضعية المنطقية Logical Positivism ومفاهيم الإلحاد الجديد New Atheism.

الإرهاب الفكرى متمثلًا فى:

الفلسفة الوضعية المنطقية Logical Positivism

يُعتبر الفيلسوف الفرنسى «أوجست كونت[2] Auguste Comte» هو مؤسس الفلسفة الوضعية Positivism التى تدرس الظواهر والوقائع المادية وحسب، وتتبنى شعار «ما لا يمكن رصده، لا وجود له»، رافضة كل تفكير فى الغيبيات وعلى رأسها الإله.

(١) برتراند راسل Bertrand Russell: وُلد فى ويلز بالمملكة المتحدة (١٨٧٢ - ١٩٧٠). وهو فيلسوف ورجل منطق عظيم، من علماء الرياضيات، ومن المهتمين بالتاريخ الإنجليزى. ومن المناهضين للحروب والتوسع الاستعمارى. حصل على جائزة نوبل فى الأدب عام ١٩٥٠؛ لكتاباته عن المثل الإنسانية العليا ووقوفه بجانب حرية الفكر.

(٢) أوجست كونت Auguste Comte: وهو الفيلسوف وعالم الاجتماع الفرنسى الشهير (١٧٩٨ - ١٨٧٥).

ثم طرح الفيلسوف الإنجليزى سير ألفريد آير [1] A.J.Ayer عام ١٩٣٦ **الفلسفة الوضعية المنطقية** [2] Logical Positivism، كفرع من الفلسفة الوضعية. وتقوم هذه الفلسفة على مبدأ التَثَبُّت The Verification Principle الذى يرى أن قبول أى افتراض أو مسألة، يتوقف على القدرة على إثباتها أو نفيها عمليًا بالتجربة، أو رياضيًا، أو منطقيًا من خلال المدلول المباشر للألفاظ التى تشرح هذا المفهوم. ومن ثَمَّ، فلا معنى لأى افتراض أو مسألة تقع خارج نطاق العلم التجريبى أو الرياضيات أو المنطق المباشر.

ومن ثم، ترى الفلسفة الوضعية المنطقية **أن مفاهيم مثل الإله أو الروح أو التدين أو الإلحاد لا تعنى شيئًا؛ إذ لا يمكن إثبات خطئها أو صحتها تجريبيًا أو رياضيًا أو منطقيًا**. لذلك فإن مقولة مثل «الله موجود» لا معنى لها، ومن ثَمَّ يتساوى أمام العقل أن يكون الإنسان مؤمنًا أو ملحدًا.

رفض أنتونى فلو هذا التعالى المتغطرس والازدراء الذى تمارسه الفلسفة الوضعية المنطقية تجاه المفاهيم الدينية. وبالرغم من أنه فى بحثه الشهير «زيف علم اللاهوت» يشكك فى هذه المفاهيم، إلا أنه **يطالب بأن يدخل الفلاسفة الملحدون فى حوارات ومناظرات مستمرة مع المتدينين**.

وينتهى عصر الفلسفة الوضعية المنطقية عندما يعلن مُنَظِّرها الأكبر (سير آير) فى خمسينيات القرن العشرين أن هذه الفلسفة ملأى بالتناقض، بالرغم من أنه قضى السنوات الطوال فى معالجة أخطائها.

وكما بنى ألفريد آير الفلسفة الوضعية المنطقية على كتابات الفيلسوف الألمانى الإنجليزى لودفيج ويتجنشتين [3]، فإنه بنى رفضه لهذه الفلسفة على كتابات الفيلسوف العظيم نفسه، الذى سبقه أيضًا إلى رفضها، عندما وضع **نظرية اللغة والألعاب** Theory of language and games.

(١) سير ألفريد آير (١٩١٠ - ١٩٨٩): فيلسوف إنجليزى، ورئيس نادى سقراط بجامعة أكسفورد.

(٢) طرحها آير فى كتابه «اللغة والحقيقة والمنطق Language, Truth and Logic». وقد كان أول ظهور لهذه الفلسفة فى عشرينيات القرن العشرين، عند مجموعة من الفلاسفة الأوروبيين تُعرف بمجموعة فيينا Vienna Circle.

(٣) يأتى التعريف به فى الفصل الأول.

فى هذه النظرية، يُشَبِّه ويتجنشتين مجالات المعرفة بقواعد ممارسة الألعاب المختلفة. فكما أننا لا نلعب الشطرنج بقواعد وقوانين كرة القدم، فكذلك لا يمكننا تطبيق قواعد البحث فى العلوم التجريبية التى تعتمد على الحواس (كالكيمياء والفيزياء) على العلوم الإنسانية (كالفلسفة والمنطق والأخلاق). كذلك **لا يمكن دراسة المفاهيم الدينية بمقاييس المفاهيم العلمية**، فلا ينبغى محاولة فهم مقولة «أن الله موجود فى كل مكان (كُلِّى الوجود)» بمفاهيم المكان فى فيزياء نيوتن أو فيزياء أينشتين.

هكذا قام مؤسسا الفلسفة الوضعية المنطقية (ويتجنشتين وآير) بإعلان موتها والقيام بدفنها.

عودة الوعى

التدين العقلانى Rational Theism

نفض الفلاسفة أيديهم من الفلسفة الوضعية المنطقية، بعد أن فتح لهم أنتونى فلو الباب لمناقشة مفاهيم المتدينين، فظهرت فى الساحة التساؤلات حول معنى **الوجود الإلهى**، وإذا كان هناك **إيمان فطرى بالألوهية** داخل نفوسنا، و...

وظهر هذا التوجه إلى التدين جَلِيًّا فى غلاف مجلة تايم Time عدد أبريل ١٩٨٠، فجاء فى مقال الغلاف: يقود بعض كبار الفلاسفة **ثورة فكرية بيضاء**، لم يكن يتوقعها أحد منذ عقدين من الزمان، وتهدف هذه الثورة إلى إعادة الإله إلى عرشه.

الإلحاد الجديد The New Atheism

الرِدَّة نحو الفلسفة الوضعية المنطقية

مرة أخرى يتفاقم الإلحاد ليطل برأسه تحت اسم الإلحاد الجديد The New Atheism، وقد أُستخدم هذا الاصطلاح لأول مرة فى مجلة شبكة المعلومات (1) Wired Magazine عدد نوفمبر ٢٠٠٦.

---

(١) مجلة شبكة المعلومات Wired Magazine: مجلة أمريكية شهيرة، بدأ إصدارها عن طريق شبكة المعلومات Net فى سان فرانسيسكو فى مارس ١٩٩٣. وتهتم بعرض تأثير التكنولوجيا على الثقافة والسياسة والاقتصاد.

وقد لاقت الكتب التى تناولت هذا المفهوم رواجًا كبيرًا؛ إذ وجد فيها الإعلام مادة ثرية ساخنة مثيرة، بالرغم من تواضع ما طرحته من حجج[(١)]. وتهاجم هذه الكتابات جميع الديانات (السماوية وغير السماوية) باختلاف أماكنها وأزمانها. وبالرغم من ذلك فهى تتحدث بلهجة وَعْظية أصولية، يرتدى فيها المؤلفون ثياب الوعَّاظ الذين يَصِمون القراء بالجهل والسطحية، ويوجهون إليهم السُباب اللعين إذا لم يتوبوا عن إيمانهم الساذج بالألوهية والربوبية!

وعلى القارئ لهؤلاء المؤلفين أن يتبنى موقفًا محددًا: فمَن ليس معهم فهو ضدهم، إما أبيض وإما أسود، ولا مجال للمخادعة أو الغموض فى المواقف! حتى الفلاسفة الكبار الذين يُظهرون بعض التفهم لحجج المؤمنين، فقد تم ضمهم إلى قافلة الخونة سطحيِّي الفكر.

والسؤال الذى يطرح نفسه هنا: **هل أثرى كُتَّاب هذه الموجة المناقشات الفلسفية التى** اسْتَعَرت طوال العقود السابقة حول قضيه التدين؟

والإجابة بالنفى، وذلك لثلاثة أسباب:

أولًا: لم يُدْلِ المتفلسفون الملاحدة الجدد برأى ذى قيمة فى القضايا الفلسفية المتعلقة بمفهوم الربوبية[(٢)] **بل نجد منهم تهربًا عجيبًا من هذه القضايا.** فهذا كبيرهم ريتشارد دوكنز[(٣)] يصف نشأة الحياة والعقل بأن ذلك كان «**حادثًا عارضًا نتيجة لضربة حظ!**». وهذا لويس ولبرت[(٤)] يقول: «**لقد تعمدت تحاشى الخوض فى نشأة العقل؛ إذ إننا ما زلنا لا نفهم عنه شيئًا!**». بينما يحل الفيلسوف والبيولوجى الأمريكى الشهير دانييل دينيت[(٥)] معضلة نشأة العقل بسذاجة شديدة؛ إذ يقول: «**ثم حدثت المعجزة !!**».

---

(١) من أهم هذه الكتب: –The Blind watch maker
- The God Delusion
- Breaking the spells
- Six Impossible things Befor Breakfast

(٢) سنعرض هذه القضايا خلال فصول الكتاب.

(٣) نُعَرِّف به بعد قليل.

(٤) لويس ولبرت Lewis Wolbert: وُلد فى إنجلترا عام ١٩٢٩. يشغل منصب أستاذ البيولوجيا التطورية بقسم التشريح بجامعة لندن. وهو إعلامى ومؤلف شهير، وأشهر كتبه Six impossible things befor breakfast، صدر عام ٢٠٠٦.

(٥) دانييل دينيت Daniel Dennett: وُلد فى بوسطن عام ١٩٤٢. وهو فيلسوف ملحد مهتم بفلسفة العقل وفلسفة العلم، وبالبيولوجيا التطورية.

ثانيًا: لم يدرك الملاحدة الجدد نقاط الضعف الجذرية فى بنية **«الفلسفة الوضعية المنطقية» البائدة**[1] التى يسعون لإحيائها، ولا شك أن من يتجاهل الأخطاء المنهجية فى القضية التى يتعامل معها سوف يقع فيها لا محالة، وقد حدث.

ثالثًا: لم يَطَّلع الملاحدة الجدد على الكم الهائل من الدراسات الفلسفية الجديدة، ولا على البراهين القوية التى قدمها العلم، وصارت تخدم دراسات فلسفة الأديان.

لذلك نقول بمنتهى الموضوعية، **إن الإلحاد الجديد ما هو إلا رِدة إلى الفلسفة الوضعية المنطقية التى تم رفضها ودفنها من قِبَل أشد المتحمسين لها.**

نموذج من الملاحدة الجدد ....

فلنلقِ نظرة على أفكار كبير الملاحدة الجدد **ريتشارد دوكنز**[2]Richard Dawkins، حتى نرى تهافت المنهج الذى يفكر به هذا الرجل، فلا نُخدَع فيه، ولا فى ضخامة إنتاج هؤلاء القوم، ولا بالهالة التى يحيطهم بها الإعلام الغربى:

١- يُرَوِّج البعض أن الفيلسوف الكبير برتراند راسل هو الأب الروحى لدوكنز؛ إذ إن راسل معارض قوى للأديان السماوية، ويُطَعِّم معارضته بكثير من السخرية والتلميحات والمبالغة، إلا أن هناك اختلافًا شاسعًا بين الرجلين.

تخبرنا كاترين تيت Katharine Tait ابنة راسل فى كتابها «أبى، برتراند راسل My father. Bertrand Russell» أن فيلسوفنا العظيم كان **يشعر دائمًا بوجود مكان شاغر فى عقله وفى قلبه**. مكان كان يشغله الرب عندما كان راسل صبيًّا، ثم أصبح خاويًا ولم يعثر على شىء يملؤه. وتقول كاترين بأن والدها كان يشعر دائمًا أن جوهر الإنسان لا ينتمى إلى هذا العالم المادى، وأنه أخذ منذ بداياته الفلسفية وطوال حياته **يبحث عن الإله باهتمام ومثابرة**.

(١) يعرض أنتونى فلو نقاط الضعف هذه فى الفصل الأول.

(٢) ريتشارد دوكنز Richard Dawkins: بريطانى وُلد فى نيروبى بكينيا عام ١٩٤١، يعيش الآن فى أكسفورد. وهو عالم بيولوجى، كان يشغل منصب أستاذ تبسيط العلوم فى جامعة أكسفورد. وصل إلى الشهرة من خلال كتابه «الجين الأنانى The Selfish Gene» الذى صدر عام ١٩٧٦، وعرض فيه مفهومه للتطور من خلال دور الجينات. وهو من المعارضين لمفهوم الخلق الخاص ومفهوم التصميم الذكى، كما ظهر فى كتابه «صانع الساعات الأعمى The Blind Watch Maker». وفى عام ٢٠٠٦ أصدر كتاب «أكذوبة الإله The God Delusion» الذى ينكر فيه وجود أى قوى غيبية، وينظر إلى الإيمان باعتباره من الضلالات والأوهام، ويُعتبر هذا الكتاب أشهر كتبه الآن.

وكما يحدث مع المفكرين الكبار، اصطدم برتراند راسل (كما تخبرنا ابنته) بالعديد من **المسيحيين المتعصبين والكئيبين**، الذين يعرضون الدين بأسلوب يُذهب بسماحة العلاقة بين الله والإنسان، وكذلك بين الإنسان والإنسان، كما يُذهب ببهجة الحياة، مما جعله **ينفر من الدين بالكلية**، ووصل الأمر إلى أنها فشلت تمامًا فى أن تدخل مع والدها فى أى حوار دينى.

أين هذه **المعاناة داخل نفس برتراند راسل من أجل البحث عن الحقيقة**، من العَمَاء الذى يعانى منه ريتشارد دوكنز.

٢- يقارن دوكنز بين برتراند راسل باعتباره فيلسوفًا ملحدًا يتحرى أمانة الفكر، وبين الفيلسوف أنتونى فلو. فيقول إن فلو قد أعلن ارتداده عن الإلحاد بعد أن كَبُر فى السن، وإنه أعلن «أن هناك إلـهًا» **حتى يملأ الإعلام ضجيجًا حوله**، بينما كان برتراند راسل فيلسوفًا كبيرًا حصل على جائزة نوبل.

هل لاحظت **السخرية والمقابلة** بين وصف فلو بأنه **«كَبُر فى السن»** وبين وصف راسل بأنه **«فيلسوف كبير»**؟ لقد فات دوكنز أن المفكرين الحقيقيين يُقَيِّمون الحجج والبراهين دون النظر إلى عِرْق أو جنس أو عُمْر.

كذلك فات دوكنز أن مَثَلَه الأعلى الـمُـدَّعَى، برتراند راسل، قد وصف نفسه بأنه يتبنى (أو يُنشئ) مذهبًا فلسفيًا جديدًا كل بضعة سنوات، وهذا دأب معظم الفلاسفة الكبار.

٣- عندما وجه أحدهم سؤالًا إلى دوكنز، عن **الأمور الذى يعتقد أنها صواب بالرغم من أنه لا يملك دليلًا عليها**، أجاب دوكنز: إنى **«أعتقد»**أن الكون نشأ تلقائيًا من العدم، وأن الحياة وجود مادى، وأن العقل البشرى من نتاج الانتخاب الطبيعى كما وصفه دارون. أى أن دوكنز انطلق فى كل القضايا الجوهرية من **«الاعتقاد»** بدون دليل علمى أو فلسفى، وفى الوقت نفسه يرفض رجوع فلو إلى الإيمان بدافع من الحجج العلمية والفلسفية.

٤- من سقطات دوكنز الكبيرة، أنه **حمل مقولات أينشتين حول «الإله»**، على أنه يقصد منها **«الطبيعة»**. كما يصر دائمًـا على أن يَنسب أينشتين إما إلى الإلحاد أو إلى وحدة الوجـود[1] (panthcism). هذا فى الوقت الذى يؤكد فيه أينشتين على إيمانه بوجود عقل حكيم هو المنشئ والمدبر لقوانين الطبيعة.

---

(١) وحدة الوجود: مذهب فلسفى يرى أن الإله والمخلوقات شىء واحد، وأن العالم هو صورة الإله، ومن ثَمَّ فلا موجود إلا الإله. ومن ثم، لا يرى القائلون بوحدة الوجود أن الإله قد خلق العالم، بل يقولون: إن العالم هو الإله وإن الإله هو العالم.

كذلك يؤمن الكثيرون من علماء الفيزياء الكبار المعاصرين أمثال ستيفن هوكنج وهيزنبرج وبلانك بما يؤمن به أينشتين[1]، ولكن دوكنز ينفى عنهم ذلك الإيمان، ويُصر على أن يضمهم إلى زُمرَة الملحدين الوضعيين الذين يؤمنون بأن «ما لا يمكن رصده لا وجود له».

٥- يوجه الفيزيائى الكبير جون بارو[٢] نقده اللاذع لمنهج دوكنز، قائلًا له: إن ما تعانيه من مشاكل مع الدين يرجع إلى أنك لست عالِـمًا حقيقيًّا، فأنت من البيولوجيين ولست من الفيزيائيين[٣]!، لذلك فأنت تعجز عن تصور حجم ما فى الوجود والحياة من تعقيد. ويضيف جون بارو موجهًا نقده الساخر لدوكنز: إنك ما زلت محكومًا بعقدة البيولوجيين التطوريين فى القرن التاسع عشر، ورغبتهم فى إثبات وجهة نظرهم بأى ثمن، ولو على حساب الحقيقة، ولا شك أن لَىَّ الحقائق لا يُعين كثيرًا أو قليلًا فى فهم القوانين التى تحكم الكون.

ونختم حديثنا عن دوكنز بأن ننبه القارئ إلى أنه ينتمى إلى مجموعة من الكتاب العلميين أمثال كارل ساجان[٤] وإسحق عظيموف[٥] الذين لا يكتفون بأن يكونوا علماء وكُتَّابًا، بل يعتبرون أنفسهم كهنة العلم، الذين يحددون لنا ما يُسمح بأن نؤمن به من الغيبيات.

عودة إلى أنتونى فلو

وحتى نوجز مساهمات أنتونى فلو فى مسيرة الإلحاد، نعرض ثلاث دراسات تُعتبر علامات بارزة وضعها فلو فى مسار الفلسفة الإلحادية[٦]، وهذه الدراسات هى:

(١) نعرض تعريفًا بهؤلاء العلماء فى الفصل السادس.

(٢) جون بارو John Parow: أستاذ الفيزياء بجامعة Memorial بكندا.

(٣) يرى الفيزيائيون أن البيولوجيا علم ينبثق من تاريخ الكائنات الحية، لذلك يضعونه فى منزلة أدنى من العلوم التجريبية.

(٤) كارل ساجان Carl Sagan: وُلد بالولايات المتحدة (١٩٣٤ - ١٩٩٦)، وهو عالم الفلك وعلوم الكون الشهير، من المهتمين بالحياة خارج كوكبنا، عمل مستشارًا لوكالة أبحاث الفضاء الأمريكية NASA. وهو من المهتمين بتبسيط العلوم. وهو الـمُعد للبرنامج التليفزيونى «الكون Cosmos. A personal Voyage» الذى يُعتبر أكثر البرامج التليفزيونية مشاهدة فى التاريخ؛ إذ شاهده أكثر من ٦٠٠ مليون إنسان فى ٦٠ دولة.

(٥) إسحاق عظيموف Isaac Asimov: أستاذ فى الكيمياء الحيوية، روسى المولد أمريكى الجنسية (١٩٢٠-١٩٩٢).. له حوالى ٥٠٠ كتاب فى تبسيط العلوم وفى الخيال العلمى.

(٦) نعرض المزيد عن هذه الدراسات فى الفصل الثانى من الكتاب.

١- **زيف علم اللاهوت Theology and falsification**: بحث قدمه أنتونى فلو عام ١٩٥٠، حاول فيه نسف قضية الإيمان من أساسها بأن أكد خواء المقولات الدينية من أى مفاهيم وأفكار ذات معنى. ودعى فى الوقت نفسه إلى فتح باب الحوار بين الملاحدة والمتدينين. وقد صار هذا البحث من أكثر الدراسات الفلسفية انتشارًا فى القرن العشرين.

٢- كتاب «**الإله والفلسفة**[1] **God and Philosophy**»: يؤكد فيه فلو أنه لا ينبغى إصدار الحكم فى قضية «هل هناك إله ؟» قبل أن يطرح المتدينون تصورًا واضحًا لصفات هذا الإله (ما معنى أن يصف المتدينون الخالق بأنه الروح، كلى الوجود، كلى العلم).

٣- كتاب «**فرضية الإلحاد**[2] **The Presumption of Atheism**». وفيه يدير فلو الدفة تمامًا ليجعل الكُرَة فى ملعب المتدينين، فيضع على عاتقهم مهمة إثبات وجود الإله، بعد أن كان التناول الفلسفى السابق يطالب الملاحدة بإثبات عدم وجود الإله.

وأخيرًا نقول: إنه من الموافقات العجيبة، أن سير أنتونى فلو الذى وقف فى وجه الفلسفة الوضعية الإلحادية منذ خمسين عامًا، هو الذى يتصدى اليوم للإلحاد الجديد. إنه الرجل القادر على أن يدحض حجج الملاحدة الأقدمين والمعاصرين، ويحلل ما يقدمه العلم الحديث فى هذا المضمار.

ونستكمل هذه المقدمة بأن **نعرض تقديم أنتونى فلو لكتابه «هناك إله»**:

منذ أعلنت تحولى عن الإلحاد إلى الإيمان بوجود إله، وأنا أُسأل كثيرًا عن الأسباب وراء ذلك، كما طُلب منى مرارًا أن أكتب حول هذا التحول.

من إرهاصات التحول: أننى أشرت بحيادية فى مقدمة الطبعة الأخيرة من كتابى «الإله والفلسفة» إلى المناقشات الفلسفية الدائرة وقتها حول قضيه الألوهية، ولم أعرض وجهة نظرى. وأعتقد أنه قد آن الأوان لأقول كلمتى الأخيرة فى هذا الأمر، لقد صرت **أؤمن أن هناك إلـهًا**.

ومنذ أعلنت ذلك كَثُر فى الإعلام القول بأن كِبَر سنى وخوفى من الانتقال إلى الحياة الأخرى ولقاء الإله، يقف وراء تحولى عن الإلحاد إلى الإيمان.

(١) طُبع أول مرة عام ١٩٦٦.
(٢) طبع أول مرة عام ١٩٧٦.

إن من يرددون هذا الكلام لم يتابعوا كتاباتى حول عدم إيمانى، حتى الآن، بوجود حياة أخرى بعد الموت، بالرغم من إيمانى بالإله الخالق للكون. وقد طرحت تصورى الأخير لهذا الأمر فى كتابى «منطقية الموت The Logic of Mortality».

إن هذا المفهوم، مع عدم تقبلى لفكرة تَجَسُّد الإله على هيئة بشرية (المسيح) كما يؤمن المسيحيون، من الأمور التى لم أغير فيها رأيى.

ولا شك أن قُـرَّائى يعرفون أن هذه ليست المرة الأولى التى أغير فيها رأيى فى أمر هام، بناءً على دراسات عميقة. فقد سبق أن تحولت من الماركسية إلى الدفاع القَوى عن فكرة السوق الحر. كما تراجعت منذ عشرين عامًا عن رأيى السابق بأن أفعال الإنسان توجهها العوامل المادية فقط.

وأعرض فى كتابى هذا (هناك إله) عوامل تحولى عن الإلحاد إلى الإيمان، وأترك الأمر بين أيديكم لتروا وجاهة أسباب هذا التحول.

ونختم هذا التقديم، بقول أنتونى فلو بأن اهتمامه بالإله ينبع من ثلاث كلمات:

إنه اهتمام «حكيم – أخلاقى – فضولى Prudential, moral, curious».

فهو اهتمام حكيم؛ إذ إنه إذا كان هناك إله يسيطر على مصير الإنسان، فمن الحُمْق ألا نتعرف إليه ونعمل على مرضاته.

وهو اهتمام أخلاقى؛ إذ لا شىء جدير باهتمام الإنسان، ويحقق له الخلود، قدر الوقوف إلى جانب الحقيقة.

وهو اهتمام فضولى؛ إذ لا شىء يثير العقلية العلمية ـ الفلسفية قدر استكشاف الأمور العظيمة، ولا أعتقد أن هناك أعظم من اكتشاف أن هناك إلـهًا.

مرة أخرى، إنه اهتمام «حكيم – أخلاقى – فضولى».

الباب الأول

كيف أصبحتُ فيلسوفًا ملحدًا ؟

الفصل الأول

بذور الإلحاد

وُلدت فى لندن عام ١٩٢٣، ونشأت فى بيت مسيحى ملتزم؛ إذ كان والدى كاهنًا إنجليزيًا كبيرًا من النشطاء فى الكنيسة، كما كان محاضرًا ثم رئيسًا لكلية الدراسات الدينية فى كمبريدج.

ومنذ طفولتى، أُلحقت بمدرسة خاصة (كينجزوود Kingswood)، لا أدرى لماذا لم أكن مهتمًا بالدراسات والممارسات الدينية، ولِمَ لم أشعر بالتقديس والاحترام الواجبين أثناء وجودى فى كنيسة المدرسة! حتى الترانيم الدينية الشجية لم أكن أشارك فيها ولا أتأثر بها. ذلك فى الوقت الذى كنت أقرأ فيه الكتب السياسية والتاريخية والعلمية بنهم. باختصار لم أشعر فى صغرى بأية رغبة فى التواصل مع الرب.

ما زلت، حتى الآن، لا أدرى سببًا لهذا العزوف عن الدين فى صباى. كل ما أستطيع قوله هو أن بذرة الإيمان التى كانت داخلى عند التحاقى بالمدرسة، ماتت قبل تخرجى منها.

لا أدرى على وجه التحديد، متى وكيف توجهت إلى الإلحاد بالرغم من النشأة الدينية؟ بالتأكيد هناك عوامل كثيرة شاركت فى تشكيل قناعاتى الإلحادية، منها:

١ - ورثت عن والدى «الحكمة»، التى هى (كما يقول الفيلسوف الألمانى كانط [١] (Kant) أن تختار من بين الأمور اللامتناهية المحيطة بنا، ما هو جدير باهتمامك. وبينما كان والدى يرى الحكمة

---

(١) إيمانويل كانط Immanuel Kant: من أشهر مفكرى التنوير فى أوروبا الحديثة (١٧٢٤ - ١٨٠٤).

فى تعليم الناس المفاهيم الدينية المسيحية، لم أجد ما هو جدير باهتمامى أكثر من المشاكل المعاصرة التى تشغل بنى الإنسان.

٢- كذلك ورثت عن والدى شغفه العقلى ومنهجه فى البحث. فعندما كان يبحث فى قضية من القضايا الدينية، كان يجمع ويحلل كل الحجج والبراهين الخاصة بتلك القضية، قبل أن يصدر الرأى فيها.

ومن المفارقات، أن اكتسابى لحب الحكمة واكتسابى لهذه العقلية المدققة المحللة الناقدة عن والدى، قد أخذانى بعيدًا عن إيمانه وتدينه.

٣- يمثل إحساسى «بمعضلة الشر والألم» أحد العوامل المبكرة وراء اندفاعى تجاه الإلحاد. كنت فى طفولتى وصباى، خلال السنوات التى سبقت الحرب العالمية الثانية، كثير السفر مع والدى خلال الإجازات الدراسية إلى فرنسا وألمانيا. وما زلت أذكر المسيرات الهادرة التى رأيتها فى بافاريا، والتى تضم آلاف الفتيان من فرق الكشافة بملابسهم المميزة، والتى تتوعد المعادين للنازية بالهلاك.

ارتسمت هذه المشاهد فى عقلى فى فتره صباى، وظلت بكل ما تحمل من كُرْه، تمثل تناقضًا مع ما تربيت عليه فى عقيدتى المسيحية من أن «الله محبة»؛ إذ كيف يسمح من يحبنا بهذه الشرور[1]؟!

٤- عندما التحقت بمدرسة كنجزوود، كان يترأسها رجل من أعظم مُديرى المدارس. كان يشجعنا كثيرًا على التردد على المكتبة للاطِّلاع الحر. وكانت موعظة الأحد (عندما كان يلقيها بنفسه) فى كنيسة المدرسة تتحدث عن عجائب الطبيعة وقوانينها، ولا تتعرض على الإطلاق لحياة أخرى بعد الموت.

٥- كنت دائم النقاش مع أقرانى ومع من هم أكبر منى عُمرًا، حول القضايا الإيمانية التى يطرحها الكهنة. وكنت غير متقبل على الإطلاق لفكرة الرب «كُلِّى الوجود - كُلِّى العلم - كُلِّى القدرة».

(١) يُعرف هذا التناقض الظاهرى بمعضلة الشر والألم. وقد قاد هذا التناقض الكثيرين إلى الإلحاد منذ قديم الزمان، بينما قدمت الأديان السماوية التفسيرات المقبولة لهذا التناقض الظاهرى.

وما إن بلغت سن الخامسة عشر، حتى أعلنت لزملائى رفضى الإقرار بوجود الإله. تم ذلك كله دون أن أتناقش مع قس الاعتراف[1] حول شكوكى، كذلك نجحت فى أن أخفى قناعاتى الجديدة عن والدىَّ لفترة طويلة حتى لا أعكر صفو البيت.

وبحلول شهر يناير عام ١٩٤٦، وكنت قد قاربت الثالثة والعشرين من عمرى، ذاع الخبر بأننى قد أصبحت ملحدًا دهريًّا[2]، وأن قناعتى لا رجعة فيها، فشعر مَن بالبيت أنه لا طائل من مناقشة هذا الأمر معى.

وتبعًا للقول المأثور «إن ما تؤمن به فى سن الثالثة عشر هو ما تموت عليه»، أستطيع القول: إن الأفكار التى كونتها فى صباى قد ظلت معى حتى بلغت الثمانين من عمرى واقتربت من الموت.

> **هكذا، وبمنتهى الصدق والأمانة العلمية، يصرح أنتونى فلو بأن اندفاعه فى سنه المبكرة نحو الإلحاد كان متسرعًا، وكان نتيجة لأسباب واهية وخاطئة. وبالرغم من أنه أعاد النظر مرارًا فى هذه الأسباب، فإنه لقرابة سبعين عامًا لم يضع قدمه على أرض صلبه تدفعه لتغيير قناعاته الإلحادية.**

تشكيل فيلسوف

ذكرت أننى ورثت عن والدى الحكمة والعقلية المدققة المحللة الناقدة. كما شجعنى الجو الذى وفره ناظر المدرسة فى كنجزوود على الاطلاع النهِم وإعمال الفكر.

فى عام ١٩٤٢، انتهيت من دراستى بمدرسة كنجزوود بمدينة كمبريدج، والتحقت بجامعة أكسفورد لدراسة الآداب. ولما كانت الحرب العالمية الثانية مستعرة، تم تجنيدى فى عمل غير قتالى فى القوات الجوية.

(١) قس الاعتراف، هو رجل دين يلجأ إليه المسيحيون ليعترفوا أمامه بذنوبهم، حتى يكون واسطة بينهم وبين الله فى قبول توبتهم.

(٢) الدهرى هو من لا يؤمن بحياة أخرى بعد الموت، ومن ثَمَّ فالقبر هو آخر المطاف. وقد وصف الدهريون هذا المعنى وقت نزول الإسلام بقولهم: ما هى إلا أرحام تدفع، وقبور تبلع، وما يهلكنا إلا الدهر.

بعد انتهاء الحرب وتسريحى من الخدمة العسكرية فى يناير عام ١٩٤٦، عدت إلى جامعة أكسفورد التى أصبحت بعد الحرب مكانًا يموج بالحوارات والمناقشات السياسية والثقافية. وفى صيف ١٩٤٧، اجتزت الامتحان النهائى وتخرجت حاصلًا على مرتبة الشرف الأولى، وقررت أن أتخصص فى الفلسفة.

بدأت دراساتى العليا فى الفلسفة بجامعة أكسفورد تحت إشـراف «جلبرت رايل Gilbert Ryle» الذى كان أستاذًا لفلسفة الميتافيزيقا (الإلهيات - الغيبيات)، ثم أصبح عام ١٩٤٧ رئيسًا لأقسام الفلسفة الثلاثة بالجامعة.

وتأثرت إلى حد كبير بمدرسى «هنرى برايس Henry Price»، الذى كنت أشاركه الاهتمام بالباراسيكولوجى[١]، وكنا نحاضر فى هذا الموضوع معًا فى اللقاءات والندوات المختلفة.

فى عام ١٩٤٨، حصلت على منحة لدراسة الفلسفة العقلية، كما طُلب منى فى الوقت نفسه أن أقوم بالتدريس فى أكسفورد، فكنت أقوم بشرح مذكرات الفيلسوف العبقرى «ويتجنشتين[٢] Wittgenstein».

كان أستاذى جلبرت رايل يسعى للقاء كل من يختلف معه فى قضية فلسفية ليتناقش معه فيها، وقد تعلمت منه هذا الأسلوب فى المصارحة والمواجهة، كما تعلمت منه القاعدة الذهبية التى ظلت تحكم تفكيرى وسلوكى طوال حياتى، وهو المبدأ الذى ينسبه أفلاطون[٣] فى كتابه «الجمهورية» لأستاذه سقراط:

«أن نتبع البرهان إلى حيث يقودنا We must follow the Argument wherever it leads»

كان هذا الشعار هو القاعده التى قام عليها نادى سقراط بجامعة أكسفورد، والذى يعقد لقاءاته مساء الإثنين من كل أسبوع. كان رئيس النادى (فى الفترة من ١٩٤٢ إلى ١٩٥٤) هو

(١) الباراسيكولوجى: فرع من علم النفس يبحث فى الظواهر الغريبة، كالتخاطر والتحكم فى الأجسام عن بعد وغيرها.

(٢) لودفيج ويتجنشتين Ludwig Wittgenstein: فيلسوف نمساوى إنجليزى (١٨٨٩ - ١٩٥١). شارك فى تأسيس الفلسفة الوضعية المنطقية، ومدرسة الفلسفة اللغوية الجديدة (نعرضها فيما بعد).

(٣) يمثل أرسطو وأفلاطون وسقراط الثالوث الفلسفى الأعظم فى الفلسفة اليونانية القديمة، والذى قامت عليه الفلسفة الغربية الحديثة، بل والحضارة الغربية كلها. وكان الثلاثة من الفلاسفة المؤلـهة، وكان أرسطو تلميذًا لأفلاطون، الذى كان تلميذًا لسقراط.=

الكاتب والفيلسوف الكبير ك. س. **لويس C.S.Lewis** الذى يُعتبر أكبر مناصر للمسيحية فى النصف الثانى من القرن العشرين، وكان يشتبك فى حوارات ساخنة مع الملاحدة فى لقاءات النادى الأسبوعية، وكانت الغَلَبة سجالًا بين الطرفين.

وعندما سُئلت فى حوار أذيع فى الإذاعة البريطانية BBC عن رفضى لحجج لويس المناصِرة للمسيحية، أجبت بأننى لم أجد **فيها القدر الكافى من الإقناع، خاصة فكرة تجسد الإله فى هيئة بشرية.**

خلال فصلى الدراسى الأخير بجامعة أكسفورد، صدر كتاب «اللغة والحقيقة والمنطق» للفيلسوف ألفريد آير، وكان يؤصل فيه **بدعة الفلسفة الوضعية المنطقية** التى ترى أن «**كل ما لا يمكن رصده لا وجود له**»، ومن ثم فإن كل المقولات الدينية حول الإله واليوم الآخر والأنبياء والرسل و... و... هراء فى هراء، ولا ينبغى طرحها للمناقشة.

أدرك أعضاء نادى سقراط بأكسفورد **سخافة أفكار آير**، التى اعترفَ بتهافتها فيما بعد. ومن ثم، لاقى البحث الوحيد الذى قدمته أمام النادى بعنوان «**زيف علم اللاهوت**»[1] قبولًا

أرسطو **Aristotle**: (٣٨٤ ق.م. - ٣٢٢ ق.م). من أعظم الفلاسفة عبر العصور، يلقب بالمعلم الأول، وكان أستاذًا للإسكندر الأكبر. إبداعاته فى المجالات العلمية (الفيزياء - الفلك - البيولوجيا) تنافس إبداعاته فى العلوم الإنسانية (الفلسفة ـ السياسة ـ الأخلاق ـ المسرح ـ الموسيقى ـ الإلهيات). وهو واضع أسس القياس فى علم المنطق؛ لذلك عُرف بالقياس الأرسطى. وقد تبنت الكنيسة الكاثوليكية فى العصور الوسطى الأفكار العلمية لأرسطو، ووضعتها فى منزلة مقدسة لا يجوز للعلماء الخروج عنها، وكان ذلك سبب ما واجه جاليليو وغيره من العلماء من اضطهاد.

أفلاطون **Plato**: (٤٢٨ ق.م - ٣٤٧ ق.م). فيلسوف اليونان العظيم المهتم بالأخلاق والمثل العليا، وقد عبر عما ينبغى أن تكون عليه حياة الناس فى المدينة الفاضلة فى كتابه «الجمهورية». وهو مؤسس أكاديمية أثينا، التى تُعتبر أول مدرسة للدراسات العليا فى الغرب القديم. وله اهتمام بالرياضيات. كما دَوَّن محاوراته مع أستاذه سقراط بأسلوب نقل إلينا أفكارهما، ولولا هذه المحاورات ما نقل التاريخ لنا شيئًا عن سقراط.

سقراط **Socrates** : (٤٧٠ ق.م - ٣٩٩ ق.م). صاحب إضافة عظيمة للفلسفة، فبعد أن كانت تقتصر على دراسة الأصل المادى للكون والحياة (التراب ـ الماء ـ الهواء ـ النار)، أضاف إليها الاهتمام بالأخلاق والقيم العليا. وله اهتمام كبير بالمنطق وأصول المعرفة. سجل له التاريخ موقفه الشهير عندما حكمت عليه محكمة أثينا بالإعدام عن طريق تجرع السم، بتهمة إفساد عقول الشباب!! فرفض الهرب من السجن بالرغم من الفرصة المتاحة، حتى يعطى الشباب القدوة فى الامتثال لنظام الدولة، التى قَبِل أن يحيا تحت قانونها، ولأنه يؤمن بأن الفيلسوف لا ينبغى أن يخاف من الموت الذى يحرر الروح من سجن الجسد.

(١) التعريف بالبحث فى الفصل القادم.

كبيرًا، فبالرغم من أننى أُؤيد فيه فكرة الإلحاد، فإننى كنت أدعو فيه أيضًا إلى الدخول فى حوارات. واعتُبر بحثى هذا الضربة القاضية للفلسفة الوضعية المنطقية.

خلال فترة وجودى فى أكسفورد (١٩٤٦-١٩٥٠)، ظهر فيها اتجاه فلسفى اعتُبر «ثورة فى الفلسفة»، وأُطلق عليه اصطلاح «الفلسفة الجديدة». ومحورها أننا لا نستطيع أن نتفهم الأفكار الفلسفية المختلفة إلا بدراسة لغوية متعمقة للكلمات التى تطرح هذه المفاهيم، أى أنها فلسفة تحليلية لغوية. وكان ذلك يعنى ببساطة المزيد من الاهتمام بالمفاهيم اللغوية.

وقد نَشرتُ أبحاثًا حول الفلسفة الجديدة، ضُمَّت فى كتاب باسم «**الفلسفة واللغة** Philosophy and language»، حقق قدرًا لا بأس به من الذيوع، حتى اشتهرت عندما عملت بجامعة أبردين بأسكتلندا بأننى: «**شارح فلسفة أكسفورد اللغوية**».

فى نهاية عام ١٩٥٠، أصبحت مدرسًا بكنيسة المسيح بأكسفورد، كما أصبحت محاضرًا فى فلسفة الأخلاق بجامعة أبردين Aberdeen بأسكوتلندا.

وبحلول صيف ١٩٥٤، عُينت أستاذًا للفلسفة بجامعه كيل Keele ببريطانيا، وبقيت هناك سبعة عشر عامًا، ولم أغادرها إلا عندما بدأ تميز هذه الجامعة فى الانحسار.

وفى يناير ١٩٧٢، انتقلت إلى جامعة كالجارى Calgary بكندا ومنها إلى جامعة ريدنج Reading عام ١٩٧٣ حيث بقيت حتى نهاية عام ١٩٨٢.

بعدها، انتقلت إلى جامعة يورك York بتورنتو بكندا لمدة ثلاث سنوات، ثم إلى أوهايو لأعمل بجامعة بولينج جرين Bowling Green لمدة ست سنوات.

محاولات وإحباطات مبكرة

كان اهتمامى **بالشيوعية** من اهتماماتى الفلسفية المبكرة، وقد ظللت لفترة من النشطاء فى الجناح المتطرف فى حزب العمل البريطانى، حتى استقلت منه فى أوائل الخمسينيات.

أعقب ذلك اهتمامى **بالباراسيكولوجى**، حتى إننى كتبت كتابًا سقيمًا فى هذا العلم وأسميته «تناول جديد للبحوث النفسية»[1]. وقد كَفَّرتُ عن هذا التناول السيئ بعد ذلك بعشرات السنين، بكتاب جيد أسميته «قراءة فى المشاكل الفلسفية للباراسيكولوجى»[2].

(1) A New approach to psychical research.

(2) Readings in the philosophical problems of parapsychology.

ولاهتمامى بالعلاقة بين نظرية التطور **الداروينية والفكر الشيوعى** كتبت فى الستينيات كتاب «أخلاقيات التطور»[1]، ثم كتاب «التطور الداروينى»[2] فى ثمانينيات القرن العشرين.

وفى الفترة المبكرة نفسها، كنت مهتمًّا بما طَرَحتْه الاكتشافات الفيزيائية الحديثة عن العلاقة بين الفيزياء والعقل، والتى تمخض عنها ظهور فرع من الفلسفة عُرف باسم «المذهب **المثالى Idealism**». وهو نظرية ترى أن **الحقيقة الأساسية للأشياء المادية تكمن داخل العقل، وأنه ليس لهذه الأشياء وجود حقيقى خارج العقل!** بعدها بسنوات بينت فى كتابى «مقدمة للفلسفة الغربية»[3] أن هذا المذهب المثالى **مدمر للعلم؛ إذ يعنى** أن كل الوجود لا وجود له، ومن ثم تتساقط كل العلوم، بل يصبح العقل نفسه لا وجود له.

ربما لم يُـعجِـب هذا السرد لرحلتى العلمية عن تساؤل: لماذا ومتى صرت فيلسوفًا؟

وهو سؤال لا أملك له إجابة محددة.

يمكن باختصار القول: إن اهتمامى بالفلسفة بدأ منذ وجودى فى مدرسة كنجزوود، وإننى كنت أقرب ما أكون من الفلسفة عندما كنت أحضر لقاءات نادى سقراط بأكسفورد. وربما كان اختيارى للدراسات العليا تحت إشراف جلبرت رايل هو نقطة التحول فى حياتى إلى احتراف الفلسفة، وهى النقطة التى حرقت عندها مراكبى مع التخصصات الأخرى.

---

(1) Evolutionary Ethics.

(2) Darwanian Evolution.

(3) An Introduction to western philosophy.

الفصل الثانى

ثمار شجرة الإلحاد

بدأ اهتمامى بالفلسفة يتخذ شكلًا أكاديميًا منذ ظهور بحث «زيف علم اللاهوت». وعلى مدى نصف قرن من الزمان، نشرتُ قُرابة خمسة وثلاثين مجلدًا فى مختلف فروع الفلسفة.

كانت فلسفة الإلهيات أكثر فروع الفلسفة إثارة لاهتمامى، كما كتبت فى فلسفة اللغة والمنطق والأخلاق والاجتماع والسياسة والتعليم. وكتبت كذلك حول قضايا حرية الإرادة والباراسيكولوجى والحياة بعد الموت وغيرها.

سأتوقف فى هذا الفصل عند أربع محطات، أعتبرها أحجار زاوية فى منظورى الإلحادى فى فلسفة الإلهيات على مدى خمسين عامًا، اعتقدت بعدها أن مفاهيمى الفلسفية قد تشكلت ونضجت وتبلورت واستقرت.

(أ) زيف علم اللاهوت Theology and falsification

ذكرت فى الفصل السابق الملابسات التى أحاطت بعرضى لهذا البحث عام ١٩٥٠ أمام نادى سقراط بأكسفورد. بدأت البحث بعرض الأسباب التى دفعتنى لتبنى الإلحاد فى سن مبكرة، وتدور هذه الأسباب حول نقطتين:

١ - معضلة الشر والألم التى تقف عقبة أمام مفهوم «الله محبة - الله الذى لا يقبل الشرور».

٢ - طلاقة المشيئة الإلهية، ليست عذرًا كافيًا لصب كل هذه المعاناة على البشر.

وقد أقمت البحث على القاعدة الفلسفية: لا يمكن قبول ادعاءٍ ما إلا إذا أقمنا الدليل على خطأ كل الأمور التى تعارضه.

فمثلًا، ادعاء أن الأرض كروية يعارضه أن الأرض تبدو أمامنا مستوية، لذلك ينبغى إقامة الدليل على خطأ هذا التعارض الظاهرى أو تفسيره.

وعند تطبيق هذه القاعدة، للحكم على صحة ادعاء المؤمنين بأن «الله محبة» (أى أن الإله يحبنا)، ينبغى أن ينتفى وجود الشر والمعاناة والألم من حياة البشر، وهذا ليس واقع الأمر.

لِـمَ لا نستنتج من وجود هذه النقائص فى حياتنا أن الإله لا يحبنا، أو أنه ليس هناك إله البتة، خاصة أن المتدينين لم يقدموا حيثيات قاطعة تثبت أن هناك إلـهًا، وأنه يحبنا.

كما أكد البحث على أهمية تحليل معنى المصطلاحات اللغوية التى يُعَبِّر بها المؤمنون عن مفاهيمهم الدينية (الفلسفة التحليلية اللغوية).

كان غرضى من هذا الطرح أن أشعل الحوار بين الـمُلحدين والمتدينين، وأن أحث المؤمنين على أن يشرحوا اصطلاحاتهم ومفاهيمهم (مثل: الله محبة، الثالوث، الصليب...) بشكل واضح مفهوم، خاصة مع وجود شواهد قوية تعارض ما يقولون.

وبالرغم من هذا، ادَّعى البعض أننى أتفق مع الفلسفة الوضعية المنطقية التى ترى أن المفاهيم الدينية لا معنى لها ولا ينبغى طرحها للمناقشة، وهذا معنى لم أقصده على الإطلاق. بل إننى أعتبر أن دعوتى للحوار بين الملحدين والمتدينين، وكذلك دعوتى لشرح مصطلحات المؤمنين والرد على ما يواجهها من معارضة، تمثل الضربة القاضية للفلسفة الوضعية المنطقية.

حقق هذا البحث ذيوعًا كبيرًا وطُبع عدة طبعات، وأصبح أكثر الدراسات الفلسفية شيوعًا فى القرن العشرين، كما وُصف بأنه «يطرح أفكارًا وحججًا جديدة فى مجال فلسفة الإلحاد»، وأنه «يطرح منهجًا فلسفيًّا جديدًا لدراسة قضية الألوهية».

نتعلم من الاختلاف

أثار بحثى «زيف علم اللاهوت» الكثير من ردود الأفعال التى استمرت لعشرات السنين (ومازالت مستمرة حتى اليوم)، وقد أعاننى بعضها على أن أصحح بعضًا من مفاهيمى.

اعترض «ر.م.هير[1] R.M. Hare» (أستاذ فلسفة الأخلاق فى أكسفورد) على التعامل مع المفاهيم الدينية بأسلوب التحليل المنطقى والتدقيق اللغوى، ودعى إلى أن **نفهم الاصطلاحات الدينية فهمًا عامًّا**. ولا أعتقد أن هذا الطرح يعجب المتدينين؛ إذ إنه ينفى إمكانية الإيمان بناءً على أدلة العقل والمنطق.

أما «بازل ميتشل[2] Basil Mitchell»(الذى تَرَأَّس نادى سقراط بعد لويس) فقد اعترض **بأنه لا مانع من أن يوجد فى العقائد الدينية ما يتعارض مع الحقائق الظاهرة**، ذلك لما تنطوى عليه العقائد من غيبيات. ومع ذلك أقر ميتشل بأن المتدينين يُحَوِّلون معتقداتهم إلى صياغات خالية من المعنى.

ويرى «آى. أم. كرمبى I.M. Crombie» (المهتم بفلسفة أفلاطون) أنه ينبغى أن نفهم المصطلحات الدينية فى ظل ثلاثة مفاهيم:

أولًا: **الوجود الإلهى وجود خارق، يتجاوز كل ما نعرف**، لذلك لا ينطبق ما يوصَف به الوجود المخلوق على الإله الخالق.

ثانيًا: بناءً على «أولًا»، **فإن الوجود الإلهى يتجاوز إمكانية الإحاطة والفهم**.

ثالثًا: بناءً على «أولًا وثانيًا»، **فإن الحديث عن الإله ينبغى أن يكون باستخدام لغة المجاز والرموز**.

لذلك **يرفض كرمبى أن نستخدم الفلسفة التحليلية اللغوية**، التى تعتمد على التدقيق فى المعنى اللغوى للألفاظ، لفهم الصياغات الخاصة بالعقائد الدينية.

ويرى «ريبرن هيمبك Rebern Hembek» (أستاذ الفلسفة والدراسات الدينية الفخرى بجامعة واشنطن) أننى وقعت فى ثلاثة أخطاء فى بحثى حين اعتبرت:

أولًا: أن المقصود من أى جملة هو المعنى اللغوى الظاهر لكلماتها، **دون النظر إلى المجاز**.

ثانيًا: أن عدم توافق برهان ما مع معتقَدٍ ما، يعنى أن هذا البرهان يثبت خطأ المعتقد، بينما **ينبغى التفرقة بين عدم التوافق وبين التخطىء**.

ثالثًا: أن المتدينين لا يدركون التناقض بين معضلة الشر ومفهوم أن الله محبة. ويرى بأن المتدينين **يدركون هذا التناقض الظاهرى، ويطرحون العديد من التأويلات لإزالته**.

---

(١) ر.م. هير R.M. Hare: (١٩١٩ - ٢٠٠٢م).

(٢) بازل ميتشل Basil Mitchell: (وُلد عام ١٩١٧) أستاذ الفلسفة الدينية بأكسفورد.

ويرى هيمبك أن خطأى المنهجى الأكبر عند الحكم على مفهوم ما بالخطأ أو الصواب، هو **أننى أنظر إليه نظرة مطلقة دون أخذ الظروف المحيطة فى الاعتبار.**

لا شك أن رأى هيمبك من أصوب ما وُجِّه من نقد إلى بحث «زيف علم اللاهوت»، وقد استفدت منه فى تصحيح منهجى الفلسفى.

(ب) الإله والفلسفة God and philosophy

قمت فى هذا الكتاب بعمل دراسة **منهجية تحليلية للديانة المسيحية**؛ حيث لم أجد فى الكتابات الحديثة تحليلًا معاصرًا للمعتقدات المسيحية، التى يعتبرها المسيحيون مفاهيم بديهية وأساسية.

صدر الكتاب عام ١٩٦٦، وخرجت منه طبعات عديدة كان آخرها عام ٢٠٠٥.

قدمت فى الكتاب **منهجًا للملاحدة للتعامل مع الفكر الدينى**. ولما كانت الدعوة للدين تتم على ثلاث مراحل، ذكرت أن أول ما ينبغى البدء به هو تمحيص مفهوم الإله (الروح، كلى الوجود، كلى العلم)، بعد ذلك يأتى تقييم حجج الدين الطبيعى[1] ثم الرد على دعاوى الوحى الإلهى.

من أجل **تمحيص مفهوم الإله**، ذكرت أن هناك ثلاثة تساؤلات رئيسية ينبغى الإجابة عنها عند تناول قضية الألوهية:

- كيف نُعَرِّف الإله؟
- كيف نَصِف الإله ببعض الصفات التى تتفق مع صفاتنا (مثل الوجود والقدرة والعلم)، بالرغم من دعاوى المتدينين مخالفته التامة للمخلوقات؟
- إذا أقررنا بوجود الإله الخَيِّر، كيف نفسر معضلة الشر والألم؟

(١) الدين الطبيعى Natural Religion: هو إدراك وجود الإله من خلال العقل والعلم والتجربة الحياتية اليومية، بدلًا من الوحى، وإن لم يكن ضروريًّا أن ينكر الوحى. وكان هذا المفهوم شائعًا فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. ويُستخدم هذا الاصطلاح فى العصر الحديث ليشير إلى ما بين البشر من جميع الأجناس والملل من شعور فطرى بوجود الإله.

كانت إجابة المتدينين جاهزة بخصوص السؤال الثانى، وهى أن وصف الإله يتم بما يُعرف فى علم المنطق بأسلوب المشابهة، وهو أنه لا يمكننا أن نَصِف الإله إلا بما نعرف من صفات بشرية (موجود، حى، قادر، عليم) مع إدراك أن هناك فوارق كيفية وكمية فى هذه الصفات بين الخالق والمخلوق.

كذلك كانت الإجابة عن التساؤل الثالث جاهزة، وهى طلاقة الإرادة فى أن يُنزل الإله بالبشر الخير أو الشر، وأن الشر ابتلاء للإنسان يلقى عنه العِوَض فى حياة أخرى بعد الموت.

أما التساؤل الأول فلم يكن قد أخذ حظه من اهتمام المتدينين من قبل. وقصدت أن أؤكد بهذا التساؤل أنه لا ينبغى مناقشة الأدلة على وجود الإله، قبل أن نكون قادرين على أن نُعَرِّف هذا الإله وندرك معنى أوصافه (مثل الموجود فى كل مكان ولا جسم له).

كان الفيلسوف «ريتشارد سوينبرن[1] Richard Swinburne» من أحكم من تصدى لهذا التساؤل. فأجاب بأن حقيقة شخص ما تختلف عن جسده وسلوكه، وإذا كان من المستحيل التعرف على حقيقة الإنسان فإن هذا العجز أَوْلَى فى حق الإله.

كذلك تنبه الفيلسوف الإنجليزى الشهير «فريدريك كوبلستون[2] Frederick Copleston» إلى خطورة تساؤلى، فأجاب بأنه ليس باستطاعة العقل البشرى أن يشير بإصبعه إلى الإله كما يشير إلى فراشة فى متحف للفراشات. وأضاف أن الإله يتجلى لكل إنسان تبعًا لقدرة الفرد على التسامى خارج إطار الزمان والمكان.

انتقلت إلى المرحلة الثانية، فأكدت على أن الأدلة على الوجود الإلهى المستقاة من دقة تصميم الكون ومن فطرية المفاهيم الأخلاقية (حجج الدين الطبيعى) أدلة واهية. ثم انتهيت بأن أكدت أن دعاوى الوحى الإلهى لا تثبت أمام التمحيص المنهجى.

والآن، أعتبر أن ما أوردت فى كتاب «الإله والفلسفة» من حجج وتساؤلات، منذ أربعين سنة، قد أصبح خطوة على الطريق؛ إذ تخليت عن معظم ما به من مفاهيم.

(١) «ريتشارد سوينبرن Richard Swinburne»: بريطانى، وُلد عام ١٩٣٤. شغل منصب أستاذ الفلسفة التحليلية بجامعة أكسفورد، وله اهتمام كبير بفلسفة الأديان، وفلسفة العلم. يُصدر كل عامين أو ثلاثة كتابًا فلسفيًّا عميقًا، بأسلوب يفهمه العامة. ومن أشهر هذه الكتب كتاب ? Is there a God الذى تُرجم إلى أكثر من ١٢ لغة.

(٢) «فريدريك كوبلستون Frederick Copleston» : (١٩٠٧ - ١٩٩٤)، له موسوعة ذات شهرة كبيرة فى تاريخ الفلسفة فى ٩ مجلدات.

(جـ) فرضية الإلحاد The presumption of Atheism

فى هذا الكتاب (صدر عام ١٩٧٦) **وَضَعتُ الكُرَة فى ملعب المتدينين؛ إذ أكدت أن إثبات الوجود الإلهى يقع على عاتق المؤمنين، وأن عليهم أن يطرحوا من الحجج ما يفحم الملاحدة؛ إذ** إن «البينة على من ادَّعى». ذلك بعد أن كان المنهج فى فلسفة الأديان يضع على الملاحدة مسئولية إثبات عدم وجود الإله، بدعوى أن الشعور بوجود الإله إحساس فطرى.

لقد قلقل هذا الطرح موقف المتدينين من جذوره، فلم يحدث أن واجه الإيمان بوجود الإله مثل هذا التحدى من قبل.

وذكرت أن إثبات الوجود الإلهى ينبغى أن يمر بالمراحل التى يمر بها أى افتراض علمى أو فلسفى، وهى:

١- تعريف مفهوم الإله الذى نطرح إثبات وجوده للبحث.

٢- تحديد كيف تتم دراسة الظاهرة المعروضة للبحث (كل ظاهرة يناسبها منهج خاص).

٣- طرح وتحليل الأدلة التى تشير إلى صدق هذا المفهوم (افتراض وجود الإله).

وكنت مصممًا على التمسك بالنفى حتى يُقَدم الآخرون البرهان على وجود الإله. كنت أطرح هذا المنهج وأنا **أدرك تمامًا أن إثبات أمر ما أصعب كثيرًا من نفيه.**

أتى أقوى اعتراض على ما طالبت به المؤمنين من قِبَل الفيلسوف الأمريكى العظيم «ألفين بلانتنجا[1] Alvin Plantinga». لقد أصر على أن **«الإيمان شعور فطرى»**، وأن الاعتقاد فى وجود الإله مثل الاعتقاد فى مفاهيم أساسية أخرى، كالاعتقاد بأن للآخرين عقولًا كعقولنا، والاعتقاد فى صحة حواسنا، والقول بأن الكل أكبر من الجزء،... إننا نؤمن بصحة هذه المفاهيم دون الحاجة إلى أن نسوق الدليل.

أما الفيلسوف «رالف مك أينرنى[2] Ralph Mc Inerny» فقد تمسك بأن الانتظام والإعجاز فى بنية الوجود، وثبات قوانين الطبيعة تجعل «القول بوجود خالق بديهة منطقية»، وعلى من ينكر ذلك أن يقدم الدليل.

(١) ألفين بلانتنجا Alvin Plantinga: وُلد عام ١٩٣٢، ويشغل منصب أستاذ الفلسفة بجامعة نوتردام، وله اهتمام بفلسفة الأديان وأصول المعرفة والغيبيات، وصفته مجلة تايم بأنه فيلسوف الإله.

(٢) رالف مك أينرنى Ralph Mc Inerny: أستاذ الفلسفة الأمريكى بجامعة نوتردام (وُلد عام ١٩٢٩). له كتاب فى المسيحية واللاهوت المسيحى وبعض القصص الدينية.

(د) أنا وديفيد هيوم

كنت مهتمًا فى مرحلة من حياتى بدراسة فلسفة «ديفيد هيوم[1] David Hume» (من أعتى فلاسفة الإلحاد)، وكتبت عنه عام ١٩٦١ كتابًا بعنوان: «فلسفة الإيمان عند هيوم Humes philosophy of Belief» عندما كنت متبنيًا الكثير من آرائه، قبل أن أغير قناعاتى فى هذه الآراء.

من أهم القضايا التى تبنيتها ثم غيرت فيها رأيى، كانت **قضية رفض «ارتباط النتيجة بالسبب Cause and Effect Law»**. فهيوم يرى أنه إذا كنا نلاحظ أن الماء يغلى عند تسخينه إلى درجة ١٠٠°م، فلا يعنى ذلك وجود علاقة سببية بين التسخين والغليان! ويعتبر أن الأمر مجرد ربط يقوم به العقل نتيجة لتكرار هذا التزامل Assocation. أى أن عقولنا هى التى شكلت من ذلك التزامل قانونًا طبيعيًا، يقول بأن الماء يغلى عند درجة ١٠٠°م.

ويعتبر هيوم أن عقولنا هى التى افترضت كل العلاقات التى نراها فى الوجود من حولنا، **ومن ثَمَّ فلا وجود لأى قوانين تحكم الطبيعة!** لقد صرت الآن أؤمن بأن هذا المفهوم يقضى على كل موضوعية من حولنا، بل يدمر كل العلوم من أساسها.

حرية الإرادة الإنسانية

من مفاهيم هيوم الأخرى التى تبنيتها لفترة، ثم غيرت فيها قناعتى، قضية «حرية الإرادة الإنسانية» (الجبر والاختيار[2]) وهى قضية ذات أهمية قصوى فى الفلسفة وفى جميع الديانات.

---

(١) ديفيد هيوم David Hume: فيلسوف الإلحاد الأسكتلندى الشهير (١٧١١ - ١٧٧٦). رفض هيوم المنزلة الخاصة التى تضع فيها الفلسفة الإنسان، باعتباره خلقًا مميزًا للإله. وأرسى قواعد «الفلسفة الطبيعية» التى تنظر للإنسان من خلال المحسوسات فقط، ومن ثَمَّ يساوى بينه وبين باقى المخلوقات. كما أنه من الرافضين تمامًا لبرهان التصميم. كما كان مهتمًّا بفلسفة السياسة والتاريخ، وله كتاب فى تاريخ إنجلترا فى ستة مجلدات.

(٢) الجبر والاختيار: يرى مذهب الجبر أن الإنسان ليس له إرادة حرة، وأنه مجبر (مُسَيَّر) فى كل ما يفعل. ومن ثَمَّ تسقط فكرة الثواب والعقاب فى الحياة الآخرة.

أما مذهب الاختيار فيرى أن لنا إرادة حرة نختار بها بين بدائل مختلفة فى كثير من المواقف. وإن كان ذلك لا يمنع أن الإنسان مُسَيَّر فى بعض الأمور، كالموت والمرض والحوادث.

ففى بداية تشكل قناعاتى الإلحادية اعترضتنى معضلة الشر والألم. وقد أجاب المتدينون على هذه الإشكالية **بأن الله يعطى البشر إرادة حرة، وأن اختياراتهم السيئة هى السبب فى معظم الشرور كالحروب** (وقد أسميتُ رأيهم هذا «دفاع الإرادة الحرة»).

ولكن كيف نفسر **الكوارث الطبيعية**، وكيف نوفِّق بين الإرادة الحرة وبين تَـحَكُّم قوى الطبيعة فى الكثير من اختياراتنا؟

ثم كيف ينسجم وجود الإرادة الإنسانية الحرة مع طلاقة الإرادة الإلهية، ومع علم الإله المسبق بأفعالنا (طلاقة العلم الإلهى)؟

ألا يعنى وجود إله مطلق القدرة أنه قادر على أن يخلق فى الإنسان الرغبة فى أن يطيعه هو، مما يعنى أن الإله يجبر الإنسان على الطاعة بالرغم من أنه أعطاه إرادة حرة؟!

فى مرحلة لاحقة أدركت **أنه ينبغى أن نفرق بين معنيين مختلفين تمامًا لكلمة سبب** Cause. فهناك «الأسباب» التى هى نتاج الفعل الإنسانى **(الأسباب الإنسانية)** وهناك الأسباب الخارجة عن الفعل الإنسانى **(الأسباب الطبيعية الفيزيائية)**.

يعيننا هذا التقسيم على فهم مبدأ الحتمية[1] Determinis. ولنأخذ ـ على سبيل المثال ـ ظاهرة **كسوف الشمس** التى ترجع لأسباب فيزيائية، هذه الظاهرة الطبيعية حتمية الحدوث إذا وقعت الشمس مع القمر والأرض على خط واحد، وتكون مستحيلة الحدوث إذا لم تتوافر هذه الظروف الطبيعية. وهى مثال جيد للارتباط المباشر بين السبب والنتيجة فى حالة الأسباب الطبيعية الفيزيائية.

أما إذا نظرنا إلى **فعل بشرى**، كالذى يحدث إذا حملتُ إليك خبرًا سارًّا، فإنك قد تحتفى بهذا الخبر فتصيح فرحًا أو تنحنى شكرًا لله، وقد تختار ألا تحتفل الآن بأى أسلوب، إذا كنت مثلًا تجلس فى مكتبة عامة. إذن فإخبارى لك بالخبر لم يكن سببًا حتميًّا، إنه سبب يحث على تبنى فعل ما لكنه لا يُلزم، ويبقى دائمًـا مجال لممارسة الإرادة الإنسانية الحرة.

صرت الآن أميز بين نوعين من الأسباب، **أسباب فيزيائية تتبعها حتمية فيزيائية**، لا يمارس الإنسان معها حرية إرادة. **وأسباب إنسانية نملك تجاهها حرية اختيار**، فرغباتنا ليست ملزمة

(١) الحتمية: مذهب فلسفى يقول بأن أفعال المرء وقراراته واختياراته، وكذلك التغيرات الاجتماعية والطبيعية، إنما هى ثمرة عوامل لا سلطة للمرء عليها، وأن هذه الأمور نتيجة حتمية لمقدمات خارجة عن إرادته.

أو لا يمكن مقاومتها، بل يملك معظمنا القـدرة على كـبح جمـاح رغبته فى أن يقـوم بفعـل ما يتمناه.

وحتى نفهم مجال حرية الفعل الإنسانى، يمكن أن نقارن بين نوعين من الحركة Movings و motions:

فـ Movings: هى الحركة التى يمكن أن تبدأ وأن تُلغى بإرادتنـا، كالانتقـال من مكان إلى مكان.

وmotions: هى الحركة التى لا يمكن بدايتها أو إلغاؤها قصدًا، كحركة عضلة القلب.

صرت أؤمن بأن الإنسان كائن قادر على الاختيار بين بدائل حقيقية.

صرت أعتقد أن الخطأ الكبير الذى وقع فيه هيوم (وكثيرون غيره) هو تعميم مبدأ حتمية القوانين الفيزيائية وتطبيقه على السلوك الإنسانى؛ إذ يعتقدون أنه ليس فى وسع الإنسان أن يتبنى سلوكًا غير الذى تبناه بالفعل (حتمية السلوك الإنسانى).

ألا تلاحظ هنا تناقضًا جذريًّا فى فكر هيوم. لقد أنكر من قبل وجود علاقة بين السبب والنتيجة، بينما يتحدث هنا عن حتمية الأسباب الفيزيائية بل وحتمية الأسباب الإنسانية!!

كيف يقع فيلسوف كبير فى حجم ديفيد هيوم فى هذا التناقض الجذرى الـمُـزرى؟ **إن العيب ليس فى منهج التفكير الفلسفى، ولكن فى قدرة الإنسان على أن يعلن تراجعه عن قناعته، إذا وصل به التفكير إلى تناقضات لا يمكن الجمع بينها.**

لا شك أن هذه هى المشكلة الكبرى عند فلاسفة الإلحاد فى العصر الحديث.

الفصل الثالث

من الإلحاد إلى الشك إلى الإيمان

بعد أن اكتملت قناعاتى الإلحادية التى بلورتها عام ١٩٧٦ فى كتابى «فرضية الإلحاد the presumption of Atheism»، انصرفت إلى مختلف فروع الفلسفة الأخرى وإلى علم الاجتماع وإلى السياسة.

جَدَّ على ذلك اهتمامى بالقفزات العلمية الهائلة، خاصة نظرية الانفجار الكونى الأعظم التى تفسر نشأة الكون، وكذلك اكتشاف تركيب وآلية عمل المادة الوراثية فى الخلايا الحية (جزىء الدنا DNA).

وبالرغم من ذلك، ظل الاهتمام بفلسفة الأديان هو المسيطر على اتجاهاتى الفكرية. ويبدو أن الآخرين صاروا يعتبروننى ممثلًا ومسئولًا عن الفكر الإلحادى، فدُعيت للمشاركة فى الكثير من المناقشات التى كانت تأخذ صورة من ثلاث؛ إما مناظرات عامة أو حوارات محدودة أو مساجلات فى الصحف العامة والمجلات الفلسفية المتخصصة.

أعرض فيما يلى بعض المناظرات المهمة التى قمت بها خلال حياتى الفلسفية الطويلة، والتى تُظهر تراجع موقفى تدريجيًا عن الإلحاد الصِرف إلى معسكر الشكاكين.

(أ) برهان الرجل الأصلع

وقعت هذه المناظرة (عام ١٩٧٦) فى جامعة ولاية تكساس الشمالية مع الفيلسوف الدينى الكبير «د. توماس وارين[1] Thomas Warren»، واستمرت أربع ليالٍ بدأت فى العشرين من سبتمبر، وحضرها ما بين ٥-٧ آلاف شخص كل ليلة.

اعتمدت حجج د. وارين ضد الإلحاد على **مهاجمة نظرية التطور لداروين**. لذلك سألنى د. وارين إن كنت أؤمن بأنه كان يوجد فى يوم من الأيام كائن نصفه إنسان ونصفه قرد؟ أجبت بأن هذا السؤال مثل السؤال عن متى نعتبر أن إنسانًا ما قد صار أصلعًا. وفَسَّرتُ رَدِّى قائلًا: لا شك أن أستاذى جلبرت رايل كان أصلعًا، إذ كانت رأسه خالية تمامًا من الشعر كقشرة البيضة، أما إذا نظرنا إلى الرجال عندما يتساقط الشعر تدريجيًا من رءوسهم شعرةً شعرةً، فليس من السهل تحديد متى صار الرجل أصلعَ! **فلا شك أن التطور أمر شديد البطء والتدريج.**

ومن أقوى صياغاتى التى قلتها فى هذه المناظرة، والتى تعكس قناعتى الإلحادية وقتها، قولى:

- إن القول بأن هناك إلهًا، فيه من التضاد كالتضاد فى الحديث عن الأعزب المتزوج أو عن الدائرة المربعة.
- أؤمن بأن الوجود لا بداية له ولا نهاية له، ولم يُطرح علىَّ فى حياتى مبرر عقلى وجيه لأغير قناعتى هذه.
- أؤمن بأن الكائنات الحية قد نشأت تلقائيًا من المادة غير الحية، على مدى دهور مغرقة فى القدم.
- وبالرغم من الترحاب والضيافة الكريمة التى قوبلْتُ بها، فقد انتهت المناظرة وكل من المتناظِرَين متمسك بموقفه.

(ب) مبارزة رعاة البقر

وقعت هذه المناظرة المهمة فى ولاية تكساس أيضًا عام ١٩٩٨، وحضرها زهاء أربعة آلاف شخص. وكانت المناظرة تشبه المبارزة بالمسدسات بين رعاة البقر فى الغرب الأمريكى، كنا أربعة من الملاحدة فى مواجهة أربعة من كبار الفلاسفة الدينيين.

(١) توماس وارين Thomas Warren: أستاذ الفلسفة فى جامعة نوتردام بالولايات المتحدة (١٩٢٠ - ٢٠٠٠).

تمسك كلٌّ من الطرفين بنفس المنهج: المبدأ القانونى «البينة على من ادَّعى، وليس على من ينكر»[1]. ومن ثَمَّ لم يبذل أى طرف منا جهدًا فى إقناع الآخر بوجهة نظره، واكتفى بإطلاق النار على خصمه!

كانت حجج فريق الملاحدة تعتمد على أن ادعاء شخص أنه رسول من السماء ليس دليلًا على أن هناك من أرسله، فقد يكون شعوره هذا أوهامًا وتخيلات، أو كذبًا. وأكدنا أن الأدلة التقليدية على الألوهية قد أصبحت بالية متصدعة.

وقد تَـمَسك مناظرنا الكبير «ألفين بلانتينجو Alvin plantingo» بأن الإيمان بوجود إله **يُعتبَر شعورًا فطريًّا بديهيًّا، لا يحتاج إلى دليل، تمامًا كمفاهيم بديهية أخرى** مثل أن الكل أكبر من الجزء، ومثل أننا موجودون.

(جـ) تَصَدُّع حائط الصد

يلاحظ المتابع لمناظراتى الثلاث التالية أن حججى وأجوبتى على المؤمنين قد ضعفت قوتها:

١- جَرَت على صفحات المجلات الفلسفية مناظرة مهمة مع الفيلسوف الدينى الكبير «تيرى ميث Terry Miethe»، وقد طرح فيها **برهانًا كونيًّا هائلًا**[2]:

- الكون يحوى موجودات محددة متغيرة.
- هذه الموجودات لا بد لها من موجد.
- لا يمكن التسلسل مع الموجودات التى تحتاج موجد، إلى ما لا نهاية؛ لذلك ينبغى الإقرار بموجد أول لهذه الموجودات.
- هذا الموجد الأول ينبغى أن يكون واحدًا، أزليًّا، حتمى الوجود.

وتنطبق صفات هذا الموجد الأول على مفهوم الإله فى الأديان السماوية.

يقوم هذا البرهان على مفهوم «الموجد واجب الوجود Existential Causality».

---

(١) البينة على من ادعى، وليس على من ينكر:

The onus of proof lies on the one who affirms، not on the one who denies

(٢) سنطرح البرهان الكونى بتفصيل أكبر فى الفصل الأول من الجزء الثانى.

وبالرغم من وجاهة هذا البرهان فقد رفضته، منطلقًا من أن الكون فيه من الأسباب المادية ما يلغى الاحتياج إلى موجد من خارجه.

٢- فى مناظرتى فى ثمانينيات القرن العشرين مع «ريتشارد سوينبرن Retchard Swinburn» أستاذ فلسفة الأديان بأكسفورد (أفضل مدافع عن الإيمان فى العالم الناطق بالإنجليزية)، انطلقت حجج سوينبرن من أن موجد الكون المادى المحدود لا بد أن يكون غير مادى وأن يكون كلى الوجود، أجبت سوينبرن بأننى غير قادر على تصور موجود بهذه الصفات.

٣- فى مناظرتى عام ١٩٩٨ مع «وليم لين كريج[١] William Lane Craig»، انطلق كريج من أن الكون الذى له بداية وعلى هذا القدر من التنظيم، يمكن تفسيره على أكمل وجه بوجود إله خالق. كان جوابى: إننا يجب أن نقف فى تصور بداية وجود الكون عند الانفجار الكونى الأعظم The Big Bang، وأن نعتبر هذا الانفجار هو الحقيقة الأولى. أما برهان التنظيم فقد دفعته بقولى: إن أدق ما فى الكون، وهو الإنسان، يمكن تفسير وجوده وقدراته بالقوانين الطبيعية.

(د) إرهاصات تصحيح المسار

انقشاع الضباب حول نظرية التطور

تُعَدُّ نظرية التطور[٢] لعالم البيولوجيا الكبير تشارلس دارون (تطور الكائنات الحية نتيجة لطفرات عشوائية تحدث بالصدفة) من أهم الحجج التى يستند إليها الملاحدة، لتفسير تنوع الكائنات الحية دون الحاجة إلى وجود إله خالق، لذلك أصبحت هذه النظرية من موضوعات المناظرة المفضلة بين الماديين والمؤمنين.

---

(١) وليم لين كريج William Lane Craig: أستاذ الفلسفة بجامعة بيولا بكاليفورنيا، ولد عام ١٩٤٩. مهتم بفلسفة الأديان والتاريخ والدين الطبيعى.

(٢) تقوم نظرية التطور على ثلاثة مفاهيم:

الأول: أن الكائنات الحية المختلفة نشأت بالتطور عن كائنات أبسط منها. وتؤكد علوم البيولوجيا هذا المفهوم، بعد أن تراكمت الأدلة العلمية على ذلك، خاصة أدلة علم البيولوجيا الجزئية (الجينات)، بالرغم من وجود بعض الظواهر التى يعجز التطور عن تفسيرها.

والمفهوم الثانى: هو أن التطور يقع نتيجة لطفرات عشوائية تحدث بالصدفة، وتؤكد علوم البيولوجيا والإحصاء استحالة قيام الطفرات العشوائية بإحداث تطور إلى كائنات أكفأ وأكثر تعقيدًا.

والمفهوم الثالث: هو أن الصفات الجيدة الجديدة، تُـمَرَّر إلى الأجيال التالية عن طريق مبدأ الانتخاب الطبيعى، وهذا المفهوم ثابت بيولوجيًا.

لذلك صار لزامًا على البيولوجيين قبول فكرة أن الصفات الجديدة التى تؤدى إلى التطور يقف وراءها مصمم ذكى، ولا يمكن أن تكون بسبب الطفرات العشوائية.

فى كتابى «التطور الداروينى»، ذكرت أن مبدأ «**الانتخاب الطبيعى** Natural Selection» (الذى يسمح للكائنات الحية بأن تمرر الطفرات العشوائية الجيدة التى تحدث فى جيناتها إلى الأجيال التالية) **لا يُنشئ فى الكائنات صفات جديدة**، ولكنه يقضى على الطفرات غير الصالحة التى تصيب الكائنات الحية[1].

ومما ساعد على شيوع هذا الخطأ، أن داروين استخدم اصطلاحات مثل: «الانتخاب الطبيعى» و«البقاء للأصلح». **وإذا كان داروين قد تنبه بعد فترة لهذا الخطأ وعدل عن هذه الاصطلاحات إلى اصطلاح «الصيانة الطبيعية Natural Preservation»، إلا أن آخرين - مثل تشارلز دوكنز - التصقوا بالمفاهيم الخاطئة وصمموا على استخدام مصطلحاتها**، ليدعموا بذلك موقفهم الإلحادى، بالرغم من أن داروين لم يكن ملحدًا كما سنبين فى الفصل السادس.

ومن محاولات ريتشارد دوكنز لاستغلال مفهوم التطور لدعم الإلحاد، ما ذكره فى كتابه «الجين الأنانى The selfish gene» حيث يقول: **نحن (وباقى الحيوانات) آلات حية، روبوتات تم برمجتها لتحافظ على جيناتها (الشفرة الوراثية المـُمَيِّزة لكل جنس ولكل فرد).**

ويرى دوكنز **أن الكائن الحى الأساسى هو الجين، وأنه يُسَخِّر أجهزة الجسم المختلفة لتدبير أمور حياته، وضمان خلوده عن طريق الانتقال إلى أجيال تالية.**

ومع خطأ هذا المفهوم بيولوجيًا[2] ، فإن دوكنز بذلك يضعنا فى مصاف الحيوانات [3] **وينزع عن الإنسان كل خصوصية مَيَّزته عن غيره من الكائنات وجعلته كائنًا متفردًا.**

ويُصر دوكنز على أن أفعالنا وسلوكنا الإنسانى نتاج مباشر لجين واحد أو جينات قليلة، نختلف بها عن الحيوانات وتحدد سلوكنا بشكل حتمى، بالرغم من أنه قد ثبت أن الاتجاهات السلوكية للكائنات إنما هى **نتاج العديد من الجينات، وليس جينًا واحدًا أو جينات قليلة.**

كذلك يصر دوكنز على **أن محاولاتنا لإكساب أبنائنا صفات حميدة لا طائل منها**؛ إذ إننا

(١) هذا هو فهم أنتونى فلو. أما البديهة البيولوجية فهى أن الانتخاب الطبيعى كما يقضى على الطفرات غير الصالحة، فإنه يمرر الصفات الجيدة الجديدة إلى الأجيال التالية.

(٢) إذا كان مفهوم الجين الأنانى صحيحًا (الجين هو الكائن الحى الأساسى، وهدف الحياة هو المحافظة على بقائه) فإن التكاثر أحادى الجنس هو الأفضل؛ إذ يحافظ على الجينات دون تغيير أو تعديل. ومع ذلك فقد نشأ التكاثر ثنائى الجنس (ذكر وأنثى)، كخطوة تطويرية إلى الأفضل، بالرغم من أنه يؤدى إلى تغيرات جذرية فى الجينات الأصلية؛ إذ ينقسم كل جين إلى نصفين ويُضاف إليه نصف جين من الجنس الآخر.

(٣) كان أول من تبنى هذا الطرح «ديسموند موريس Desmond Moris» فى كتابيه «القرد العارى The naked ape» و«حديقة الحيوان البشرية The Human Zoo».

قد وُلدنا أنانيين لا نسعى إلا للحفاظ على أنفسنا وعلى جيناتنا. وهل تستطيع الجينات الأنانية توجيهنا لأن **نسلك سلوكًا يسوده الإيثار وإنكار الذات!** من ذلك ندرك خطأ دوكنز (بيولوجيًّا وتربويًّا) وسوء استغلاله لنظرية التطور.

إن تمحيصي لموقف الملاحدة من نظرية التطور، قد كشف لى عن الكثير **من سوء الفهم المحيط بالنظرية، ونَزَعَ عنها حجيتها كدليل إلحادى**، وسمح لى بتصحيح المسار، والبدء فى الاقتناع بدور المصمم الذكى[1] فى إحداث التطور.

(هـ) ثم أدرت الدفة

ثم جاءت اللحظة الحاسمة، ففاجأت الجميع فى أهم مناظراتى العلنية (عُقدت فى جامعة نيويورك عام ٢٠٠٤)، **بأننى قد صرت أقبل فكرة «الوجود الإلهى»!**، وفسرت ذلك بأن ما أثبته العلم الحديث من تعقيد مذهل فى بنية الكون يشير إلى **وجود مصمم ذكى**. كذلك فإن البحوث الحديثة حول أصل الحياة، وما تَكَشَّفَ من بنية شديدة التعقيد وطريقة أداء مذهلة لجزىء الدنا DNA[2]، يؤكد حتمية وجود المصمم الذكى.

وقد نقلت وكالة أنباء الأسوشيتد برس هذا الخبر إلى أرجاء الأرض مع تعليق صادق طريف: **لا شك أن أعظم الاكتشافات المبهرة للعلم الحديث هو اكتشاف أن هناك إلهًا**
Of all the great discoveries of modern science, the greatest was God.

برهان القرد

تقول القاعدة الفلسفية: **إن البرهان الفلسفى يُعتبر متكاملًا إذا اجتمع فيه الدليل على صدق الرأى، مع الدليل على خطأ الرأى المقابل.** لذلك أعجبنى كثيرًا تفنيد العالم «جيرالد شرويدر[3] Gerald Schroeder» فى كتابه «علم الإله Science of God» للدليل الذى يسمونه: «برهان القرد».

(١) وصف د. مصطفى محمود هذا المفهوم بقوله، إن حرفًا واحدًا يحل المشكلة، فهو «تطوير» (يقوم به الله ﷻ) وليس «تطور».

(٢) انظر الفصل الثامن، لفهم بنية وآلية عمل جزىء الدنا.

(٣) جيرالد شرويدر Gerald Schroeder: حصل على الدكتوراه فى الفيزياء النووية والكون من MIT بالولايات المتحدة عام ١٩٦٥. وهو من الأسماء البارزة ذات الكلمة المسموعة فى مجال «التصميم الذكى»، وله ثلاثة كتب شهيرة تدور حول هذا المفهوم، وهى:
- Genesis of Big Bang. 1990.
- Science of God. 1997.
- Hidden face of God. 2002

يُشَبِّه القائلون بهذا الرأى إمكانية نشوء الحياة بالصدفة بمجموعة من القِرَدة، تدق باستمرار على لوحة مفاتيح الكمبيوتر Keyboard، ويرون أن القِرَدة يمكن أن تكتب بالصدفة، فى إحدى محاولاتها اللانهائية، قصيدة لشكسبير Sonnet.

يبدأ شرويدر تفنيده بعرض **تجربة أجراها المجلس القومى البريطانى للفنون**، وفيها وضع الباحثون ستة من القِرَدة فى قفص لمدة شهر، وتركوا معها لوحة مفاتيح كمبيوتر، بعد أن دربوهم على دق أزرارها.

كانت النتيجة ٥٠ صفحة مكتوبة، دون كلمة واحدة صحيحة، حتى لو كانت هذه الكلمة من حرف واحد مثل A (لاحظ أنه لا بد من وجود مسافة قبل حرف A ومسافة بعده حتى نعتبره كلمة).

وإذا كانت لوحة المفاتيح تحوى ثلاثين مفتاحًا (٢٦حرفًا + ٤ رموز)، فإن إمكانية الحصول على كلمة من حرف واحد بالصدفة، عند كل محاولة، تصبح ١/ ٣٠×٣٠×٣٠ أى ١/ ٢٧٠٠٠.

بعد ذلك طَبَّق شرويدر هذه الاحتمالات على قصيدة (سوناتا) لشكسبير، فخرج بنتائج عَرَضها كالآتى:

اخترت لشكسبير السوناتا التى تبدأ ببيت Shall I Compare thee to a Summer's day، وأحصيت حروفها فوجدتها ٤٨٨ حرفًا. ما هى احتمالية أن نحصل بالطَّرْق على أزرار لوحة الكمبيوتر على هذه السوناتا بالصدفة (أى أن تترتب الـ ٤٨٨ حرفًا نفس ترتيبها فى السوناتا)؟ إن الاحتمال هو واحد مقسوم على ٢٦ مضروبة فى نفسها ٤٨٨ مرة، أى $٢٦^{-٤٨٨}$ وهو ما يعادل $١٠^{-٦٩٠}$.

وعندما أحصى العلماء **عدد الجسيمات فى الكون** (إلكترونات، وبروتونات، ونيوترونات) فوجدوها $١٠^{٨٠}$ أى واحد وعلى يمينه ٨٠ صفرًا. معنى ذلك أنه ليس هناك جسيمات تكفى لإجراء المحاولات، وسنحتاج إلى المزيد من الجسيمات بمقدار $١٠^{٦٠٠}$.

وإذا حَوَّلنا مادة الكون كلها إلى رقاقات كمبيوتر Computer Chips، تزن كلٌّ منها جزءًا من المليون من الجرام، وافترضنا أن كل رقاقة تستطيع أن تجرى المحاولات، بدلًا من القِرَدة،

بسرعة مليون محاولة فى الثانية، نجد أن عدد المحاولات التى تمت منذ نشأة الكون هى $١٠^{٩٠}$ محاولة. أى إنك ستحتاج مرة أخرى كونًا أكبر بمقدار $١٠^{٦٠}$! أو عمرًا أطول للكون بنفس المقدار!.

يقينًا لن نحصل على سوناتا بالصدفة، حتى لو كان الكاتب هو الكمبيوتر وليس القِرَدة.

إن للصدفة قانونًا، فالمتخصصون لم يتركوا كل مدعٍ ينسب إليها ما يشاء، ليستر بها جهله وتهافت أدلته. لقد حدد المتخصصون ما يُعرف «بمقدار الاحتمال الملزِم Universal Probability Bound»، الذى يستحيل بعده تفسير حدوث أمر ما بالصدفة وحدها. ويبلغ هذا الاحتمال ١ : $١٠^{١٥٠}$، **فهل يمكن أن يقع بالصدفة أمر احتماله يبلغ ١ : $١٠^{٦٩٠}$ ؟**

أخبرت شرويدر بأن طرحه هذا أثبت لى أن **«برهان القِرَدة» لا يعدو إلا أن يكون كومة من النفايات، بالرغم من جرأة من يعرضون هذا البرهان،** ويَدَّعون أن القِرَدة يمكن أن تكتب رواية كاملة لشكسبير، مثل هاملت أو عطيل، أو حتى أعمال شكسبير كلها.

وإذا كان هذا الرأى يعجز عن إثبات إمكانية كتابة سوناتا بالصدفة، فهل سينجح فى تفسير نشأة الحياة بالصدفة من المادة غير الحية ؟!

بهذا العرض لشرويدر **انهار تمامًا البرهان العقلى الذى يستند إليه الملاحدة.** وإذا أضفنا إلى **ذلك قوة البرهان الذى يقدمه التعقيد الهائل فى بنية الكون وفى بنية وآلية عمل جزىء الدنا، اكتمل لدينا البرهان الفلسفى (الدليل على صدق الرأى مع الدليل على خطأ الرأى المقابل) على وجود الإله الحكيم القادر.**

الباب الثانى

اكتشـــــاف الإلــــــه

الفصل الرابع

العلم والحكمة

يبدأ أنتونى فلو عرض موقفه الإيمانى الجديد بهذه الحكاية الرمزية:

تَصَوَّر أن بعض رجال قبيلة بدائية وَجدوا على شاطئ جزيرتهم المنعزلة هاتفًا محمولًا يعمل عن طريق الأقمار الصناعية، أخذ الرجال البدائيون يضغطون على مفاتيح أرقام الهاتف فى تتابعات عشوائية، كانوا فى كل مرة يسمعون ضوضاء مختلفة بأصوات مختلفة، كان تفسيرهم الأول أن هذه الأصوات تأتى من داخل الهاتف.

بعد محاولات عديدة لاحظ بعضهم (علماء القبيلة) أنهم يحصلون على نفس الضوضاء وبنفس الصوت إذا ضغطوا على مفاتيح الهاتف بنفس التتابع، فتوصلوا إلى أن هذا الشىء المـُكَوَّن من الزجاج والمعدن، ذا الألوان الزاهية، الذى يُصدر ما يشبه الصوت الإنسانى، يتجاوب مع ما نعطيه من تعليمات.

استدعى حكيم القبيلة علماءَها للتشاور، وأخبرهم أنه قد فكر كثيرًا فيما نقلوه إليه من أخبار، وتوصل إلى أن ما يسمعونه عن طريق هذا الشىء إنما هى أصوات لبشر مثلهم، يعيشون فى مكان بعيد ويتحدثون بلغة مختلفة، وأن هذا الشىء يقوم بالتواصل (بطريقة ما) مع هؤلاء البشر، وطالب الحكيمُ العلماءَ ببذل الجهد من أجل استكشاف وتحقيق فهم أفضل للعالم من حولهم.

ضحك العلماء ساخرين مما توصل إليه الحكيم، وقالوا: انظر، عندما نحطم هذا الشيء سيختفي الصوت، مما يثبت أن هذه التركيبة من الزجاج والمعدن والألوان هي التي تصدر هذا الصوت، ولا شيء غير ذلك. وانهالوا على الهاتف المحمول بصخرة حطمته إلى أشلاء.

تؤكد هذه الحكاية الرمزية أن مفاهيمنا الـمُسْبَقة توجه تحليلنا للظواهر وللبراهين والحجج. والصواب أن ندع للبراهين والحجج الجديدة الفرصة لأن تعيد تشكيل مفاهيمنا وآرائنا. إن تمسكنا بمفاهيمنا السابقة كثيرًا ما يعيقنا عن التفكير في مفاهيم أرحب عن العالم(١).

كذلك تُظهر الحكاية أن للحقيقة مستويات معرفية متعددة. فهناك فهم العوام، وفهم العلماء، وفهم الحكماء. ويتوقف إدراكنا لهذه المستويات على قدرتنا على الانطلاق بفكرنا دون قيود من مقدمات ومسلمات خاطئة.

إن هذا هو نفس الحاجز العقلي الذي واجه زملائي (السابقين) الملاحدة عندما أعلنت قناعتي بوجود إله، بناءً على ما أظهره العلم الحديث من حقائق. فأخذوا يرددون في شبه هستيريا (خالية من المنطق والبرهان العلمي أو الفلسفي) مفاهيم تعيقهم عن التفكير الحر وتقف بهم عند مستوى ضحل من الإدراك، مثل:

- لا ينبغي أن نبحث عن تفسير لكيفية وجود الكون، وعلينا أن نقبل فقط أنه موجود.
- إذا كان من العسير علينا قبول فكرة وجود خالق للكون، فمن باب أولى لن نقبل فكرة وجود خالق للحياة. ولا مفر أمامنا من التسليم بأن الحياة قد نشأت ذاتيًا بالصدفة من المادة غير الحية.

أمام هذه الدعاوى أطرح على الملاحدة سؤالًا مهمًا:

ما الذي تنتظرونه من حيثيات عقلية أو علمية حتى تقبلوا إعادة النظر في رفضكم لأن يكون هناك عقل ذكي وراء هذا الوجود ؟

---

(١) يفسر هذا العائق العقلي: لماذا لاقى نظام المجموعة الشمسية الذي توصل إليه كوبرنيكوس - والذي يجعل الشمس هي المركز الذي تدور حوله الكواكب التي منها كوكب الأرض - معارضة شديدة وحربًا شرسة، من قِبَل المؤمنين بالنظام البطليموسي القديم، الذي يرى أن كوكب الأرض هو محور الكون، وأن كل النجوم والكواكب تدور حوله.

عودة الوعى

آن الأوان لأن أطرح عقيدتى حول الإله الخالق، وأطرح أدلتى على ذلك:

لقد صرت على قناعة كاملة بأن الكون ظهر إلى الوجود عن طريق خالق ذكى، وأن ما فى الوجود من قوانين ثابتة متناغمة تعكس ما يمكن أن نسميه فِكر الإله.

كما أؤمن أن نشأة الحياة والتنوع الهائل للكائنات الحية لا ينشأ إلا عن مصدر سماوى.

لماذا أصبحت هذه قناعتى، بعد أن ظللت ملحدًا لأكثر من نصف قرن؟

إن العلم الحديث يُـجَـلِّى خمسة أبعاد تشير إلى الإله الخالق:

أولًا : الكون له بداية، ونشأ من العدم.

ثانيًـا: أن الطبيعة تسير وفق قوانين ثابتة مترابطة.

ثالثًـا: نشأة الحياة، بكل ما فيها من دقة وغائية[1]، من المادة غير الحية.

رابعًـا: أن الكون، بما فيه من موجودات وقوانين، يهيئ الظروف الـمُثلَى لظهور ومعيشة الإنسان، وهو ما يُعرف بـ «المبدأ البشرى Anthropic Principle».

خامسًا: أن القدرات العليا للعقل البشرى لا يمكن أن تكون نتاجًا مباشرًا للنشاط الكهروكيميائى للمخ.

ليست معطيات العلم الحديث فقط هى التى دفعتنى لتغيير قناعاتى، ولكنى أيضًا أَعَدْتُ النظر فى البراهين الفلسفية التقليدية التى قادتنى قبلُ إلى الإلحاد، ثم طَبَّقت نفس القاعدة السقراطية المنهجية التى عشت عليها طوال حياتى الفلسفية:

«أن نتبع البرهان إلى حيث يقودنا»، فقادنى البرهان، هذه المرة، إلى الإيمان.

التفكير كفيلسوف: هل أنا فيلسوف أم عالِم؟

قد تسأل : كيف، وأنت الفيلسوف، تخوض فى هذه القضايا العلمية ؟

(١) المقصود بالغائية هنا: أن للحياة معنى وهدفًا وغاية، تتجاوز الحركة المادية المباشرة. وسنناقش مفهوم الغائية بالتفصيل فى الجزء الثانى من الكتاب، الفصل الثانى.

أجيب على هذا التساؤل بطرح سؤال: هل ما أطرحه عليكم فى هذه الفصول علم أم فلسفة؟

عندما ندرس بناء الذرة من جسيمات تحت ذرية (إلكترونات وبروتونات ونيوترونات وكواركات) فنحن نتحدث فى العلم. أما عندما نسأل كيف نشأت هذه الجسميات من عدم، ولماذا؟ فنحن نتحدث فى الفلسفة.

وعندما أعلنت عام ٢٠٠٤، أنه لا يمكن تفسير نشأة الحياة تلقائيًا من المادة غير الحية، فلم أكن أتحدث فى الكيمياء أو الفيزياء أو الوراثة، ولكن كنت أتساءل (كفيلسوف) عن معنى أن يكون الشيء حيًا، وعن علاقة ذلك بالحقائق الكيميائية والفيزيائية والوراثية.

فالفيلسوف هو الذى يخرج من المعلومات العلمية باستنتاجات معرفية. وربما لا يعرف الكثيرون من البيولوجيين عن هذه الاستنتاجات أكثر مما يعرف بائع الآيس كريم عن القواعد التى تحكم البورصة وقوانين السوق الحرة.

أنا لا أعترض على أن يخوض العلماء فى الفلسفة، لكن عليهم أن يُحَصِّلوا الخلفية الفلسفية المناسبة. وعلى كلٍّ، فإن العلماء فلاسفة ضعاف، كما يقول أينشتين.

ولحسن الحظ، فإن علماء القرن العشرين البارزين، قد توصلوا إلى **استنتاج فلسفى معرفى هائل**، يفسر العديد من الظواهر الطبيعية المحيطة بنا، وهو **أن هذا الكون بما فيه من حياة لا يُنشئه إلا مصمم ذكى.**

ومن ثَمَّ، توصل الكثيرون من العلماء والفلاسفة المعاصرين إلى أنه لا يمكن تفسير الأبعاد الخمسة المشار إليها سابقًا، إلا **بالإقرار بوجود إله حكيم قادر.**

* * *

خاتمة المطاف

اتفق فيما توصلت إليه من صفات للإله مع ما طرحه الفيلسوف الإنجليزى الكبير ديفيد كونواى[1] David Conway، فى كتابه «العودة إلى الحكمة The Recovery of Wisdom».
ونتفق معًا على صفات الإله التى تَوَصَّل إليها الفيلسوف الأكبر والمعلم الأول أرسطو منذ ٢٥ قرنًا من الزمان، والتى يحددها بقوله:

God has the following attributes: immutability, immateriality, ommipotence, omniscience, oneness or indivisibility, perfect goodness and necessary existence.

إله واحد أحد

واجب الوجود

غير مادى – لا يطرأ عليه التغير

مطلق القدرة – مطلق العلم

كامل الخير[2].

ويضيف كونواى قائلًا:

لقد أنجزت الفلسفة مهمتها الأساسية بنجاح عظيم، عندما تَوَصَّلَت إلى تفسير نشأة الوجود بوجود العقل مطلق العلم ومطلق القدرة، الذى هو الإله الخالق، الذى خلق الكون ليكون مُعَدًّا لاستقبال المخلوق العاقل الحكيم، الذى هو الإنسان.

ينبغى أن أقر هنا أن توصلى ـ وكونواى وأرسطو ـ إلى وجود الإله وصفاته، كان عن طريق العقل، دون الحاجة إلى تدخل يخرق قوانين الطبيعة، من وحى أو معجزات[3] (كما يحدث فى الأديان السماوية). وسنعرض فى الفصول القادمة هذه الأدلة العقلية.

لقد كان توصلى إلى وجود الإله وإلى بعض صفاته، رحلة عقل وليست رحلة إيمان.

---

(١) ديفيد كونواى David Conway: (وُلد عام ١٩٤٧) أستاذ الفلسفة بجامعة ميدل سكس، والمشهور ببراعته فى الفلسفة الكلاسيكية والفلسفة الحديثة على السواء، ومن المؤهلة المهتمين بفلسفة الأديان.

(٢) لا شك أن هذا الوصف للإله يتفق تمامًا مع عقيدة الأديان السماوية الـمُـوَحِّدة.

(٣) انظر: قصة «حى بنى يقظان»، الجزء الثانى، الفصل العاشر من العاشر من الكتاب.

الفصل الخامس

هل يأتى شىء من لا شىء[1] ؟

«كان الثالوث الفلسفى اليونانى العظيم (سقراط - أفلاطون - أرسطو) من المؤمنين بوجود إله خالق للكون، بناءً على الأدلة العقلية، وعندما تصدى أرسطو لمعضلة خلق العالم سقط فى الشَرَك نفسه الذى سقط فيه معظم الفلاسفة السابقين واللاحقين، ألا وهو عدم قدرتهم على تصور أن شيئًا يمكن أن يأتى من لا شىء، أى من العدم.

وللخروج من هذا الشَرَك، اضطر أرسطو إلى القول بموجود قديم غير مُتَشَكِّل (أسماه الهيولى Hioly، وتعنى: الأصل) كان هو المادة الخام التى خلق الإله منها الوجود. وبذلك قال بوجود موجودَيْن قديمين (لا أول لهما)، الإله والهيولى، مما يُعَد شِرْكًا عند المتدينين.

وعندما تصدى أفلوطين[2] (فيلسوف الإسكندرية الكبير) للقضية، رفض القول بقديم آخر مع الإله، وقال بأن الإله قد خلق الوجود من ذاته، ومن ثَمَّ فالوجود كله جزء من الإله، وهذا هو المقصود بوحدة الوجود التى يرفضها بشدة معظم المتدينين».

---

(١) Nothing comes from nothing مقطع من أغنية غنتها جولى آندروز فى فيلم صوت الموسيقى.

(٢) أفلوطين Afloutin=Plotinus: وُلد فى ليكوبوليس فى دلتا مصر عام ٢٠٥م، وتربى وتعلم فى الإسكندرية. ثم سافر إلى الهند لدراسة الفلسفة الهندية، وعاد منها ليعيش فى روما.

وهو فيلسوف صوفى زاهد، استوحى فلسفته من أفلاطون فسُمِّيت الأفلاطونية الحديثة، وعرضها فى كتابه «التاسوعات». اشتهر بنظرية «الفيض»، التى يقول فيها: إن المخلوقات تفيض عن الإله (أسماه المبدأ الأول) دون قصد منه. وقد تأثر التصوف الفلسفى الإسلامى بنظرية الفيض إلى حد كبير.

كون قديم، أم كون له بداية؟

لا شك أن هذه هى إحدى القضايا المحورية التى تشغل علماء الكونيات والفلاسفة ورجال الدين[1]، لذلك خصصنا لعرضها هذا الفصل.

من أساسيات المنهج العقلى فى الفلسفة، أن ننطلق عند تحليلنا لأى نظام من نقطة بداية لا نطرح لها سببًا ولا نطلب لها تفسيرًا[2].

وقد اعتبر الفلاسفة الملحدون وجود الكون والقوانين الطبيعية التى تتحكم فيه، **هى نقطة البداية التى لا يطلبون لها تفسيرًا عند دراسة كل ما يتعلق بالكون.**

أما الفلاسفة المؤلِّهة فيعتبرون وجود الإله الخالق لهذا الكون ولقوانينه الطبيعية **هى نقطة البداية التى ليس لها تفسير.** لذلك **لم أكن أرَ فرقًا منهجيًّا بين طرح المؤمنين وطرح الملاحدة،** فلكليهما نقطة بداية لا يُطلب لها تفسير.

لا .. بل كون له بداية، ونشأ من عدم

كانت هذه تصوراتى قبل أن يطرح علماء الكونيات نظرية الانفجار الكونى الأعظم Big Bang Theory كأكثر النظريات قبولًا لتفسير بداية خلق الكون. وتؤكد النظرية أن **الكون قد نشأ نتيجة لانفجار هائل حدث فى نقطة تتجاوز كل قوانين الفيزياء المعروفة،** وتسمى هذه النقطة «الـمُـفردة Singularity». لقد ثبت علميًّا أن الكون له بداية ترجع إلى حوالى ١٣,٧ بليون سنة مضت.

لم يقف الأمر عند ذلك، فقد طرح العلم مفهومًا آخر شديد الدلالة، وهو أن الكون قد نشأ من عدم. فها هو الفيزيائى إدوارد تريون Edoward Tryon[3] يخبرنا (عام ١٩٧٣) أن

(١) فى كتاب «فرضية الإلحاد» ذهب أنتونى فلو إلى أن الوجود قديم (لا بداية له) وذلك خروجًا من الالتباس وإيثارًا لراحة الدماغ. وفى كتاب «هناك إله»، غَيَّر فلو قناعته.

(٢) إذا طرحنا مثلًا للدراسة (سبب تغير لون طلاء البوتاجاز ناصع البياض إلى اللون البنى)، سنجد أن ذلك يحدث دائمًا مع البوتاجازات المطلية بنوع مُعين من الطلاء، وإذا تأملنا بشكل أعمق سنجد أن عنصر الكبريت الموجود فى نواتج الاحتراق يُكَوِّن مركبًا مع مادة كيميائية موجودة فى الطلاء، وأن هذا المركب هو المسئول عن اللون البنى، ومع مزيد من التعمق سيسلمنا الأمر إلى قوانين النظرية الذرية التى تحكم التفاعلات الكيميائية؛ عندها سنعتبر أن هذه نقطة البداية التى لن نطلب لها تفسيرًا عند دراسة مسألة تغير لون طلاء البوتاجاز.

(٣) إدوارد تريون Edoward Tryon: أستاذ الفيزياء فى جامعة هنتر فى مانهاتن. متخصص فى النظرية النسبية ونظرية الكم.

طاقة الكون عند بدايته كانت صفرًا، ذلك لأن قوة الجاذبية الممسكة بعناصر الكون تُمثَّل بالسالب فى المعادلات الفيزيائية؛ إذ إنها تعمل فى اتجاه معاكس للقوى الأخرى، كالقوة الطاردة المركزية التى تدفع بالإلكترونات بعيدًا عن النواة، وتدفع بالكواكب بعيدًا عن شموسها. كذلك إذا عادلنا الشحنات الموجبة بالشحنات السالبة لذرات الكون أصبحت طاقة الكون صفرًا.

كذلك يؤكد ستيفن هوكنج ومؤسسو فيزياء الكم، أن الفيزياء الحديثة تشير إلى نشأة الكون من عدم.

لا شك أن الفلاسفة الملحدين قد أصيبوا بالإحباط، لقد **قَدَّم العلم الدليل على أمرين شديدى الأهمية**:

الأول : أن للكون بداية، وأنه ليس مُغرقًا فى القدم إلى ما لا نهاية (ليس أزليًا).

والثانى: أن الكون نشأ من عدم.

وهذا ما حاول الفلاسفة المؤمنون إثباته عقليًا على مدى مئات السنين.

عندما التقيت لأول مرة (كفيلسوف ملحد) بنظرية الانفجار الكونى الأعظم التى تصدت لتفسير وجود الكون، أدركت أننى أواجه نظرية مختلفة، **نظرية تتمشى مع ما يطرحه سِفْر التكوين «فى البداية، خلق الله السموات والأرض»**. وإذا كان الأمر كذلك، فلم يعد هناك مفر من البحث عمن أحدث هذه البداية.

الفيزيائيون يبحثون عن مخرج

فى البداية، لم يتصور علماء الكونيات الأبعاد الفلسفية والمعرفية الكبيرة وراء نظرية الانفجار الكونى الأعظم التى توصلوا إليها، وعندما أدركوا الموقف بدءوا فى البحث عن **مخرج مادى يفسر كيف كانت بداية نشأة الكون**.

حاول ستيفن هوكنج[1] الخروج من المشكلة فى كتابه «تاريخ موجز للزمن» بأن قال : إذا كان لا مفر من الإقرار بأن للكون بداية، **فلا بأس من القول بكونٍ مكتفٍ بذاته** (أى أنشأ نفسه بنفسه). ما أجملها من مقولة أدبية! وما أبعدها عن الدليل والبرهان العلمى والفلسفى!

---

(١) للتعريف بعالم الفيزياء الكبير، ستيفن هوكنج، انظر الفصل الأول من الجزء الثانى (ونستكمل الرحلة).

وكمحاولة يائسة يعلن الفيزيائى إدوارد تريون، أنه يمكن تفسير بداية الكون ببساطة بأنه **أحد الأشياء التى يمكن أن تحدث تلقائيًا من وقت لآخر!** هل يكون ذلك آخر ما فى جعبة العلماء الملحدين؟

وأخيرًا، لم يجد هوكنج مفرًّا من الإقرار بأنه يستحيل فيزيائيًّا معرفة كيف بدأ الانفجار الأعظم.

كذلك رفض أساطين فيزياء الكم[1] اعتبار أن نشأة الكون من عدم كانت نشأة تلقائية.

إن إثبات أن طاقة الكون كانت صفرًا عند نشأته (وما زالت)، لا يعنى انتفاء الحاجة إلى خالق. كيف تعطى طاقة مقدارها صفر، كل ما فى الوجود من حولنا من بناء وإبهار وجمال؟!

الفلاسفة أيضًا يتملصون!

لم يقبل الفلاسفة الملحدون الإقرار بأن الإله هو الذى خلق الكون، ويبنون رفضهم على تبنيهم لمبدأ التثبت (ما لا نستطيع أن نرصده بحواسنا، لا وجود له). وقد فَنَّدَت مقدمة الكتاب مذهب الفلسفة الوضعية المنطقية، التى ترفض مجرد مناقشة مفهوم «الإله».

ومن أشد المعارضين للبحث عن مصدر لنشأة الكون فيلسوف الإلحاد الشهير ديفيد هيوم. ولا شك أن أهم أخطاء هيوم المنهجية رفضه لمفهوم ارتباط السبب بالنتيجة، واعتبار أن العلاقة بينهما لا تخرج من توافق بالمصادفة، ومن ثَمَّ فلا معنى للبحث عن سبب لنشأة الكون، أو لنشأة أى شىء آخر.

ويستمر الفلاسفة الملحدون فى المماحكة، فيقولون: **إن العدم «شىء» قديم لا أول له، ويرفضون اعتباره «لا شىء»! ويصرون على إمكانية نشأة الطاقة والمادة تلقائيًّا من هذا العدم القديم!**[2].

برهان فترة الترك

تصدى ريتشارد سوينبرن (الفيلسوف المؤمن) لادعاءات الملحدين بإعادة طرح ما يُعرف ببرهان **«فترة الترك»**[3]. يقول سوينبرن: إذا كان العدم يمتد إلى ما لا نهاية فى القدم، وإذا كان

(١) لمعرفة فيزياء الكم، والتعرف على علمائها، انظر الفصل السادس.
(٢) فى هذا المفهوم يعتبر الفلاسفة الملحدون العدم شيئًا غير متشكل، كالهيولى الذى خلق الله منه الوجود عند أرسطو.
(٣) يخبرنا سوينبرن أنه استقى برهان فترة الترك من علم الكلام عند المسلمين.

للكون بداية، فلِمَ نشأ الكون فى هذا الوقت الذى نشأ فيه؟ لم تُرك الكون دون نشأة لفترة، ثم حدث فى وقت ما فى الزمن اللانهائى أن خرج الكون للوجود؟ **لا بد أن هناك عاملًا مُرَجِّحًا دفعه للوجود** Inductive factor or creative factor.

المحصلة: إله قديم خلق الكون من عدم

يخبرنا الفيلسوف الكبير جون ليسلى[1] John Leslie **أن المفاهيم الفيزيائية كلها، سواء السائدة الآن أو السائدة وقت الانفجار الكونى الأعظم، لا تتعارض مع القول بإله خلق الكون من عدم.**

وأخيرًا نعود إلى ستيفين هوكنج، فنجده يقول مضطرًا: «إذا كانت هناك معادلات تشير إلى احتمالية نشأة شىء من لا شىء، **فستظل هذه المعادلات دائمًا فى حاجة إلى مَن ينفخ فيها القدرة على الفعل. فالمعادلات لا تخلق، لكنها تصف الفعل**». ويضيف مضطرًا (فى حوار أُجرى معه بعد نشر كتاب موجز تاريخ الزمن): «إن توصلنا لمعادلات تشرح كيف بدأ العالم، لا يعنى أن الإله غير موجود، ولكن يعنى **أنه لم يخلق الكون عشوائيًا، ولكنه خلقه تبعًا لقوانين**».

---

(١) جون ليسلى John Leslie: أستاذ فلسفة العلوم فى كندا، من المؤمنين بمفهوم المبدأ البشرى، الذى يرى أن الكون قد أُعد على هيئة تمهد لنشأة الإنسان. أشهر كتبه «العقل المطلق Infinite mind» صدر عام ٢٠٠١.

الفصل السادس

مَن وَضَعَ قوانين الطبيعة ؟
برهان التصميم = البرهان الكونى

لا شك أن من أشهر البراهين وأبسطها، وأدلها على وجود الإله الخالق، هو ما يُعرف **«ببرهان التصميم Design Argument» أو «البرهان الكونى Cosmic Argument». ويعنى ببساطة، أن دِقة بناء الكون وما عليه الطبيعة من نظام وانتظام، يشير إلى وجود مصمم ذكى.**

وبالرغم من أننى كنت من قبل من المعترضين بشدة على أن دقة التصميم تشير إلى وجود الإله، فإن إعادة النظر فى البرهان، وفى أسلوب الاستدلال الفلسفى به، أوصلنى إلى الإقرار بوجود إله حكيم خالق.

ولا شك أن ما كشفه العلم الحديث من معلومات هائلة فى مجال قوانين الطبيعة ونشأة الكون، وكذلك نشأة الحياة وتنوع الكائنات الحية، قد أمد هذا البرهان بالكثير من الأدلة (المقدمات)، التى أعانتنى كثيرًا فى الوصول إلى هذا (الاستنتاج).

دلالة قوانين الطبيعة

إذا كنا نُعَرِّف القانون الطبيعى بأنه الانتظام والتناسق فى الطبيعة[1]، فلا شك أن وجود الانتظام والتناسق (Regularities) من أهم ما يعطى قوانين الطبيعة دلالتها على وجود المصمم الذكى.

ولكن الأكثر دلالة هو أن هذه القوانين تشمل الموجودات كلها (Universal)، وأنها مترابطة مع بعضها البعض (Tied together)، وأنه يمكن التعبير عنها بصياغات رياضية دقيقة (Math-ematically precise).

والسؤال المحورى هنا هو: كيف تمت صياغة الطبيعة فى هذه القوانين على هذه الهيئة ؟ لم يجد معظم علماء الفيزياء الكبار إجابة على هذا السؤال، إلا الإقرار بوجود إله خالق حكيم قادر.

هذا الاستنتاج البديهى لم يقل به علماء الفيزياء الكلاسيكية كإسحق نيوتن[2] وجيمس ماكسويل[3] فقط، لكن الكثيرين من أساطين الفيزياء الحديثة يعتقدون أن قوانين الطبيعة هى أفكار الإله الخالق.

ألبرت أينشتين[4]

لن نجد كبداية لطرح مفاهيم علماء الفيزياء الحديثة الكبار، حول هذه القضية، أفضل من

(١) من أمثلة قوانين الطبيعة :
- قانون حفظ الطاقة Law of Conservation of Energy: كمية الطاقة الموجودة فى نظام مغلق ما، تظل ثابتة.
- قانون نيوتن الأول للحركة Newton's first law of motion: يظل الجسم ثابتًا، كما يظل الجسم المتحرك متحركًا، ما لم تؤثر عليه قوة خارجية.

(٢) إسحق نيوتن Isaac Newton : وُلد وعاش بإنجلترا (١٦٤٣ - ١٧٢٧). وهو أحد أكثر الرجال تأثيرًا فى تاريخ البشرية. وهو متعدد المواهب، فهو فيزيائى - رياضى - كيميائى - فلكى - فيلسوف، ويعتبر مؤسس الفيزياء الميكانيكية الكلاسيكية، فقد توصل إلى قوانين نيوتن الثلاثة للحركة، وقانون الجاذبية: كما وضع توصيفًا للكون ساد طوال ثلاثة قرون، وما زال توصيفه مستخدَمًا حتى الآن، بالرغم مما أدخلته عليه النظرية النسبية وفيزياء الكوانتم من تعديل.

(٣) جيمس ماكسويل James Maxwell: فيزيائى ورياضى أسكتلندى (١٨٣١ - ١٨٧٩)، صاحب النظرية الكهرومغناطيسية. مساهمته فى علم الفيزياء تعادل مساهمة إسحق نيوتن وأينشتين.

(٤) ألبرت أينشتين Albert Einstein: صاحب النظرية النسبية، وُلد فى ألمانيا عام ١٨٧٩، ومات فى الولايات المتحدة عام ١٩٥٥، صار اسمه مرادفًا للعبقرية.

فى عام ١٩٠٥، كان أينشتين يعمل موظفًا صغيرًا فى مكتب تسجيل الاختراعات بسويسرا، وفى هذا العام أعلن نظريته الأولى فى النسبية (النسبية الخاصة). ثم عاد إلى ألمانيا ليتدرج فى جامعاتها، ليصبح مديرًا لمعهد الإمبراطور الفلكى، ويضع نظريته فى «النسبية العامة» عام ١٩١٥.

فى عام ١٩٣٣، فر أينشتين إلى الولايات المتحدة، هربًا من الاضطهاد النازى، وحصل على الجنسية الأمريكية، وعمل أستاذًا بجامعاتها حتى وفاته.=

ألبرت أينشتين. يقول أينشتين : **أريد أن أعرف كيف خلق الإله الكون، أريد أن أتعرف على أفكار الإله، والباقى سيكون تفاصيل مُكَمِّلة.**

ويُشَبِّه أينشتين المعرفة الإنسانية عن الكون بطفل صغير داخل مكتبة ضخمة، مليئة بمجلدات كُتبت بلغات عديدة. يدرك الطفل يقينًا أن كُتَّابًا كتبوا هذه الكتب، ولكنه لا يعرف كيف، ولا يفهم اللغات التى كُتبت بها، كما يدرك أن الكتب قد رُصَّت داخل المكتبة بنظام ما لكنه لا يعرفه.

يُشَبِّه أينشتين تصور العقلاء من البشر عن الإله بهذا المثال. يلمسون ما فى الكون من نظام مبهر، ويدركون أنه يتبع قوانين طبيعية رائعة، لكنهم لا يفهمون عنها إلا القليل، ومن ثَمَّ يدركون دون شك أن هناك قوة خفية وراء ذلك كله.

يلخص ماكس جامر Max Jammer أحد أصدقاء أينشتين، فى كتابه «أينشتين والدِّين Einstein and Religion» عقيدة أينشتين فى الإله، قائلًا:

= حصل أينشتين على جائزة نوبل عن وصفه للسلوك المزدوج للضوء (تارة كموجات وتارة كجسيمات)، وليس عن النظرية النسبية.

ومع صعوبة عرض النظرية النسبية بشكل مُبَسَّط، يمكننا أن نقول: إنه تبعًا لهذه النظرية لا يوجد معيار ثابت نستطيع عن طريقة تحديد مكان شىء ما، ولا أن نحدد المسافة بين جسمين تحديدًا مطلقًا، ولا أن نحدد سرعة حركة جسم ما، كما لا يوجد معيار ثابت نستطيع عن طريقه تحديد الفترة الزمنية لوقوع حادثة ما على مستوى الكون كله.

أى إن المكان والزمن والمسافة والحركة والكتلة كلها أمور نسبية، أى تختلف من شخص لآخر، تبعًا لعدة عوامل أهمها: سرعة واتجاه الحركة، فمثلًا:

- إذا كنت داخل قطار يتحرك بسرعة مائة كيلومتر فى الساعة، وتقذف كرة تنس لأعلى، فإن الكرة ستهبط فى يدك، دون أن تتحرك الكرة للأمام. وإذا نظر إليك رجل يقف خارج القطار، فسيلاحظ أن الكرة تتحرك للأمام بنفس سرعة القطار!.
- إذا تحرك القطار بسرعة مائة ألف كيلومتر فى الساعة، وأنت جالس داخله، فإن الساعة التى فى معصمك ستسجل وقتًا أبطأ من ساعة الرجل الواقف خارج القطار!.
- إذا وقعت حادثة فى أول القطار وحادثة أخرى فى آخر القطار، وشعر الجالس داخل القطار أنهما وقعا فى وقت واحد، فإن الرجل خارج القطار سيشعر أنهما وقعا فى وقتين مختلفين!.

هذا بالطبع يختلف تمامًا عن الفيزياء الكلاسيكية (فيزياء نيوتن)، التى ترى أن المكان والزمن والمسافة والحركة والكتلة كلها أمور مطلقة. ليس معنى ذلك أن النظرية النسبية قد أثبتت خطأ فيزياء نيوتن، ولكن قواعد النظرية النسبية تنطبق فى السرعات الهائلة القريبة من سرعة الضوء.

هل لاحظت قوس قزح Rainbow؟ إن ارتفاع وقطر وألوان قوس قزح الذى تراه عقب يوم ممطر، يختلف عن صفات قوس قزح الذى يراه صديقك الذى يبعد عنك بمسافة مائة متر مثلًا. أى إن لكل منا قوس قزحه الخاص ويجره معه عند حركته، هذه هى النظرية النسبية!!

يرفض أينشتين فكرة الإله المتشخص (كأنه إنسان لكن بغير جسم، وإن كان يتفوق على الإنسان فى صفاته، كيفيًا وكَمِّيًا) الذى تنسبه كل ديانة لنفسها، وتعتبره شيخًا لقبيلتها. ولكنه **يؤمن بوجود إله غير مادى، يُظهِر نفسه فى قوانين الطبيعة.**

ويؤمن أينشتين بأن **من يفهم الطبيعة يعرف الإله**، ليس لأن الطبيعة هى الإله (كما يقول الفيلسوف إسبينوزا[1] Spinosa) لكن لأن ما فى الطبيعة من قوانين يشير إلى عقل جبار يقف وراءها. وعلى عقل الإنسان أن يكون شديد التواضع أمام عظمة هذا الإله وحكمته.

إذن يؤمن أينشتين بخالق مطلق العلم، مطلق القدرة، لا يحده الزمان ولا المكان. وقد أطلق أينشتين فى كتاباته على الإله أسماء عديدة: «عقل علوى سامٍ»، «الروح العلوى اللامتناهى»، «العقل الفائق».

ومع ذلك فإن الكثيرين من أصحاب الأديان السماوية (اليهود - المسيحيين - المسلمين) يَدَّعون **أن أينشتين هو الأب الروحى للإلحاد**، وذلك لربطه بين الإله والطبيعة. وقد رَوَّجَ لهذا الرأى البيولوجى الملحد ريتشارد دوكنز، وأعلن أن أينشتين يقصد بهذه الصفات التى وصف بها الخالق الطبيعة، وليس الإله![2].

وقد أعلن أينشتين رفضه لفكرتى الإلحاد ووحدة الوجود[3]، بل وأعلن فى العديد من كتاباته ومحاضراته وحواراته عن غضبه وضيقه من أن الملاحدة ينسبونه إلى الإلحاد ليدعموا وجهة نظرهم.

فيزياء الكم (الكوانتم)[4] تقودنا إلى الإله

لم يكن أينشتين الوحيد من علماء الفيزياء الحديثة الكبار الذى ربط بين انتظام قوانين الطبيعة وبين حكمة الإله الخالق، فأساطين فيزياء الكوانتم يُشاركونه الرأى نفسه. ونهتم هنا

(١) إسبينوزا Spinosa: من أشهر الفلاسفة ورجال المنطق الألمان فى القرن السابع عشر (١٦٣٢ - ١٦٧٧). اشتهر بنقضه للتوراة وللدين بصفة عامة، واُعتبرت كتاباته من إرهاصات موجة الشك والإلحاد فى القرن الثامن عشر.

(٢) فى كتاب «وهم الإله The God Delusion» .

(٣) انظر هامش ص ٤١.

(٤) **فيزياء الكم Quantum Physics** : تنظر الفيزياء التقليدية (الكلاسيكية) إلى المادة باعتبارها مكونة من أجسام يؤثر بعضها فى بعض طبقًا لقوانين نيوتن، كما تهتم بدراسة المجالات المغناطيسية والكهربائية من خلال معادلات ماكسويل، وتشمل كذلك الفيزياء الحرارية التى تخضع لقوانين الفيزياء الحرارية الثلاثة.

والسمة المشتركة بين مجالات الفيزياء الكلاسيكية المختلفة، هى امتثالها بشكل مطلق للقوانين الفيزيائية التى=

بعرض رؤيتهم لأن البعض يعتقد خطأً أن فيزياء الكوانتم يمكن أن تفسر نشأة الكون من

=تحكمها، وهو ما يُعرف بالحتمية المطلقة Complete Determinism.

فيزياء الكم:

ظهر علم فيزياء الكم في بداية القرن العشرين، ونجح في تفسير العديد من الظواهر التي لم تستطع الفيزياء الكلاسيكية تفسيرها من قبل.

وتشتمل فيزياء الكم (الكوانتم) على مجموعة المبادئ التي تتعامل مع الأنظمة الفيزيائية الدقيقة: الجزيئات و الذرات والبروتونات والنيوترونات والإلكترونات والكواركات وباقي الجسيمات تحت الذرية. وتدرس كذلك موجات أنواع الطاقة المختلفة.

ويمكن تلخيص الأفكار الرئيسية التي تمثل أعمدة نظرية الكم (الكوانتم) في الخمس نقاط التالية :

أولًا: لا تَصدر الطاقة من الجسيمات على هيئة موجات مستمرة الانبعاث، لكنها تخرج على هيئة دَفقات أو حِزَم تُسمى كل منها كوانتم Quantum (ماكس بلاك ١٩٠٠). وينطبق السلوك نفسه على الضوء المنبعث من مصدر ضوئي؛ إذ يخرج الضوء على هيئة دفقات من جسيمات مهملة الكتلة تسمى فوتونات Fotons (أينشتين ١٩٠٥).

ثانيًا: تسلك الجسيمات الصغيرة (كالإلكترونات الذرات وفوتونات الضوء) بطريقة مزدوجة، فهي تارة تسلك كجسيمات، وتارة تسلك كموجات (أينشتين ١٩٠٥).

كذلك تسلك الموجات سلوكًا مزدوجًا، فهي تارة تسلك كموجات وتارة تسلك كجسيمات (كومتون ١٩٢٣).

وقد جمع نيلز بور (١٨٨٥ - ١٩٦٢) بين المفهومين ووضع «مبدأ التكاملية»، الذي ينص على أن هذا السلوك لكل من جسيمات المادة والموجات يكمل بعضهما بعضًا، وهو ما يسمى ازدواجية الجسيم - الموجة: Particle - Wave Duality، ولا يمكن استخدام إحدى الهيئتين بشكل منفرد لوصف سلوك المادة أو الإشعاع بشكل كامل.

ومن ثَمَّ فإن طبيعة الشيء تتوقف على رصدك له، فإن استخدمت الأجهزة التي تكتشف الجسيمات فسترصده كجسيم، وإن استخدمت الأجهزة التي تكتشف الموجات فسترصده كموجة. لذلك كان نيلز بور يردد مقولته الشهيرة: إن الطبيعة الحقيقية للأشياء هي ما نرصده نحن Nothing is real unless it is observed.

ثالثًا: إذا سقط مائة فوتون (وحدة جسيمات الضوء) على مرآة، فإن حوالي ٩٥٪ منها ستنعكس تجاه أعيننا لنرى الصورة، بينما ستنفذ ٥٪ خلال المرآة. لكن إذا سقط فوتون واحد على المرآة فلن نستطيع أن نجزم هل سينعكس هذا الفوتون أم سيرتد، لكن يمكننا القول أن هناك احتمالًا مقداره ٩٥٪ لأن يرتد واحتمالًا ٥٪ لأن ينفذ.

من المعروف كذلك أن ذرات العناصر المشعة كاليورانيوم، تفقد نصف قدرتها على الإشعاع، وتتحول إلى عناصر خاملة في فترة أطلق عليها الفيزيائيون «فترة نصف العمر». لكن أي نصف من الذرات هو الذي يتوقف عن الإشعاع، لا نعرف، أقصى ما نستطيع قوله، أن أمام كل ذرة فرصة مقدرها ٥٠٪ لأن تتوقف عن الإشعاع وتتحول لذرة خاملة (ذرة رصاص في حالة اليورانيوم).

معنى ذلك أننا ندرس سلوك الجسيمات (وكذلك الموجات) بناءً على «احتمالات Probability». (وهذا ما يعرف بمبدأ الارتياب Uncertainty Principle للفيزيائي النمساوي فيرنر هايزنبرج). وذلك في مقابل الحتمية المطلقة التي تتعامل بها الفيزياء الكلاسيكية

رابعًا: إذا افترضنا أننا نستطيع أن نرى إلكترونًا باستخدام ميكروسكوب ضوئي، وحتى يتسنى ذلك لا بد أن يقع فوتون واحد (على الأقل) على الإلكترون لينعكس من خلال الميكروسكوب إلى العين. إن الإلكترون سيمتص جزءًا من طاقة الفوتون فتزداد طاقته، مما يؤدي إلى انتقال الإلكترون إلى مدار آخر، أي أن موضعه سيتغير، وبالتالي لن نستطيع تحديد موقعه الأساسي بدقة.

ومهما حاولنا ابتكار جهاز دقيق لتحديد موضع الإلكترون، فسيكون ذلك على حساب الدقة في قياس طاقته. والعكس صحيح، فكلما زدنا من دقة قياس طاقة الإلكترون فسيكون ذلك على حساب دقتنا في تحديد موضعه. أي=

عدم، دون الحاجة إلى إله خالق، كما تمثل رؤية كل منهم جانبًا من العلاقة بين العلم وقضية الألوهية.

يقول فيرنر هيزنبرج[1] Werner Heisenberg صاحب «مبدأ اللاحتمية أو الارتياب Uncertainity Principle»: كنت طوال حياتى مدفوعًا إلى تأمل العلاقة بين العلم والدين، ولم أجد فى أى وقت مهربًا من الإقرار بدلالة العلم على وجود الإله.

ويقول: ما الذى يحكم حركة الإبرة المغناطيسية لتستقر تجاه الشمال والجنوب، إنه نظام مبهر تحكمه قوة حكيمة قادرة، **قوة لو اختفت من الوجود لاجتاحت الجنس البشرى مصائب رهيبة،** مصائب أسوأ من الانفجارات النووية وحروب الإبادة.

ويقول إروين شرودنجر[2] Erwin Shrödinger مؤسس علم «ميكانيكا الموجات»: إن الصورة التى يرسمها العلم للوجود من حولنا، قاصرة للغاية. فبالرغم من الحقائق الكثيرة التى يقدمها لنا ويصيغها فى القوانين التى تحكم الوجود، **يقف العلم كالأبكم أمام الأمور القريبة من قلوبنا والتى تهمنا حقيقةً.**

=إننا لا نستطيع تحديد موضع الجسيم وقياس طاقته بدقة فى وقت واحد.

خامسًا: إن عالَم الذرة لا يشابه بتاتًا العالم الظاهرى الذى نحيا فيه.

وهذا ما جعل نيلز بور يقول: إن أى باحث لا تصدمه أفكار نظرية الكم، فهو بالتأكيد لم يفهم هذه النظرية.

ينبغى أن نذكر هنا أن ألبرت أينشتين لم يكن مستعدًّا على الإطلاق للتسليم بفكرة خضوع سلوك الجسيم للاحتمال الإحصائى، ويرى أن جسيمات العوالم تحت الذرية تلتزم بقوانين فيزيائية تحكم سلوكها. وكان يرى أن مفهوم عدم الحتمية (الارتياب Uncertainity) فى نظرية الكم يرجع إلى وجود ثغرات فى معرفتنا، وأن هذه الثغرات سوف تُسَد فيما بعد، عندما نتوصل للقوانين الفيزيائية النهائية التى تحكم سلوك الجسيمات والموجات.

لذلك اعتبر أينشتين نظرية الكم (لما فيها من احتمالية وارتياب) نظرية مؤقتة (وليست نهائية) لتفسير الظواهر الذرية، وكان يردد دائمًا القول الذى ذاع عنه (أن الإله لا يلعب بالنرد) God does not play Dice، أى أن الله لا يترك أى شىء للاحتمالات.

ونختم هذا العرض المختصر لمفاهيم نظرية الكم بأن نبين أن حوالى ٣٠٪ من الدخل القومى الأمريكى يأتى من اكتشافات واختراعات أتاحتها فيزياء الكم. ومن هذه الاختراعات، الترانزستور (أهم اختراع تكنولوجى فى القرن العشرين)، أشعة الليزر، الرنين المغناطيسى، الميكروسكوب الإلكترونى، أجهزة الكمبيوتر، شبكات المعلومات Net.

ولا شك أن أسوأ تطبيقات نظرية الكم كان اختراع القنابل الذرية والهيدروجينية، لما سببته وستسببه من بؤس للبشرية.

(١) فيرنر هيزنبرج Werner Heisenberg: عالم ألمانى (١٩٠١ - ١٩٧٦).

(٢) إروين شرودنجر Erwin Shrödinger: عالم نمساوى (١٨٨٧ - ١٩٦١).

لا يقول العلم كلمة حول شعورنا بالانشراح أو الكآبة، ما تثيره فينا الألوان كالأحمر والأزرق، لِـمَ نعتبر هذا المنظر جميلًا أو قبيحًا، كيف نفسر التناسق والانسجام فى الوجود، إن العلم لا يعرف شيئًا عن الخير والشر. إن مثل هذه الأمور لا يفسرها إلا الإقرار بوجود الإله.

ويضيف شرودنجر، أحيانًا يحاول العلماء الماديون الإجابة عن هذه التساؤلات، لكن أجوبتهم تكون من السخف بحيث لا يمكن أخذها بجدية بالمرة. **وكثيرًا ما يوصَم العلم بأنه ملحد، ولا غرابة فى أن يبدو كذلك،** إذ إننا ننزع عنه مفاهيم الجمال والبهجة والخير والشر، وإذا كان العلم المادى ينزَع الإنسان من إنسانيته، فكيف يُقِر بأكثر المفاهيم التى يواجهها العقل البشرى سموًّا.

أما «ماكس بلانك[1] Max Planck» (مؤسس فيزياء الكم) فيقول: **لا يمكن أن نجد تعارضًا حقيقيًّا بين العلم والدين، فكلاهما يُكَمِّل الآخر.** إن كلًّا من الدين والعلم يحارب فى معارك مشتركة لا تكل، ضد الادعاء والشك والتسلط والإلحاد، من أجل الوصول إلى معرفة الإله.

ويقول «بول ديراك[2] Paul Dirac» (من كبار المؤسسين لفيزياء الكم):

إن الإله خالق حسيب، استخدم أرقى مستويات الرياضيات فى تصميم الكون ووضع قوانينه.

مع ستيفن هوكنج

نصل إلى عملاق الفيزياء المعاصر «ستيفن هوكنج[3] Stephen Hawking»، فنقرأ فى خاتمة كتابه «تاريخ موجز للزمن A brief history of time» قوله: إذا توصلنا إلى «النظرية الجامعة[4] Universal theory» فإنها ستُمَكِّن كلًّا من العلماء والفلاسفة، بل والناس

(١) ماكس بلانك Max Planck: عالم ألمانى (١٨٥٨ - ١٩٤٧).

(٢) بول ديراك Paul Dirac: عالم إنجليزى (١٩٠٢ - ١٩٨٤).

(٣) ستيفن هوكنج Stephen Hawking: عالم الفيزياء النظرية والرياضيات التطبيقية البريطانى، يشغل منصب أستاذ الرياضيات الذى كان يشغله إسحق نيوتن بجامعة كمبريدج. وُلد عام ١٩٤٢. وهو مشهور بأبحاثه فى الكون وخاصة الثقوب السوداء. اهتم بتبسيط العلوم للعامة، وقد صار كتابه «تاريخ موجز للزمن» أكثر الكتب العلمية مبيعًا فى التاريخ، فقد بيع منه نسخة لكل ٥٠٠ إنسان على سطح الأرض. وقد أصيب فى بداية شبابه بمرض Amyotrophic lateral Sclerosis أدى إلى شلل تام شمل عضلات العنق والرأس، وهو يتعامل مع المحيطين من خلال أجهزة يوجهها بحركات عينيه وشفتيه!! إذ أفقده المرض القدرة على الكلام.

(٤) النظرية الجامعة: يبحث العلماء عن قوانين ومعادلات مشتركة، يمكن أن تُطبق على القوى الأربع الرئيسية فى الكون. وهى: القوة الكهرومغناطيسية - قوة الجاذبية - القوة النووية القوية - القوة النووية الضعيفة.

العاديين، من فهم بعض الجوانب عن الحكمة من وجود الكون ووجودنا. وإذا عرفنا ذلك فسنكون قد عرفنا كيف يفكر الإله.

وفى موضع آخر من الكتاب يقول: إن النظرية الجامعة ستكون مجموعة من القواعد والمعادلات، والسؤال هو: **من الذى نفخ فى هذه المعادلات المجردة القدرة والحياة ليخرج منها الكون المادى الذى تُوَصِّفه؟**

ويقول «هوكنج» فى أحد حواراته: كلما ازدادت معرفتنا بالكون وبالقوانين المنطقية التى تحكمه، ازداد إدراكنا لما فيه من نظام وانسجام وتناسق.

ويقول: **لا شك أنك تساءلت فى يوم ما عن الحكمة من وجود الكون؟ قد لا تجد إجابة إلا مشيئة الإله**[1].

مع بول ديفيز

حصل «بول ديفيز[2] Paul Davies» على جائزة تمبلتون Templeton Prize [3]، عن دراساته حول العلاقة بين ما فى الطبيعة من منطق وانسجام، وبين قضية الألوهية.

وفى خطابه بمناسبة استلام الجائزة، أدهش ديفيز الحاضرين حين أعلن **أن العلم لن يتجاوز حدًّا معينًا من التقدم إلا إذا أقر بالمفاهيم الدينية.**

وأضاف، إنه بالرغم من أن الملاحدة لا يسألون، من أين أتت قوانين الطبيعة، إلا أنهم جميعًا يقرون بالانتظام فى سلوكها. لذلك يُـخَطِّئ ديفيز الملاحدة فى مفهومين يتمسكون بهما، ويقفان حائلًا بينهم وبين الإيمان:

(١) يصرح هوكنج فى مواضع أخرى بما يشير إلى أنه ملحد لا يؤمن بوجود الإله. وتفسير هذا التناقض، هو أنه عندما يواجه غزارة الأدلة على الإلوهية، يجد نفسه مضطرًا للإقرار بالحقيقة، التى يرفضها تَـمَشِّيًا مع المفاهيم العلمية السائدة.

(٢) بول ديفيز Paul Davies : عالم بريطانى، ولد عام ١٩٤٦.
أستاذ الفيزياء بجامعة أريزونا، وعمل قبلها أستاذًا بجامعات كمبريدج - لندن - نيوكاسل.
متخصص فى علوم الكون وفيزياء الكم.
حصل على جائزة تمبلتون عام ١٩٩٥.

(٣) جائزة تمبلتون Templeton Prize : جائزة تقدمها مؤسسة تمبلتون بالولايات المتحدة منذ عام ١٩٧٣.
وهى تُقدَّم للأبحاث والاكتشافات العلمية التى تخدم الجوانب الدينية والروحية، بعد أن لاحظ مقدموها أن جائزة نوبل تهمل هذه الجوانب. وتبلغ قيمتها ١,٦ مليون دولار (تزيد عن قيمة جائزة نوبل التى تبلغ ١,٢ مليون دولار).

- **المفهوم الأول:** هو تفسيرهم لانتظام بنية الوجود، بأنه لا يمكن إلا أن يكون كذلك، بما أنه قد وُجد على هذه الهيئة بالفعل! ونجيب عليهم بأن وجودًا أقل انتظامًا وانسجامًا كان يمكن أن يتشكل ويبقى، وهذا هو الأقرب إلى حالة الفوضى التى كانت سائدة عند نشأة الكون. ولكن **لِـمَ ظهر الوجود على الهيئة الأمثل والأعقد والأصعب خَلقًا وبقاءً؟**

- **المفهوم الثانى:** من الحمق الشديد ما يقوله الماديون من أن **قوانين الطبيعة من إنشائنا نحن،** وأنها غير موجودة حقيقة فى الطبيعة. لا أعتقد أن أحدًا من الفيزيائيين يعتقد أن قوانين نيوتن (مثلًا) من إنشاء البشر، لا شك أن قوانين الطبيعة لها وجود حقيقى، ويقف دور العلماء عند اكتشافها وصياغتها وليس اختراعها.

ويطرح ديفيز تساؤلاته الـمُـلِّحة:

- كيف تشكلت قوانين الطبيعة؟

- ولماذا هذه القوانين بالذات وليس سواها؟

- كيف تنشأ الحياة التى تسلك بوعى وعقل وذكاء، من المادة غير الحية؟

ونختم حجج ديفيز بإجابته التى تصك عقول الملاحدة :

إن قوانين الطبيعة قد تشكلت منذ زمن سحيق، لتقوم لاحقًا بوظائف مطلوبة فى وجود لم يكن قد خُلِق بعد[1]، ما أعجب هذا التصميم وهذا القصد؟!

* * *

---

(١) يُعرف هذا المفهوم «بالمبدأ البشرى»، انظر الفصل القادم.

مع علماء الرياضيات

كذلك حصل «جون بارو[1] John Barrow» على جائزة تمبلتون Templeton Prize لدراساته حول برهان التصميم. وفى خطابه عند استلام الجائزة، لفت النظر إلى أن هذا الوجود بما فيه من تعقيد منقطع النظير فى البنية والأداء، يتبع عددًا قليلًا من القوانين الحكيمة التى يمكن صياغتها بدقة فى معادلات رياضية تشغل ورقة واحدة.

ويعترض بارو على القائلين بأن قوانين الطبيعة من اختراعنا لنفسر بها الظواهر التى حولنا، بأن نشأة الإنسان وتكاثره (وهو أهم ما يشغلنا) لا يحتاج تفسيره إلى افتراض وجود أمور شديدة التعقيد، مثل الكواركات والثقوب السوداء، فَلِم اخترع العلماء هذه المفاهيم؟!

ويشير بارو إلى أن تاريخ العلم حافل بالنظريات التى حلت محل نظريات سابقة لها. وبالرغم من أن نظرية النسبية قد خلفت قوانين نيوتن للحركة، إلا أن الأخيرة ستظل تُستخدم لآلاف السنين القادمة. أليس هذا دليلًا على أن لهذه القوانين وجودًا حقيقيًّا، وأنها ليست من تصوراتنا وخلقنا لنستبدلها حين نشاء؟!

مع علماء البيولوجيا

بعد هذه الجولة مع علماء الفيزياء والرياضيات، نقف عند عالِم البيولوجيا «تشارلس داروين Charles Darwin» صاحب نظرية التطور الذى اتهم كثيرًا بالإلحاد، عسى أن تُبَرِّئ هذه الكلمات ساحته، وتكون حجة على الملاحدة. يقول داروين فى سيرته الذاتية:

«[Reason tells me of the] extreme difficulty or rather impossibility of conceiving this immense and wonderful universe, including man with his capability of looking far into futurity, as the result of blind chance or necessity. When thus reflecting I feel compelled to look to a First Cause having an intelligent mind in some degree analogous to that of man; and I deserve to be called a Theist».[2]

---

(١) جون بارو John Barrow : ولد فى لندن عام ١٩٥٢.
يشغل منصب أستاذ الرياضيات فى جامعة كمبريدج. وله اهتمام خاص بالفيزياء النظرية وفيزياء الكون. حصل على جائزة تمبلتون عام ٢٠٠٦.

(٢) حرصت على إثبات «نص» إقرار داروين فى سيرته الذاتية «أنه من المؤلهة»، وأثبت هنا المصدر بالتحديد. =

«من الصعب جدًّا، بل من المستحيل، أن نتصور أن كونًا هائلًا ككوننا، وبه مخلوق يتمتع بقدراتنا الإنسانية الهائلة، قد نشأ في البداية بمحض الصدفة العمياء، أو لأن الحاجة أم الاختراع. وعندما أبحث حولي عن السبب الأول وراء هذا الوجود، أجدني مدفوعًا إلى القول بمصمم ذكي. ومن ثَمَّ فإنى أؤمن بوجود الإله».

* * *

الفلاسفة يكملون مشوار العلماء
الإله خالق القوانين

مُجمل القول، يطرحه «جون فوستر John Foster» أستاذ الفلسفة بجامعة أكسفورد، في كتابه «الإله خالق القوانين The Divine Lawmaker»: **إذا أقررنا بوجود قوانين الطبيعة، فإن هذا الانتظام يمكن تفسيره ببساطة وعلى أكمل وجه، بوجود إله حكيم قادر.**

ويُعَلِّق الفيلسوف العظيم ريتشارد سوينبرن على برهان التصميم بقوله: إذا قلنا، مثلًا، أن جميع الأجسام تنجذب لبعضها تبعًا لمعادلة معينة (قانون الجاذبية)، فمن المنطقى والأيسر أن نعتبر أن امتثال جميع الأجسام ينبع من مصدر واحد، بدلًا من افتراض أن كل جسم قد التزم بهذا السلوك مصادفة دون ضابط، وأن الإنسان هو الذى شَكَّل من هذا التشابه العشوائى فى سلوك الأجسام قانونًا.

ويتفق سوينبرن مع جون فوستر **بأن أفضل تفسير لهذا النظام هو وجود الإله الحكيم القادر الذى تصفه الأديان السماوية.**

إن العلماء المقرين بحكمة إلهية وراء الكون، لا يقومون بتقديم البراهين من أجل الدفاع عن مفهوم فلسفى، **ولكنهم يُعَبرون عن واقع أظهره العلم الحديث وفرضه على العقول المنطقية المنصفة، بحُجِّية أراها ملزمة وغير قابلة للدحض والتفنيد.**

= Charles Darwin, The Autobiography of Charles Darwin 1809 – 1882 ed. Nora Barlow (London: Collins, 1958), 92 – 3.

الفصل السابع

كونْ أُعِدَّ لاستقبالنا!

تصور أنك نزلت فى إحدى رحلاتك بأحد الفنادق.

وعندما دخلت غرفتك وجدت أن الصورة المعلقة فوق السرير نسخة مطابقة للصورة التى علقتها منذ سنوات فوق فراشك فى بيتك، كذلك السجادة التى تغطى أرضية الغرفة، بل إنهم يضعون فى المزهرية نوع الزهور نفسه الذى تفضله.

وعلى المنضدة التى فى ركن الغرفة، وجدت الطبعة الأخيرة من ديوان الشعر الذى تفضل القراءة فيه من حين لآخر، كما وجدت الصحيفة التى اعتدت قراءتها يوميًّا.

وداخل الثلاجة، وجدت أنواع المشروبات والشيكولاته التى تحبها، كما أن زجاجة المياه المعدنية من نفس النوع الذى تستخدمه فى وطنك.

وعندما شَغَّلت جهاز التليفزيون، وجدت أن الإرسال الداخلى للفندق يعرض باستمرار الأفلام المفضلة عندك، كما تذيع الإذاعة الداخلية المقطوعات الموسيقية التى تحبها.

وفى الحمام، وجدت الحوائط قد غطيت بالقيشانى من نفس درجة اللون الفيروزى الذى تفضله، كما وجدت على أحد الأرفف نفس الشامبو والصابون اللذين اعتدت على استخدامهما.

وكلما جُلت ببصرك وجدت حولك تطابقًا بين ما تحبه واعتدت عليه، وبين ما وفَّرته لك إدارة الفندق. لا شك أن احتمال المصادفة يتناقص تدريجيًّا حتى يثبت فى يقينك أن أحدًا قد أَطْلَع إدارة الفندق على تفاصيل حياتك ودقائق رغباتك.

نحن والوجود فى تناغم

يسمى الفلاسفة المفاجآت التى قابلتك فى الفندق، والتى تؤكد أن هناك من يعرفك عن قرب ويعرف أنك قادم إلى الفندق، ببرهان التناغم **Fine tuning argument**.

يصف الفيزيائى الكبير «فريمان ديسون[1] Freeman Dyson» هذا البرهان بقوله: **«كلما ازدادت معارفنا التى تُظهر التطابق بين دقائق بنية الكون وبين احتياجاتنا، ازداد شعورى بأن الكون قد أُعد لاستقبالنا».**

ويُعرَف المفهوم الذى يرى أن الكون قد تم بناؤه على هيئة تجعله ملائمًا تمامًا لنشأة البشر **«بالمبدأ البشرى The anthropic principle»** [2].

سؤال مهم يطرح نفسه، هل يرجع التوافق بين القوانين والثوابت الفيزيائية التى سمحت بظهور الحياة فى كوننا، وبين نشأة ووجود الكائنات الحية إلى الصدفة ؟ لم يعد أحد من الفيزيائيين الكبار يقول بهذا الاحتمال، إذ إنهم **لا يتصورون إمكان حدوث هذا التناغم بهذه الدقة الهائلة فى كون واحد Universe عن طريق المصادفة.**

إذن، ماذا يطرح العلماء ؟

يطرح العلماء بديلين. **إما القول بمصمم ذكى حكيم قادر خالق نَسَّق هذا التوافق بإرادته وقدرته، أو القول بوجود أكوان متعددة Multiverses** سادت فيها ظروف طبيعية مختلفة، وقد حدث أن توافرت فى أحد هذه الأكوان (كوننا هذا) بالصدفة، الظروف المطلوبة لنشأة الحياة.

(١) فريمان ديسون Freeman Dyson : وُلد بإنجلترا عام ١٩٢٣ . أستاذ الرياضيات والفيزياء النظرية بالولايات المتحدة، مهتم بالهندسة النووية وفيزياء الكم. حصل على جائزة تمبلتون عام ٢٠٠٠.

(٢) نعرض المبدأ البشرى بالتفصيل فى الفصل الثانى من الجزء الثانى.

منظور الأكوان المتعددة[1]

من أبرز علماء الكونيات المناصرين لفكرة الأكوان المتعددة «مارتن ريز[2] Martin Rees»، تعالوا لنرى ماذا يقول:

من أجل أن يكون أحد الأكوان المتعددة صالحًا لنشأة الحياة، **لا بد أن تتوافر فيه الظروف والقوانين والثوابت الفيزيائية السائدة فى كوكبنا.**

ويرى ريز أن هذه الأكوان المتعددة توجد فى أبعاد زمانية ومكانية مختلفة عن كوننا وعن بعضها البعض، ومن ثَمَّ لن يشعر ساكن أحد هذه الأكوان بالأكوان الأخرى. كذلك قد يؤثر بعض هذه الأكوان فى البعض الآخر وقد لا يؤثر.

ويعرض ريز بعض الآليات التى طرحها الفلكيون لتفسير كيفية نشأة الأكوان المتعددة. من هذه الآليات حدوث «**انفجارات كونية متعددة Multiple Big Bangs**»، نشأ عن كلٍّ منها كون منفصل. ومنها **نظرية الثقوب السوداء المتعددة التى ينشأ من طاقة كلٍّ منها كون مختلف.**

ويشير ريز إلى أن التفسيرات المختلفة لنشأة الأكوان المتعددة تتعارض كثيرًا فيما بينها، وتحتاج لإثباتها أو نفيها إلى تصور قوانين فيزيائية تتعامل مع ثوابت فيزيائية تفوق ملايين المرات الثوابت التى نعرفها، مثل الكثافات الفائقة والأحجام فائقة الكِبَر، وفائقة الصغر، والحرارة الهائلة، والسرعات التى تفوق سرعة الضوء. ويرى أن المزيد من الفهم سيؤدى حتمًا إلى تساقط عدد من هذه البدائل، حتى **قد ينتهى الأمر إلى القول بكون واحد!!**

منظور الأكوان المتعددة فى الميزان

يسخر معظم الفيزيائيين والفلاسفة من منظور الأكوان المتعددة. ونعرض هنا اعتراضات أحد كبار الفيزيائيين وأحد كبار الفلاسفة.

---

(١) طُرِح مفهوم «الأكوان المتعددة» لأول مرة كقصة من قصص الخيال العلمى بعنوان Star Maker عام ١٩٧٣. وتنظر القصة إلى الزمن باعتباره نهرًا مستمر الجريان، يحمل العديد من الفقاقيع التى يمثل كل منها كونًا منفصلًا، ظهر من العدم على هيئة نقطة من الطاقة. ويتكون كل كون من هذه الأكوان من مادة مختلفة تخضع لقوانين فيزيائية مختلفة. وقد كانت مادة وقوانين أحد هذه الأكوان مناسبة تمامًا لنشأة حياتنا.

وفى ثمانينيات القرن العشرين وقع البيولوجى F.A. Pantin فى أسر هذا التصور الخيالى، وأخرج منه نظرية علمية يُشَبِّهُنا فيها بمن دخل متجرًا للملابس يوجد به ما لا نهاية له من الموديلات والمقاسات، وقد قام المشترى (الذى هو نحن) باختيار الثوب الذى يناسبه (الذى هو كوننا).

(٢) مارتن ريز Martin Rees: أستاذ الفلك وعالم الكونيات البريطانى، ولد عام ١٩٤٢.

يقول عالم الفيزياء «بول ديفيز Paul Devies»

من السهل أن ندعى أننا إذا أعطينا أحد الأكوان عمرًا أبديًا (لا بداية له) فإنه يمكن أن ينشأ فيه أى شىء خلال هذه الفترة اللامتناهية الهائلة، إن هذا القول لا يمكن قبوله كتفسير لوجود الحياة فى كوننا على الإطلاق.

كذلك إذا لجأنا إلى فيزياء الكوانتم، فإن أحدًا لن يكون قادرًا على إثبات أى شىء أو نفيه، فكله احتمالات. وفى الوقت نفسه، نكون قد ألبسنا الأمر ثوبًا علميًا، بعد أن ألقينا بذور الشك فى عقل وقلب كل إنسان.

إن مثل هذه المقولات الاعتباطية يمكن أن تُستخدم لإثبات أى شىء فى أى مجال، بينما هى فى الحقيقة لم تقدم دليلًا واحدًا على الإطلاق.

ينبغى أن يكون البرهان العلمى مثل طلقة الرصاص، مُحكمة التوجيه إلى هدف محدد. ومن ثم، فإن القول بأكوان متعددة إلى ما لا نهاية من التعدد، وقديمة إلى ما لا نهاية من القدم، من أجل أن تصيب إحداها الظروفُ الملائمة لنشأة الحياة يُعتبر أسلوبًا خطيرًا للغاية؛ إذ يهدم مفهوم البرهان العلمى من أساسه.

إن القول بالأكوان المتعددة التى تصادف أن يكون أحدها صالحًا لنشأة الحياة، يزيد من حجم المشكلة؛ إذ يجعلها حاصل ضرب المشكلة × عدد الأكوان المفتَرَضة. إن ذلك يشبه التلميذ الذى لم يصدق مُدرسه حجته بأن كلبًا قد التهم كراسة واجباته المدرسية، فأجاب التلميذ بأن مجموعة من الكلاب (لا يستطيع إحصاء عددها) هى التى التهمت الكراسة!!

إن القول بأن القوانين المناسبة لنشأة الحياة، قد ظهرت بالمصادفة عندما برد أحد الأكوان بعد الانفجار الكونى الذى أوجده تفسير غير كافٍ. فإن القوانين الفيزيائية الموجودة أثناء تَبَرُّد هذا الكون ينبغى أن تتبع قوانين أعلى، فكيف ظهرت هذه القوانين الأعلى. وستظل هناك دائمًا الحاجة إلى إدراك مصدر القوانين الطبيعية الأعلى ثم الأعلى وهكذا. ومن ثم، فإن منظور الأكوان المتعددة لا يلغى الاحتياج إلى تدخل إلهى.

مع الفلسفة

ويشارك الفيلسوف الكبير «ريتشارد سوينبرن Richard Swinburne» بول ديفيز فى ازدرائه لفرضية الأكوان المتعددة، ويقول: من السفه اللجوء إلى القول بوجود تريليونات من

الأكوان التى ترجع إلى تريليونات من السنين، تفسير وجود الظروف الملائمة لنشأة الحياة فى كون واحد (هو كوننا)، فى الوقت الذى يمكن **أن يفسر القول بوجود واحد (وجود الإله) الأمر كله.**

إن فرضية الأكوان المتعددة التى حدث أن كانت ظروف أَحَدِها مناسبة لنشأة الحياة، لم تجب على نفس السؤال البديهى: **كيف نشأت قوانين هذا الكون المناسب؟**

وإذا رفضنا فرضية الأكوان المتعددة كتفسير لنشأة الحياة فى كوننا، لا يبقى أمامنا إلا أن نُقر بالإله الخالق للكون والحياة، والذى يشير إليه برهان التناغم.

برهان التناغم Fine tunning argument

يقول فيلسوف العلوم، «جون ليسلى John Leslie» (من كبار أنصار المبدأ البشرى) فى كتابه «العقل المطلق Infinite mind»: لا شك أن الكون قد أُعد لنشأة الحياة، عن طريق ضبط دقيق لقوانينه وثوابته الفيزيائية. ولكن ما يبهرنى حقًّا، **هو أن هذا التناغم والتوافق موجود بغزارة تفوق كثيرًا القدر المطلوب لنشأة الحياة.**

الكهرومغناطيسية ... كمثال:

يضرب جون ليسلى مثالًا للتناغم بالطاقة الكهرومغناطيسية التى تتحكم فى جميع نظم الوجود، من أصغر مكوناته (الذرات) إلى أكبر موجوداته (المجرات[١])، خاضعة لنفس القوانين (قوانين فيزياء الكم).

على مستوى الذرات، تحافظ الطاقة الكهرومغناطيسية على الإلكترونات فى مداراتها، بحيث لا تنفلت بعيدًا تحت تأثير القوة الطاردة المركزية، وفى الوقت نفسه، لا تغوص داخل نويات الذرات[٢]، وينطبق ذلك على جميع الذرات من أصغرها إلى أكبرها.

(١) المجرات Galaxies: بناء كونى مكون من تجمع هائل من النجوم والغبار والغازات والمادة المظلمة، ترتبط معًا بقوى الجذب المتبادلة، وتدور حول مركز مشترك.
يقدر الفلكيون أن هناك $١٠^{١١}$ إلى $١٠^{١٢}$ مجرة فى الكون المنظور. ويصل قطر المجرات العملاقة إلى ١/٢ مليون سنة ضوئية، وتحتوى على أكثر من $١٠^{١٢}$ نجم. وتقع الشمس فى مجرة درب التبانة.

(٢) تتكون ذرات العناصر من نواة تدور حولها الإلكترونات تحت تأثير القوة الكهرومغناطيسية والقوة الطاردة المركزية. وتتكون النواة من بروتونات ونيوترونات، والكواركات هى وحدة بناء هذه البروتونات والنيوترونات.

كذلك تُـمَكِّن هذه القوة الواحدة، النظم المختلفة شديدة التباين من العمل بكفاءة، ابتداءً من الشفرة الجينية داخل الخلية الحية، إلى الاحتراق داخل نجوم المجرات المختلفة، وانبعاث الطاقة منها على مدى بلايين السنين.

كيف تَسَنَّى لقوة واحدة، تقاس بوحدة لها مقدار واحد ثابت وتخضع لقوانين فيزيائية واحدة، أن تقوم بكل هذه الوظائف المتباينة. ذلك فى الوقت الذى يبدو فيه أن كلًّا من هذه الوظائف يحتاج لمقادير مختلفة وأشكال مختلفة من الطاقة؟

تبقى نقطتان ينبغى ذكرهما بخصوص برهان التناغم:

١- أن القوانين والثوابت الفيزيائية السائدة الآن والتى تسمح باستمرار الحياة، لم تكن لتسمح بنشأة الحياة. لذلك فإن هذه النشأة احتاجت لظروف وقوانين أخرى سادت منذ حوالى أربعة بلايين عامًا.

٢- لو تغيرت بعض القوانين والثوابت الفيزيائية السائدة الآن لَـمَـا قُدِّر للحياة أن تستمر.

لقد أُحكمت قوانين الطبيعة بحيث تُعِد الكون ليكون جاهزًا لنشأة الحياة البشرية، ثم لاستمرارها.

الفصل الثامن

كيف نشأت الحياة؟

من المشاكل التى تقابل الفلاسفة عند التعامل مع العلماء الماديين، قلة إدراكهم للانعكاسات المعرفية لتأويلاتهم المادية، وربما اعتبروا أننا كفلاسفة نخوض بحارًا لا طاقة لنا بها (البيولوجيا). بينما يرى الفلاسفة أن السؤال عن (كيف يستطيع كون من مادة غير حية غير عاقلة أن يُخرج لنا الحياة العاقلة، والقادرة على التكاثر؟) سؤال فلسفى قبل أن يكون قضية علمية بيولوجية.

سمات الكائن الحى

إذا تأملنا مفهوم الحياة بمنظور فلسفى، وجدنا أن السمة الأساسية المميزة لها أن للكائنات الحية **غرضًا أو هدفًا متأصلًا فى بنيتها (الغائية Teleology)**، هذا الهدف هو المحافظة على وجودها، وهو هدف لم يكن موجودًا فى المادة غير الحية التى نشأت منها. وعندما لاحظ أرسطو الارتباط بين الحياة والغائية، عَرَّف الحياة بأن يكون للشىء غاية فى وجوده.

والسمة الثانية المصاحبة للحياة هى **القدرة على التكاثر**. وبالرغم من أن جميع نظريات نشأة الحياة تنظر إلى التكاثر كأمر بديهى مصاحب للحياة، فإنه يعتبر التكاثر سمة مختلفة تمامًا عن الحياة.

أما السمة الثالثة المرتبطة بالحياة فهى نظام التشفير **Coding System** ومعالجة المعلومات **Information Processing** الموجود فى جميع أشكال الكائنات الحية. يشرح لنا «ديفيد

بيرلنسكى[1] «David Berlinski» (عالِـم الرياضيات) المقصود بهذا النظام، فيقول:

إن نظم التشفير هى نظم تربط بين شيئين أو بين نظامين باستخدام الرموز. من أجل أن نفهم ذلك، فلنتأمل شفرة موريس Morse Code (التلغراف) التى تقوم على خطوات ثلاث: التشفير - نقل المعلومة - فك الشفرة.

فالمرسِل يُـحول حروف الكلمات التى يريد إرسالها إلى رمزين (نقاط وشُرَط)، ويتم التعبير عن جميع الحروف بهذين الرمزين بطريقة رياضية (**عملية التشفير**).

(أ = ـ. ـ   ط = ـ. ـ.   و = . ـ. .   وهكذا) ثم يتم تحويل هذه الرموز إلى إشارات كهربائية، **يتم نقلها** عن طريق الأسلاك إلى مكان المستقبِل، الذى **يقوم بفك الشفرة وترجمتها إلى معناها الأصلى Decoding**. إذا قسنا على هذا النظام ما يحدث فى الخلية الحية، وجدنا نفس الخطوات :

فالمعلومات الخاصة بكيفية عمل الخلية، وكذلك صفات الكائن الحى التى سيتم تمريرها إلى الأجيال التالية، تكون محمولة على الجينات التى تتراص بجوار بعضها لتُـكَوِّن كروموسومات نواة الخلية. **وتوجد هذه المعلومات فى صورة رمزية**، تستخدم أربعة أحرف[2] تتراص بترتيب رياضى مختلف، لتعبر عن جميع المعلومات التى تحملها نواة الخلية. وتشكل هذه المركبات الكيميائية، الحمض النووى الشهير الذى تتكون منه الكروموسومات، والمعروف باسم الدنا DNA.

ويتم **نقل المعلومات** من الجينات الموجودة بنواة الخلية إلى أجسام موجودة فى السائل الخلوى خارج النواة، تُعرف باسم الريبوزومات، ويقوم بنقل المعلومات حمض نووى آخر يعرف باسم الرنا RNA (يقابل أسلاك الكهرباء التى تنقل الشفرة فى نظام التلغراف).

وبناءً على المعلومات التى حملها الرنا من الدنا إلى الريبوزومات، **تقوم الأخيرة بفك الشفرة وفهم محتواها** Translation = Decoding، وتكون الأحماض الأمينية التى يتحد بعضها ببعض لتكوين البروتينات، التى تقوم بمعظم وظائف الخلية.

(١) ديفيد بيرلنسكى David Berlinski : وُلد بنيويورك عام ١٩٤٢ . أستاذ الرياضيات وحاصل على الدكتوراه فى الفلسفة. من أعمدة حركة التصميم الذكى.

(٢) هذه الأحرف الأربعة هى ٤ مركبات كيميائية، من مجموعة تُعرف بـ «النيكلوتايدات Nucleotides».

ويوجد هذا النظام للتشفير ومعالجة المعلومات، والذى يستخدم الحمضين النوويين الدنا والرنا DNA، RNA، فى خلايا جميع الكائنات الحية.

يصف «كارل وويز[1] Carl Woese» (رائد دراسات أصل الحياة) نظام التشفير ومعالجة المعلومات بأنه متعدد الجوانب، لذلك ينبغى أن نفرق فيه بين:

١- آلية عمل نظام التشفير (الدنا والرنا والبروتينات)

٢- مصدر نظام التشفير ومعالجة المعلومات.

٣- علاقة هذه الآلية بالتطور فى الكائنات الحية.

بتأمل هذه الجوانب، نجد أنه إذا أمكننا فهم بنية وآلية عمل الدنا والرنا والبروتينات على أسس مادية، **فإننا لا نكاد نعرف شيئًا عن كيف ومن أين اكتسبت المادة غير الحية آلية التشفير ومعالجة المعلومات، على تعقيدها الشديد المعجز.**

معضلة «التشكيل» Morphogenesis

إن الحياة ليست مجرد تفاعلات كيميائية معقدة تنتهى ببناء البروتينات اللازمة للحياة، وليست فقط اختزان المعلومات والصفات الوراثية ونقلها للأجيال التالية. إن المشكلة الأعقد التى تواجه الماديين بخصوص طبيعة الحياة هى معضلة «التشكيل[2] Morphogenesis».

يرى المفهـوم السـائد عند الماديـين الاخـتزاليين[3] Reductionists أن «الدنا DNA» (الذى تتكون منه جينات الخلية) مسئول عن كل صفات الكائن الجسمية والنفسية والسلوكية، ولا شك أن هذه النظرة الاختزالية مفجعة فى قصورها؛ إذ ثبت للبيولوجيين أن الدنا، بالآليات التى تم التوصل إليها حتى الآن، يعجز تمامًا عن تشكيل الكائن على هيئته الحقيقة morphogenesis **(أى تحويله من مجرد معلومات إلى وجود حقيقى).**

---

(١) كارل ووبز Carl Woese: أمريكى وُلد عام ١٩٢٨. يعمل أستاذًا للميكروبيولوجيا بجامعة ألينوس بالولايات المتحدة. اكتشف الآركيا Archea كمجموعة منفصلة تمامًا عن البكتريا، ويكونان سويًّا مجموعة الخلايا عديمة النواة Prokaryotes.

(٢) الترجمة الشائعة لاصطلاح Morphogenesis هى «التصوير»، لكننا نعتقد أن الترجمة إلى «تشكيل» أقدر على توصيل المعنى.

(٣) الفكر المادى الاختزالى: انظر الفصل الثامن من الجزء الثانى.

يمكن أن نوضح مفهوم التشكيل بطرح مثال يُقَرِّب لنا الصورة: كيف يمكن أن تتحول كلمات نخطها على أوراق نَصِف فيها هيئة إنسان، مهما بلغت تفاصيلها ودقتها، إلى إنسان حقيقى (من لحم ودم)! لقد أصبح من الضرورى الإقرار بأن هناك نظامًا ما «ما زال مجهولًا» هو المسئول عن هذا التشكيل. ولكن كيف؟ ما هو هذا النظام؟ ما زال مجهولًا مُطلَقًا.

المشكلة متعددة الجوانب

يواجه البيولوجيون والفلاسفة الماديون مأزقًا علميًّا فلسفيًّا لا يُحسدون عليه، وهو **مأزق ذو جوانب متعددة لم يقدموا تفسيرًا لأىٍّ منها:**

أولًا : **من أين اكتسبت المادة غير الحية الغائية** (أى أن يكون لها هدف وتَوَجُّه) حتى تصبح كائنًا حيًّا ؟

ثانيًا : من أين اكتسبت المادة غير الحية (أو حتى المادة الحية الأولية) **القدرة على التكاثر**، هذه القدرة اللازمة لاستمرار الأنواع، وكذلك لترقيها فى سلم التطور؟

ثالثًا : من أين اكتسبت المادة غير الحية **آلية التشفير ومعالجة المعلومات** المميِّزة لجميع الكائنات الحية؟

رابعًا : كيف تتحول المعلومات المكتوبة بالحبر إلى كائنات حية، عملية «التشكيل Morphogenesis».

وحتى نتصور صعوبة الموقف الذى يواجهه الماديون عند تفسير هذه المعضلات، فلنطالع آراء أقطاب البيولوجيا فى العالم :

يقول «آندرو كنول[1] Andrew Knoll» (الأستاذ بجامعة هارفارد):

إذا أردنا تقييم آخر ما توصل إليه العلم حول نشأة الحياة، وجدنا أننا:

١- ما زلنا **لا نعرف متى بدأت الحياة بالتحديد !**

٢- ما زلنا **لا نعرف تحت أى ظروف ظهرت الحياة !**

٣- ما زلنا **لا نعرف كيف بدأت الحياة على هذا الكوكب !**

(١) آندرو كنول Andrew Knoll : ولد عام ١٩٥١، وفى سن الثلاثين تولى منصب أستاذ التاريخ الطبيعى والحفريات بجامعة هارفارد. من أشهر كتبه كتاب «الحياة على كوكب حَدَث: الثلاث بلايين سنة الأولى من الحياة Life on a young planet».

هذا بخصوص الجوانب المادية لنشأة الحياة، فكيف نجيب عن التساؤلات الفلسفية الأعقد منها؟

ويقول عالم الفيزياء النووية «جيرالد شرويدر[1] Gerald Schroeder»: إن مجرد وجود الظروف الملائمة لنشأة الحياة، لا يفسر لنا كيف نشأت. نستطيع أن نقول على أحسن تقدير: إن هذه الظروف «سمحت» بنشأة الحياة على كوكبنا واستمرارها. **ولكن كل قوانين الطبيعة التى نعرفها مجتمعة لا يمكن أن تفسر نشأة الحياة من المادة غير الحية.**

ويجيب «جون مادوكس[2] John Maddox» رئيس التحرير الفخرى لمجلة الطبيعة Nature عن «تساؤل متى وكيف نشأ التكاثر الجنسى؟»، قائلًا: **لا أدرى.**

ويقول «أنطونيو لازكانو[3] Antonio Lazcano» (رئيس الجمعية الدولية لدراسة أصل الحياة): من الأمور المنطقية والعلمية التى ينبغى أن نقر بها، أن الحياة ما كانت لتنشأ دون «الآلية الوراثية Genetic mechanism»، تلك الآلية القادرة على اختزان المعلومات ونقلها إلى الأجيال التالية، مع إمكانية حدوث بعض التغيرات فيها (تطور)، **كيف اكتسبت المادة غير الحية هذه الآلية؟ لا ندرى.**

انقشاع الضباب

يُقَربنا عالم الفسيولوجيا الكبير «جورج والد[4] George Wald» (الحائز جائزة نوبل) من الحقيقة حول أصل الحياة فيقول:

بالرغم من أنها كانت صدمة لتفكيرى العلمى فى البداية، إلا أنه ينبغى أن أقر بوجود الذكاء والتصميم intelligence and design وراء بناء الكون، حتى يكون ملائمًا لظهور الحياة وتطورها واستمرارها على كوكبنا. والأعقد من ذلك، نشأة الحياة نفسها، ثم خروج

(١) جيرالد شرويدر Gerald Schroeder: أمريكى، حصل على الدكتوراه فى الفيزياء النووية والكونيات عام ١٩٦٥ من MIT. ويعمل أستاذًا بالجامعة العبرية فى القدس. وهو من المهتمين بالعلاقة بين العلم والروحانيات، ومن أشهر كتبه Science of God.

(٢) سير جون مادوكس Sir John Maddox: ولد فى إنجلترا عام ١٩٢٥. تخصص فى الفيزياء والكيمياء والبيولوجيا، وبدأ يكتب كمحرر علمى فى مجلة «الطبيعة Nature» منذ سن الثانية والعشرين.

(٣) أنطونيو لازكانو Antonio Lazcano: أستاذ البيولوجيا المكسيكى، ومن أشهر كتبه The orign of life.

(٤) جورج والد George Wald: أمريكى (١٩٠٦ - ١٩٩٧). عمل أستاذًا لوظائف الأعضاء بجامعة هارفارد. حصل على جائزة نوبل عن أبحاثه فى شبكية العين.

الكائنات الحية، التى تتدرج فى الترقى حتى تصل إلى **المخلوق العاقل** القادر على التوصل إلى الاكتشافات العلمية وابتكار الفن والتكنولوجيا وعلى طرح التساؤلات. أما إذا أنكرنا الذكاء والتصميم، وقلنا: إن الحياة قد نشأت بالصدفة، فقد اخترنا التفسير الأصعب.

وهذه هى أيضًا قناعتى: **إن التفسير الوحيد المـُرْضى عقلًا لوجود الحياة ذات الغاية، والقادرة على التكاثر والتى تحكمها آلية التشفير هو الإقرار بوجود الإله القديم الحكيم القادر.**

الفصل التاسع

سقوط الحواجز

بعد أن تَوَصَّلتُ من خلال الفلسفة والعلم إلى حتمية وجود إله خالق للكون، تبقت مشكلة «تصور» هذا الإله القديم الذى لا بداية له، والذى له من الصفات ما لم نعهده فى كوننا وفى حياتنا.

سبق أن صرحت فى كتابى «الفلسفة والإله» بعدم قدرتى على تصور «الإله الذى يقول به المتدينون، بكونه الروح، غير المادى، كلى الوجود Incorporeal omenipresent spirit». إذ إننا اعتدنا النظر إلى الإنسان باعتباره لحمًا ودمًا (كما يقولون)، لذلك فإن تصور: موجود عاقل لا جسم له، يتساوى مع قولك: إنسان ليس إنسانًا. وإذا كان ضروريًّا الحديث عن إنسان لا جسم له، سيكون علينا أولًا أن نعيد تعريف الإنسان.

اكتمال صورة الإله

خلال ثمانينيات وتسعينيات القرن العشرين، قاد الفلاسفة التحليليون[1] حركة بعث دينى لإثبات إمكانية - بل وحتمية - وجود الخالق غير المادى، كلى الوجود، الموجود خارج الزمان وخارج المكان، وركزوا فى براهينهم على التغلب على عقبة العجز عن تصور هذا الإله.

(١) الفلسفة التحليلية: التحليل: هو فك أو رد الموضوع الذى نتناوله بالبحث إلى مصادره أو عناصره الأولية.
والفلسفة التحليلية: هى عملية تذليل الغموض فى أمر مركب، عن طريق توجيه الانتباه إلى الأجزاء المتعددة التى يتركب منها. وهى من شقين: التحليل المنطقى ومن رواده برتراند راسل، والتحليل اللغوى الذى أشرنا إليه فى الفصل الأول.

الإله غير المادى

يُعَرِّف «توماس تراسى[1] Tomas Tracy » الموجود العاقل (بشرى أو سماوى) بأنه موجود قادر على التصرف بقصد وإرادة. وإذا كان الإنسان يندرج تحت هذا التعريف، فإن **ذلك لا يعنى أن كل وجود له قصد وإرادة ينبغى أن يكون مجسدًا كالإنسان**. ومن ثَمَّ، **فعدم تجَسُّد الإله لا يلغى اتصافه بالقصد والإرادة، بل والقدرة على إيجاد جميع الموجودات فى الوجود.**

ويضيف تراسى، أنه إذا كان الإله غير المجسد، حيًّا كلى الإرادة كلى القدرة، **فطبيعى ألا تكون حياته وإرادته وقدرته كحياتنا وإرادتنا وقدرتنا، وكذلك تكون محبته وحكمته وحلمه وباقى صفاته**. وبالرغم من أن هذه النظرة تعيننا على فهم الصفات الإلهية، فما زال فهمنا لهذه الصفات وللذات الإلهية التى وراءها قاصرًا للغاية.

الإله خارج المكان وخارج الزمان

يقول «برين ليفتو[2] Brain Leftow» فى كتابه «الزمن والخلود»: إن مفهوم الإله، الموجود خارج الزمان وخارج المكان، **يتمشى مع نظرية النسبية الخاصة**. فالنسبية الخاصة تنظر إلى الوجود باعتباره رباعى الأبعاد، واعتبار أن الزمن يمثل بعده الرابع [3]، ومن ثَمَّ فالإله الذى لا يحده المكان ينبغى أن يكون خارج الزمان.

ويعيننا إدراكنا لوجود الإله خارج الزمان على التوصل إلى الكثير من صفاته. فوجوده خارج الزمان يعنى أنه لا ينسى، فنحن ننسى ما حدث فى الماضى، والإله لا ماضى عنده. ويعنى ذلك أيضًا أنه لا يتوقف عن الفعل، فالتوقف عن فعل ما يعنى انقضاء زمن هذا الفعل، وهكذا....

---

(١) توماس تراسى Tomas Tracy : أستاذ الديانات بجامعة Bates فى Maine، أشهر كتبه:

God, Action and Embodiment

The God who Acts

(٢) برين ليفتو Brain Leftow : أستاذ فلسفة الأديان فى أكسفورد، خلفًا لريتشارد سوينبرن.
من أشهر مؤلفاته :

Divine Ideas

Necessary being and concept of god

Time and Eternity

Can philosophy Argue god's existance

(٣) الأبعاد الأربعة: ثلاثة أبعاد مكانية، وهى أعلى وأسفل، يمين ويسار، أمام وخلف. ثم الزمن كبعد رابع.

كذلك قـــولنا بأن الإله خـــارج الزمـــان، يعنى أن كل شـىء يفعله، فإنه يفعله لحظيًّا at once, in a single act فهو لا يفعل شيئًا قبل شىء، ولكن قد تظهر لنا بعض أفعاله قبل البعض الآخر[1].

فـإرادته وفعلـه فى أن تشـرق الشـمس، مثـلًا، يتبعـها أن تشـرق اليـوم وغـدًا وبعـد غـد وهكذا...

الإله الخَيِّر، ومعضلة الشر والألم ...

لا شك أن معضلة الشر والألم (التى كانت وراء اتجاهى إلى الإلحاد) تُعتبر مشكلة لها وزنها عند الفلاسفة. لكننى أيقنت أن **عدم فهم هذه المشكلة لا ينبغى أن يلغى القناعة بوجود الإله،** بعد أن أثبتت البراهين الفلسفية والعقلية والعلمية ذلك الوجود. إن وجود الشر والألم فى حياة البشر **له علاقة بصفات الإله، وليس بوجود الإله أو عدمه.**

وقد أدركت بعضًا من الحكمة بخصوص هذه القضية عندما **أيقنت بتمتع الإنسان بحرية الاختيار** التى تميزه عن الحيوان والنبات والجماد. تلك الحرية التى تسمح لنا أن نقبل أو نرفض فكرة وجود الإله، وأن نسعى لمرضاته أو لا نبالى بذلك، لذلك تَـحَـتَّم وجود الخير والشر لنختار بينهما.

إن حرية الاختيار سلاح ذو حدين؛ إذ يمكن للإنسان أن يختار الشر، وذلك يتطلب أن نحدد صفات العالَـم الذى نعتقد أنه خَيِّر:

ينظر **الماديون** إلى الخير من منظور ما يحققه الأمر من فائدة. فالثراء والسفر السريع عبر القارات وزيادة متوسط عمر الإنسان ينبغى أن تكون من مقاصد الإنسان.

بينما يعتبر **المتدينون** أن الخير هو ما يحقق القرب من الله، ولا يلغى ذلك بالطبع أهمية تحقيق الفائدة.

كذلك تقابل **الفلاسفة** صعوبة كبيرة فى تعريف وتفسير قيم الخير والحق والجمال.

من ذلك نرى **أن معضلة الخير لا تقل صعوبة ـ بل ربما تزيد ـ عن معضلة الشر.**

(١) عبر علماء العقيدة الإسلامية عن ذلك المعنى بقولهم: «أمور يبديها ولا يبتديها».

وينقسم الشر إلى نوعين، نوع من كسب الإنسان، ويعود إلى ما يشوب النفس البشرية من نقائص. فالإله ترك المجتمعات لإرادة وفعل واختيار الإنسان، الذى كثيرًا ما يُنزل بأخيه الضُر والأذى والألم.

وهناك شر لا دخل للإنسان فيه، كالزلازل والفيضانات والأمراض. وقد أمكننى أن أستوعب وقوع هذه الشرور داخل منظومة الإله الخَيِّر، من خلال بعض التفسيرات:

١ - أن الطبيعة بها من القوانين ما يسمح بحدوث الزلازل والأعاصير وغير ذلك من الكوارث، وفى الوقت نفسه، لا يمكن ترك الطبيعة دون هذه القوانين، وإلا لخضع الوجود للفوضى والعشوائية. أى أننا نعيش فى إطار السبب والنتيجة لهذه القوانين الطبيعية.

٢- تدفع هذه التحديات الطبيعية الإنسان إلى بذل الجهد لمواجهتها، مما أدى إلى ترقٍّ مادى وتقدم حضارى ملحوظ.

٣- يؤدى ما يواجهه الفرد من هذه الابتلاءات إلى ترقٍّ روحى وقِيَمى، نستشعره عند مواجهة المحن.

٤- لا شك أن منظور الديانات فى الحياة بعد الموت، وما يحققه صبر الإنسان على الابتلاء من ثواب وترقٍّ فى الحياة الأخرى، هو التفسير الأكمل لمعضلة الشر والألم.

وفى النهاية أتساءل، هل الحياة الخالية من الشر بالشكل الذى نتخيله سترضى الإنسان؟ إن كل تصور وضعه الفلاسفة للمدينة الفاضلة يشوبه عدد من النقائص، ويدفع الفلاسفة للبحث عن نمط أفضل.

ثم ماذا بعد ؟

أكرر: إن رحلتى إلى الإله كانت رحلة عقلية صرفة. لقد تتبعت البرهان إلى حيث قادنى، فقادنى هذه المرَّة إلى الإله الحى المكتفى بذاته، الأزلى الأبدى غير المادى، كلى الوجود، كلى العلم، كلى القدرة.

لذلك ما أحوجنا إلى المزيد من «المعرفة» عن الإله! ثم ما أحوجنا إلى «التواصل» معه.

عودة إلى القصة الرمزية، عن الرجال الذين عثروا على الهاتف المحمول على شاطئ جزيرتهم. إذا كانت القصة قد انتهت برفض العلماء لتأويل حكيم الجزيرة للموقف، ورفضهم لدعوته للبحث والتواصل مع الآخرين، فلنتصور للقصة نهاية أخرى:

تُرى ماذا لو اقتنع العلماء بتأويل حكيم الجزيرة، وَجدُّوا فى البحث عن الأذكياء الذين اخترعوا هذه الآلة؟ ماذا لو هَمَّ بعض العلماء بفك شفرة الأصوات التى استمعوا لها؟ لا شك **أن حياتهم ستكون مختلفة، ونظرتهم للعالم ستكون مختلفة**. سيعرفون أنهم ليسوا وحدهم، بل ربما نجحوا فى التواصل مع هؤلاء الآخرين.

إذا كانت رحلة الفلاسفة العقلية ورحلة العلماء البحثية قد توصلت إلى القول بالإله الحكيم القادر، **فلا مانع عندى من تَقَبُّل فكرة أن يكشف الإله عن نفسه لمخلوقاته من خلال الوحى وإرسال الرسل، إذا وجدت الدليل على ذلك.**

هناك من يقول: إنه قد نجح فى التواصل مع الإله، بينما لم يحدث ذلك لى بعد. ربما يأتى اليوم الذى أسمع فيه من ينادينى: «الآن هل تسمعنى؟»!!

الخاتمة [1]

يقوم الرفض الذى يتبناه المنكرون للإلوهية، منذ قديم الزمان، وحتى ظهور الإلحاد الجديد، على نفس الدعائم والأسس. وبالإضافة إلى ذلك، يعتقد الكثيرون أن الحضارة المادية والعلم الحديث قد قدما صورةً متكاملة للوجود (الكون والحياة والإنسان) ليس للإله فيها مكان.

والحقيقة عكس ذلك؛ فقد طرح العلم، ابتداءً من النصف الثانى للقرن العشرين، عددًا من الظواهر التى أعجزت الملاحدة، وأهم هذه الظواهر:

- المنطقية فى بنية وعمل كل ما يحيط بنا فى الوجود Rationality.
- الحياة Life.
- الوعى Consciousness.
- التفكير Thinking.
- إدراكنا لذواتنا The Self.

البراهين قريبة منا

نحن لا نتحدث هنا عن احتمالات وفرضيات، ولكن نتحدث عن حقائق يؤدى إنكارها إلى الكثير من التضارب فى نظرتنا لأنفسنا وللوجود من حولنا. لذلك نقول: إن الإلحاد لا ينشأ عن غياب الشواهد، ولكن ينشأ من رفض الملاحدة لأن يتأملوا أنفسهم والدائرة القريبة المحيطة بهم.

(١) كتب الخاتمة روى أبراهام فارجيس، وهو الذى كتب أيضًا المقدمة. وهو مؤلف كتاب «أعجوبة الوجود The wonder of the world». والتعريف به فى هامش صفحة رقم (٣٠).

مـن أجـل أن تدرك إلى أى مـدى تكون **الشـواهد على الألوهـية لصـيقة بنـا**، فلتجـر هـذه التجربة:

فكر لدقيقة واحدة فى المنضدة الرخامية المقابلة لك، هل تتصور أنه من الممكن خلال مليار عام أو خلال فترة لا حدود لها، أن تكتسب هذه المنضدة عقلًا يجعلها واعية بها يحيط بها، ومدركة لذاتها على الشكل الذى ندرك به ذواتنا؟ لا شك إننا ببعض المعرفة بطبيعة المادة وقوانينها نجزم باستحالة ذلك.

لكنَّ **للملاحدة رأيًا آخر**. إنهم يعتقدون أن فى لحظة ما من الماضى **دبت الحياة** فى بعضٍ من المادة غير الحية، **ثم أصبحت واعية، ثم اكتسبت القدرة على أن تفكر**، وأن تدركَ **ذاتـها**، وتقول: **«أنا»!**

لقد تجمع لدى البشرية خلال الثلاثة قرون الأخيرة، كمٌّ هائلٌ من المعلومات، لم يكن ليخطر على بال أسلافنا، وبعد أن كانت معارفنا القليلة تتضاعف كل مائتى سنة، صارت تتضاعف كل سنة.

من هذه المعارف، التوصل إلى بعض العلاقات بين المادة الوراثية والدوائر المخية العصبية، وبين الحياة والوعى والتفكير وإدراكنا لذواتنا. وبالرغم من أننا أصبحنا نفهم عن الجانب المادى لهذه الظواهر أكثر كثيرًا مما كنا نفهم قبل ذلك، **فإن العلم لم يضف شيئًا بخصوص حقيقة هذه الظواهر الأربع ومصدرها.**

وبالرغم من أن **العلماء الملحدين ينظرون إلى هذه الظواهر باعتبارها نتاجًا مباشرًا للمادة**، إلا أننى لا أتصور أن فهمى لهذا الكتاب، أو إدراكى لمفاهيم كالحرية والعدل والمساواة (مثلًا) ليس إلا نبضات كهربائية.

لا شك أن **الفحوصات الحديثة تُظهر نشاطًا كهربائيًا** فى بعض مناطق المخ عند ممارسة العمليات العقلية، ولكن اعتبار أن هذا النشاط هو المسئول عن التفكير يشبه تمامًا القول: إن مفهومًا «كالعدالة» مسئولة عنه نقطة الحبر التى كُتِبَت بها هذه الكلمة.

* * *

أولاً: المنطقية Rationality[1]

مَن خَلَق الإله؟

يتساءل الملاحدة: إذا كان الإله قد خلق الوجود، فمَن خلق الإله الذى يقول به المتدينون؟

عندما يطرح الملاحدة هذا التساؤل، فإنهم يتفقون مع المؤمنين فى أن كل موجود لا بد له من موجد. لكنهم يتجاهلون أن الأمر يتسلسل حتى نصل إلى الموجد الأول الذى لا يمكن أن يكون له موجد. ولحتمية وجود هذا الموجد الأول أطلق عليه الفلاسفة اصطلاح «واجب الوجود».

إذن، فالسؤال «من أَوْجد هذا المُوجِد؟» سؤال خطأ من الناحية العقلية، فقد وصفنا واجب الوجود بأنه الموجد الأول الذى لا موجد له، إنه موجود دائمًا، أى أزلى بلا بداية.

وإذا طرحنا التساؤل بألفاظ أخرى وقلنا، مَن خلق الخالق؟ فسينكشف الخطأ العقلى بشكل أكبر، فنحن لا نتحدث عن مخلوق بل نتحدث عن الخالق الأول.

اختَرْ...

علينا أن نختار موجودًا قديمًا أزليًّا لا مُوجد له، إما الإله وإما الكون.

فإذا اخترت الكون (كباقى الملاحدة)، عليك أن تقبل بوجود كون مادى أزلى قديم لا موجد له، ولا تسأل لذلك عن تفسير.

أما إذا اخترت الإله موجودًا أزليًّا، لا نملك لوجوده تفسيرًا، فإنى أرى أن ذلك أمر منطقى، ذلك لمحدودية قدراتنا العقلية وعجزها عن إدراك حقيقة الإله. وليس ذلك بغريب، خاصة وأننا عاجزون عن إدراك حقيقة أنفسنا.

من الإله إلى الوجود...

بعد أن أدركنا ـ عن طريق المنطق العقلى ـ ضرورة وجود «واجب الوجود»، يمكن أن ننتقل إلى مستويات أدنى من المنطقية تتجلى فى الوجود كله.

(١) للمزيد عن هذا المفهوم، انظر الفصل الأول (البرهان الكونى فى الميزان) من الجزء الثانى من الكتاب.

فالكون تحكمه قوانين الطبيعة المنضبطة، التى وصف «أنتونى فلو» دلالتها فى الفصل السادس، فمن أين أتت قوانين الطبيعة بهذا الانضباط (المنطقية)؟

مستوى ثالث للمنطقية: إذا نظرنا إلى آلية التطور التى أخرجت لنا هذا الكم الهائل من الكائنات الحية، سنجد أن التطور (الذى يحتج به الملاحدة تعسفًا) يحكمه قدر عظيم من المنطقية.

فهناك الشفرة الوراثية القابلة للتعديل، بحيث تسمح بحدوث التطور، وهناك القوانين الطبيعية التى توجه الشفرة الوراثية، وهناك آلية الانتخاب الطبيعى التى تحافظ على الصفات الجديدة الجيدة.

ونصل بالمنطقية إلى مستوى العقلاء من البشر، فنراها تصبغ فكرهم وسلوكهم.

إن المنطقية موجودة فى كل جزئية من الوجود، فما مصدرها؟ هل الإله مجرد افتراض اضطررنا للقول به، عندما واجهنا حتمية الإقرار بواجب الوجود، أم تراه حقيقة واقعة هى مصدر كل ما فى الوجود من منطقية؟

الملاحدة يرفضون المنطقية

يطرح الملاحدة عددًا من وجهات النظر، الأقرب إلى السخرية، ليفسروا بنية الكون وما فيه من قوانين طبيعية منطقية.

من هذه التفسيرات ما طرحه الملحد المشاغب الفيزيائى «فيكتور ستينجر[1]»، من أن ما نسميه قوانين الطبيعة لا تحتاج لخالق، وأنها لا تقوم بتوجيه حقيقى لسلوك المادة. إنها تقييدات اضطر الفيزيائيون إلى القول بها عندما حاولوا توصيف سلوك المادة بطريقة رياضية! أى أن **قوانين الطبيعة ليس لها وجود حقيقى وأنها من وضعنا نحن.**

ولاستكمال التهرب من الإقرار بوجود عقل منطقى جبار وراء ما فى قوانين الطبيعة من منطقية، ووراء نشأة الكون من عدم، لجأ ستينجر إلى خداع مارسه الكثير من الفلاسفة القدماء

(١) فيكتور ستينجر Victor Stenger: أستاذ الفيزياء الأمريكى بجامعة هاواى، وُلد عام ١٩٣٥. من المعارضين لمفهوم التصميم الذكى، من أشهر كتبه Not by Design. يؤمن بأن العلم سيتوصل إلى الأصل المادى للعقل الإنسانى، دون الحاجة إلى إرجاع ذلك لمصدر غير مادى.

والمحدثين. لقد اعتبروا أن العدم شيء Nothing is Something، وأن الوجود قد نشأ تلقائيًّا من هذا الشيء الذى هو العدم! أرجوك، لا تظن أننى أَسْخَر، هذا ما قالوه بالفعل!!

لقد فات ستينجر وزمرة الملحدين، أن العدم يعنى لا طاقة، لا مجالات فيزيائية، لا قوانين، لا فراغ ينشأ فيه الكون، لا بُعدًا ماديًّا أو عقليًّا من أى نوع . إن العدم عدمٌ مُطلق Absolute Nothingness، لا يمكن أن يُنشئ شيئًا، حتى لو أُعطى وقتًا لانهائيًّا، فى الحقيقة العدم ليس فيه وقت.

ومن ثَمَّ، فإن ما أثبته العلم من أن طاقة الكون عند نشأته كانت صفرًا يؤكد الاحتياج إلى عقل منطقى جبار خالق يخرجه، بكل ما فيه من انضباط من العدم المطلق، ولا ينفى الاحتياج إلى الإله.

التعقل نعم، التصور لا[1]:

أُنهى هذا العرض لمفهوم المنطقية، باعتراض طرحه صديق. قال: لقد اقتنعت تمامًا (عن طريق المنطق العقلى) بضرورة وجود الإله الأزلى واجب الوجود، لكنى ما زلت عاجزًا عن «تصور» موجود لا موجد له.

قلت له، سببُ ذلك أننا دائمًا عاجزون عن «تصور» أى شىء يختلف عما اكتسبناه فى خبراتنا العملية، ونحن لم نقابل فى حياتنا موجودًا لا موجد له؛ وهذا هو سبب العجز عن تصور واجب الوجود.

والعجز عن التصور يقابلنا فى أمور أخرى كثيرة، فهل تتصور مثلًا أن خيط الدنا DNA (المادة الوراثية) الموجود فى نُوَيَّات خلايا جسمك يمكنه أن يقطع المسافة من كوكب الأرض إلى الشمس أكثر من خمسة ملايين مرة، إن الحسابات الرياضية تثبت ذلك، أى أن المنطق العقلى يثبت ذلك، بالرغم من العجز عن التصور.

* * *

(١) هذا الجزء لمؤلف كتاب رحلة عقل .

ثانيًا: الحياة Life

يُعتبر تعريف الحياة، من أشكل الأمور التى تواجه العلماء والفلاسفة، شأنها شأن العديد من الظواهر التى تُعَرَّف من خلال دراسة سماتها. لذلك نكتفى بأن نقول أن الكائن الحى ينبغى أن تتوافر فيه سمات ثلاث:

- موجود له هدف Goal Seeker ، كالمحافظة على النوع والبحث عن الغذاء.
- موجود يتكاثر ذاتيًا Self Replicator.
- موجود يستمد وجوده من منظومة شفرية (Coding System) تتحكم فى نشاطه الكيميائى.

إننا ما زلنا فى جهل مطبق بخصوص كيف اكتسبت المادة غير الحية هذه السمات حتى تنتج الخلية الأعجوبة الأولى، التى تطورت عنها باقى الكائنات الحية.

وفى الحقيقة، لا يوجد ما أضيفه على عرض أنتونى فلو (فى الفصل الثامن) لنشأة الحياة ودلالتها على الإله الخالق؛ لذا سأكتفى بأن أعرض وجهة النظر المقابلة لإمام الملاحدة الـجُـدد ريتشارد دوكنز، لنرى مدى تهربه، وتهافت استدلالاته وعجزها عن طرح أى تصور علمى حقيقى، بخصوص معضلة نشأة الحياة.

يقول دوكنز، فى مناسبات مختلفة:

- بدأت الحياة نتيجة حدوث تفاعلات كيميائية، أدت إلى توافر الظروف الحيوية التى سمحت بالانتخاب الطبيعى!
- ما إن تَكَوَّن الجزىء الوراثى الدنا DNA، حتى بدأ التطور بالانتخاب الطبيعى!
- كيف حدث هذا؟ يؤمن العلماء بالقدرة السحرية للأرقام الكبيرة (عدد الجزيئات، والزمن الممتد) على إنتاج أى شىء!
- كل ما نحتاجه جزىء سحرى وفسحة من الوقت!

ألا ترى معى أنه بهذا الهُراء السحرى يمكن لأى شىء أن يحدث فى أى مكان.

ثالثًا: الوعى Consciousness

يقوم الإنسان بست وظائف عليا أساسية، وهى: الوعى، والتفكير، والذاكرة، واللغة، والمنطق، والقدرة على الحكم على الأشياء. وقد تعارف المتخصصون على تسمية هذه الوظائف: **العقل**.

والمقصود هنا بالوعى، هو **أن ندرك ما نقوم به، وما يدور فى عقولنا، وما نرصده من حولنا**[1].

وكما لم يجرؤ الماديون على أن ينكروا الفوارق الجوهرية بين الكائنات الحية وبين المادة غير الحية، فإنهم لم ينكروا **أننا كبشر نعى ونُدرك، ونُدرك أننا نُدرك**، وأن **ذلك يعتبر فرقًا جوهريًّا بيننا وبين باقى الكائنات الحية**.

المخ والوعى ...

عندما توصل العلم إلى معرفة بنية وآلية عمل الخلية العصبية، ظهر حجم المأزق الذى يواجهه الماديون. **فصفات الخلية العصبية، البيولوجية والفيزيائية والكيميائية، لا تشير على الإطلاق إلى إمكانية أن يتمخض عنها شىء كالوعى والإدراك**. كذلك فإن الخلية نفسها التى يصاحبها وعى وإدراك عندما توجد فى **القشرة المخية**، لا يصاحبها وعى وإدراك إذا وُجِدت فى مكان آخر من الجهاز العصبى (جذع المخ أو الحبل الشوكى مثلًا) .

ويشرح «سام هاريس[2] Sam Haris» **طبيعة الوعى المتجاوزة للمادة** فيقول:

إن بنية المخ وأسلوب أدائه لوظيفته، لا يمكن أن يفسرا كيف تتحول النبضات الكهربائية والناقلات الكيميائية التى يمارس بها المخ وظائفه الحركية والحسية، إلى العمليات العقلية التى

(١) خير طريقة تُقَرِّب إلينا معنى الوعى، هو أن نقارن بين نشاطنا العقلى أثناء النوم ونشاطنا عندما نستيقظ ونسترد وعينا.

(٢) سام هاريس Sam Haris: باحث وكاتب أمريكى درس الفلسفة فى جامعة ستانفورد. ويجرى أبحاثه للدكتوراه حول استخدام الرنين المغناطيسى لدراسة الخلفية البيولوجية للإيمان والإلحاد.

من أشهر كتبه: «نهاية الإيمان The end of faith» صدر عام ٢٠٠٤، و«خطاب إلى أمة مسيحية Letter to a Christian nation»، صدر عام ٢٠٠٦ .

نعهدها كلنا. إن ذلك يدفعنا إلى الإقرار بأن العقل ليس نتاجًا مباشرًا للمخ المادى، ومن ثم يدفعنا إلى البحث عن مصدره الغيبى.

ويضعنا عالم الفيزياء «جيرالد شرويدر Gerald Schroeder» أمام مفارقة صارخة، حين يشير إلى أننا إذا نظرنا إلى دقائق البنية المادية للأشياء فلن نجد فرقًا يذكر بين مخ أينشتين وبين حفنة من الرمال، فكلاهما يتركب من ذرات تتكون من نفس البروتونات والنيوترونات والإلكترونات.

الملاحدة والوعى

وبالرغم مما اكتشفه العلم عن الطبيعة المعجزة للوعى، فما زلنا نرى قلة باقية تتنكر لهذه الحقيقة الواضحة. فلنقرأ منظور الملحد المتفلسف «دانييل دينيت[1]» حول الوعى:

لا شك أن الآلات يمكن أن تعى، والدليل على ذلك أننا آلات واعية!! كذلك لا ينبغى أن نعطى للنشاط العقلى وضعًا خاصًا، فمثله مثل الوظائف الأخرى، كالشعور بالألم والجوع والعطش، فكل منها نشاط يحدث فى مكان من المخ مخصص لها. وكما يقوم الكمبيوتر بنشاط عقلى!! فلا داعى لإعطاء النشاط العقلى الذى يقوم به الإنسان سمة خاصة، تتجاوز قوانين الفيزياء التى يخضع لها الكمبيوتر.

سندع الرد على هذا الهراء لأحد الفيزيائيين الكبار من أصدقاء بينيت، وهو جون سير، إذ يقول متهكمًا عليه: «لا شك أن العمليات العقلية التى يقوم بها الإنسان تختلف تمامًا عن أنشطة المخ الأخرى، كما لا تخضع مطلقًا للقوانين الفيزيائية. إن من ينكر ذلك ليس فى حاجة لمقارعة الحجة بالحجة ولكنه فى حاجة لعلاج نفسى».

إن من ينكر الوعى يسقط فى تعارض مُهلك مُخجل؛ إذ إن إنكاره للوعى يتطلب أن يعى القضية التى ينكرها!

لذلك لم يملك بعض الماديين فكاكًا من الاعتراف بعجزهم أمام قضية العقل والوعى. فهذا دوكنز نفسه يقول ذات مرة: إنه من الصعب جدًّا تفسير طبيعة وعى الإنسان ومصدره،

(١) دانيال دانيت Daniel Dennett : أستاذ الفلسفة الأمريكى ببوسطن، وُلد عام ١٩٤٢. من المهتمين بفلسفة العلم والعقل، وعلاقتهما بالتطور.

أرجوكم اقذفوا الكرة بعيدًا عنى إلى ملعب الآخرين. وهذا زميله المتفلسف المادى وولبرت يقول: لقد تحاشيت متعمدًا الخوض فى أى مناقشة حول الوعى.

أين هذا التملص من صدق وأمانة أنتونى فلو فى أن يتبع البرهان إلى حيث يقوده .

* * *

رابعًا: التفكير Thinking

إذا كان الوعى هو أن ندرك ما نقوم به وما يدور فى عقولنا ومن حولنا، فإن «التفكير» هو أن نفهم ما ندركه ونعيه، وللفهم مستويات عديدة.

فمن مهام التفكير العجيبة، القدرة على اكتشاف الاختلاف بين معانٍ متقاربة، وكذلك اكتشاف الاتفاق بين معانٍ متباعدة، والخروج من هذه وتلك بتعميمات يسميها الفلاسفة: مفاهيم Concepts.

لماذا يعتبر الصبى أن كلبه عنتر ضخم الجثة قوى البِنْية أسود الشعر ذا الفكين القويين، وكلب جارته اللولو الصغير أبيض الشعر المدلل الرقيق ـ من فصيلة واحدة هى فصيلة الكلاب؟

كيف تستطيع أنت أن تفكر فى اللون الأحمر كلون مجرد، دون أن تضطر إلى التفكير فى شىء أحمر اللون؟ بل إنك تستطيع أن تفكر فى مفاهيم ليس لها وجود مادى ملموس، مثل العدالة والحرية.

نحن نمارس تلك القدرة بشكل فطرى، التى لا تحتاج إلى جهد كبير أو تدريب.

التفكير والمخ

هل شعرت أثناء التفكير أنك أنت الذى تفكر، وليس مخك هو الذى يفكر؟! إن الأمر يختلف عن تحريك أصابع يدك، الذى تشعر معه أن يدك تقوم بوظيفة ما. وإذا كان المخ يُعين على التفكير، فليس معنى ذلك أن الفهم يتم فيه، لمجرد أنك شَغَّلت بعض الخلايا العصبية، وسمحت لها بأن تنقل نبضاتها الكهربائية إلى خلايا أخرى مجاورة.

وحتى تدرك طبيعة التفكير، فكر فى أمر مثل دعوة بعض الأصدقاء إلى طعام العشاء، سيقفز إلى ذهنك العديد من التساؤلات، مَن سأدعو؟ متى؟ أين؟ ماذا سأقدم لهم؟... هل أحسست أن تَدَبُّر هذه الأمور عملية مادية، كالمشى وصعود السلالم ؟

كذلك إذا كنا نستخدم **اللغة** فى الحديث وفى الكتابة والقراءة، فإن اللغة هى **وسيلتنا التى نفكر بها**، وليست هى التفكير نفسه. تمامًا مثلما أننا نلعب الشطرنج باستخدام رقعة الشطرنج وقِطَعه الاثنين والثلاثين، أما الخطط والقرارات وفهم مناورات الخصم، فشىء آخر.

إذا فهمنا هذه الأمور، أدركنا أن التفكير شىء يتجاوز الآليات المادية، وإن كان فى معظم الأحيان **يحتاج (كمادة خام) لمعلومات تقدمها لنا حواسنا المادية** (السمع - البصر - اللمس...).

نحن والكمبيوتر ...

ترجع معظم المفاهيم الخاطئة عن تفكير الإنسان، **إلى تشبيهه بأداء الكمبيوتر**. لنُزيل هذا اللبس، دعنا نقارن بين التفكير وبين أداء الكمبيوترات هائلة القدرة، مثل كمبيوتر الجين الأزرق Blue Gene الذى يقوم بأكثر من مائتى تريليون عملية حسابية فى الثانية.

إن أول خطأ نقع فيه، هو أننا **نعتبر أن للكمبيوتر ذاتًا أو كيانًا مستقلًّا**، كالبكتريا أو الفراشة مثلًا، فلهذه الكائنات الحية **هدف أسمى** تعمل من أجل تحقيقه جميع أجهزة ومكونات الكائن، وهو المحافظة على بقائه وعلى استمرار نوعه من خلال التكاثر. أما الجين الأزرق فهو مجموعة من الأجزاء جمعها صانعها ونسق بين أدائها، ليقوم الجهاز بوظائفه التى يحددها الصانع، **دون هدف محدد** يدركه الجهاز. أى **أن الكمبيوتر لا اعتبار له دون صانعه ومبرمجه**، أى ليس له كيان مستقل.

الخطأ الثانى، هو أن الكمبيوتر **لا يدرك ما يفعل** عند قيامه بعملية معينة. فعمليات الكمبيوتر (بالنسبة للجهاز) مجرد نبضات ودوائر كهربائية تستخدم رمزين (الصفر والواحد). وحتى الآن لم يتجرأ الماديون أن يَدَّعوا أن الكمبيوتر يدرك ما يقوم به من وظائف.

الخطأ الثالث، أنه إذا كان **لعمل الكمبيوتر مردود له معنى بالنسبة لنا** (كأن نعرف عن يقين أننا على شفا الإفلاس، بما لذلك من عواقب نفسية واجتماعية، بعد أن أظهر الكمبيوتر أن حسابنا فى البنك كذا) فلا معنى لهذه المخرجات بالنسبة للكمبيوتر، الأمر كله نظام رقمى يتكون من مجموعة من الأصفار ومجموعة من الواحدات.

إذن، فنحن نفعل ما نفعله عن قصد Intention.

ونحن مدركون لما نفعل Awareness.

ونحن فاهمون لما نفعل Understanding.

هل ترى شبهًا بين تفكيرنا وبين العمليات الحسابية التى يقوم بها الكمبيوتر؟! إن ادعاء أن كمبيوتر الجين الأزرق يعقل ما يفعل، تمامًا كالادعاء بأن جهاز DVD Player يفهم ويستمتع بالموسيقى والأغنيات والأفلام التى يذيعها!!

* * *

خامسًا: إدراك الذات The Self

من المفارقات الساخرة والمؤلمة فى الوقت نفسه، أن أكثر الظواهر التى يتجاهلها الملاحدة، هى أقربها إلى أنفسهم، إنها إدراكهم لذواتهم.

يقول قطب الإلحاد ديفيد هيوم:

كلما اقتربتُ أكثر وأكثر مما أسميه «نفسى»، لا أجدنى منفصلًا عن إدراكاتى وملاحظاتى، حتى إننى أجزم بأنه ليس لى وجود مستقل يقوم بالإدراك والملاحظة، وأجزم أنه ليس هناك إلا الإدراك والملاحظة.

إن هيوم ينكر ذاته، لأنه - ببساطة - لا يستطيع أن يضع يده عليها.

وعندما سُئل «من» الذى يُدرِك هذه المدرَكات والملاحظات عن العالم الخارجى، وتجعلنا نستشعر أننا فى منزلة المراقِب لهذا العالم. مَنْ الذى يدرك أن ما يحيط بنا هو سوانا، الذى يمكن أن يتبدل، بينما نبقى نحن لنرصد هذا التبدل ونطرح هذه الأسئلة.

أجاب هيوم، إن ذاتى هى أفكارى ومشاعرى وملاحظاتى، وليس هناك ذات غير ذلك!!

لا شك أن «الذات» هى أكبر عقبة تواجه الفلاسفة الماديين، وأن إنكارها تواجهه عقبات كبيرة. وعندما سَأل أحدُهم كيف تثبت أن لى ذاتًا؟ فوجئ بإجابة واحدة تنهال عليه من كل الجهات، ومَن السائل؟!

انتهى عرضنا لرأى الماديين، والآن هيا نتأمل ذواتنا:

عندما نقول «أنا» (ضمير المتكلم) أو هذا الشىء ملكى (الياء، مضاف إليه) أو هذا الرجل ضربنى (الياء، مفعول به)، ثم نتفكر فى هذه المواضع الثلاث التى تشير إلينا، سنجد أنفسنا فى مواجهة واحد من أعجب وأمتع الألغاز، إنه وجودنا وذاتنا.

إن ذواتنا هى حقيقتنا وليست شيئًا نملكه، وبالتالى فإن كل شىء يعود إليها. وإذا كان من المستحيل أن نضع أيدينا عليها، فإن ذلك يرجع إلى أنها **ليست وجودًا ماديًّا أو حالة عقلية أو معنوية** بحيث يمكن ملاحظتها ووصفها.

إن ذاتنا هى أكبر حقيقة نعيها جميعًا، **إنها نحن**. ولا شك أن إدراكنا لذواتنا هو أساس إدراكنا للوجود من حولنا، وللأفكار والقضايا الفلسفية الرئيسية فى عقلنا.

وإذا كان ديكارت يقول: «أنا أفكر، إذن أنا موجود»، نستطيع أن نقلب المفهوم ونوسِّعه: **أنا موجود**، إذن أنا أفكر - أعى - أقصد - أعزم - أتفاعل.

إن ذاتنا شىء نستشعره، لا يمكن أن نصفه، ومن باب أولى لا يمكن أن نفسره بمعطيات الفيزياء والكيمياء. لن يستطيع العلم أن يكتشف الذات، بل هى التى تكتشفه. **إذا أنكرنا ذواتنا فإن التاريخ والحاضر والمستقبل كله يصبح سرابًا غير متناسق، بل يصبح خيالًا متضاربًا متصارعًا.**

ليس لدينا دليل على أن الذات موجودة فى جزء معين من الجسم، أو فى مجموعة خلايا محددة فى المخ، فخلايا أجسادنا تتبدل ونبقى نحن كما نحن. وإذا قلنا أن معظم خلايا أمخاخنا لا تتبدل، فإن دراسة هذه الخلايا بإمعان لا توصلنا إحداها أو بعضها إلى «الأنا = الذات».

لا شك أن ذاتك ليست شيئًا ماديًّا صِرفًا، كما أنها ليست شيئًا معنويًّا صرفًا.

نستطيع أن نقول إننا **أرواح متجسدة**[1] أو **أجساد متروحنة**. لذلك لكى تكون إنسانًا له ذات، **لا بد من الجسد والروح معًا.**

وأخيرًا نقول: إن الأمر **يحتاج لإيمان أعمى بالمادة، يفوق كثيرًا إيمان المؤمنين بالإله**، حتى نتصور أن المادة غير الحية يمكن أن ينشأ عنها حياة وعقل ووعى وتفكير وإدراك للذات!

(١) المقصود بالروح هنا: وجود غير مادى، له قدرات نلمسها جميعًا. ويرى كاتب هذه الخاتمة أن الروح الإنسانية هى الذات الإنسانية.

مصدر الظواهر غير المادية

ما مصدر الظواهر الخمس التى عرضناها (المنطقية - الحياة - الوعى - التفكير - إدراك الذات)؟

إذا كانت الظواهر الفيزيائية الـمُـرَكَّبة (مثل الزلازل) يمكن أن تنشأ عن ظواهر فيزيائية بسيطة (تركيب القشرة الأرضية من صفائح + ارتفاع الضغط فى قلب كوكب الأرض + تجارب التفجيرات النووية تحت سطح الأرض + ...)، فإن هذه الظواهر الخمس تختلف تمامًا عن الظواهر الفيزيائية المركبة والبسيطة.

وإذا كان الماديون التطوريون يشرحون لنا كيف أصبحت السمكة ضفدعة، وكيف اكتسبت الديناصورات الصغيرة ريش الطيران، فإنهم لا يملكون لنشأة هذه الظواهر الخمس شرحًا ولا تفسيرًا.

إنها ظواهر غير مادية، ومن ثَمَّ فإن التفسير الذى يمكن أن يجمع هذه الظواهر هو أنها استمدت وجودها من وجود أعلى، وجود غير مادى يتمتع بنفس الصفات، خالق حى مدرك مفكر منطقى، إذ إن فاقد الشىء لا يعطيه.

القارئ الكريم ...[1]

وتظل جوانب أخرى من القضية مطروحة أمام الفلاسفة والعلماء، منها:

هل الحياة والعقل والذات موجودات غير مادية متحيزة فى الجسد، أم أنها توجد خارجه ولها اتصال به؟

من أجل أن نوضح هذا التساؤل، فلننظر إلى طاقة الشمس. فالحياة فى كوكبنا مُستَمَّدة من الشمس، لكن الشمس ليست متحيزة فى كوكب الأرض، إنها بعيدة، وفى الوقت نفسه تمدنا بالطاقة اللازمة للحياة والوجود.

فهل الحياة والعقل والذات موجودون خارج أجسادنا وأمخاخنا، ويمدوننا عن بُعد، كما يحدث فى البث التليفزيونى. فالممثلون والمذيعون والموسيقيون موجودون

---

(١) الجزء التالى من وضع مؤلف رحلة عقل .

هناك بعيدًا، وتُبث الموجات فى الهواء لتستقبلها أجهزة الاستقبال، وتنقلها إلى عيوننا وآذاننا وعقولنا.

وإذا كان عطب جزء من المخ قد يصحبه عجز عن التفكير، فليس معنى ذلك أن التفكير يُمارَس فى المخ! تمامًا كما ينقطع البرنامج إذا تعطل صمام أو ترانزستور فى جهاز التليفزيون، بينما يظل البث مستمرًا وتظل الموجات الكهرومغناطيسية المحملة بالبرامج تملأ الهواء من حولنا.

إن الظواهر غير المادية التى ذكرناها، لا يمكن دراستها بالمنهج المادى الاختزالى، الذى يحلل كل شىء حتى يصل به إلى مستوى مجالات من الطاقة. فعند هذا الحد، تكون ظاهرة الحياة (وما يتبعها من وعى وتفكير وإدراك الذات) قد اختفت أصلًا!!

إن المنهج المادى يؤدى دورًا شديد الأهمية على مسرح الحياة، لكن لا ينبغى أن نستخدمه فى غير مجاله.

نستطيع أن نقول بيقين: إنه قد آن للعلم الحديث أن يستنجد بالسماء ليستكمل مشوار الفهم لما يحدث داخلنا ومن حولنا.

الجزء الثانى

ونستكمل الرحلة..

نظرة على ما سبق

عاش سير أنتونى فلو حياته الفلسفية الطويلة، منذ أعلن إلحاده فى سن الخامسة عشرة وحتى قارب التسعين، فى ظل قاعدة سقراط الفلسفية الشهيرة: **«أن نتبع البرهان إلى حيث يقودنا To follow the Argument wherever it leads»**.

وقد رأينا كيف قاده البرهان طوال خمس وستين عامًا إلى الإلحاد، ثم لم يتردد الفيلسوف الكبير (فى سن الثمانين) فى أن يغير قناعته تمامًا، ليعلن للعالم أنه قد صار يؤمن أن «هناك إله».

وقد أخبرنا أنتونى فلو أن ما توصل إليه العلم من **حقائق عن الكون والحياة والإنسان، قد** قدم له وللبشر جميعًا البراهين الجازمة على وجود «المصمم الذكى». **كذلك كان لإعادة النظر فى أسلوبه فى الاستدلال الفلسفى، الفضل فيما توصل إليه أخيرًا من قناعات إيمانية.**

ونخرج من كتاب أنتونى فلو بأربع حقائق (لا ينبغى أن يمارى فيها أحد) تقود إلى القول بوجود الإله:

أولًا: لقد صار هناك شبه إجماع بين العلماء المتخصصين، على أن **الفضاء (المكان) والزمان والطاقة والمادة قد خرجت جميعها من العدم إلى الوجود منذ حوالى ١٣,٧ بليون سنة، وكان ذلك نتيجة لحدث فريد عُرف بالانفجار الكونى الأعظم.**

وإذا كان كل ما نعرف من موجودات يخضع لقانون **«كل حدث له سبب The Law of Cause and effect»** فلا يمكن تفسير نشأة الكون من العدم المطلق **إلا بالقول بموجد أول،** لا موجد له، وقادر على إيجاد الموجودات من العدم.

ثانيًا: الحياة ظاهرة تتجاوز التفاعلات الكيميائية والقوانين الفيزيائية، فكيف اكتسبت جزئيات المادة غير الحية، الحياة؟ لا يمكن أن يكون ذلك إلا من خلال مصدر أعلى يتمتع بالحياة.

ثالثًا: يتجلى الذكاء والمنطقية والقصد فى بنية وسلوك كل ما حولنا، ابتداءً من الكواركات والإلكترونات إلى الدنا DNA فى الكائنات الحية. فلا شك أن موجدها يتمتع بهذه الصفات.

رابعًا: يتمتع الإنسان بملكة فريدة، وهى العقل. ولا شك أن المادة العمياء لا يمكن أن تُنشئ عقلًا من تلقاء نفسها، ولن يكون ذلك إلا من خلال خالق مُدرك عليم حكيم.

إن هذه الحقائق ليست بالظواهر التى يمكن أن يكتشف لها العلم تفسيرًا ماديًّا مهمًّا أحرز من تقدم فى المستقبل، لكنها من المفاهيم الأساسية النهائية التى يؤكد العلم عجزه أمامها بشكل أكبر كلما تَكَشَّف له المزيد والمزيد من تعقيد هذه الظواهر.

وتشير براهين أنتونى فلو السابقة على الوجود الإلهى، إلى مفهومين شديدى الأهمية:

أولًا: مفهوم البرهان الكونى (برهان التصميم) Cosmic, Design Argument، الذى يعنى أن بنية الكون وقوانينه تدل على وجود المصمم الذكى (الإله الخالق).

ثانيًا: مفهوم المبدأ البشرى Anthropic Principle، الذى يعنى أن الكون قد تم بناؤه على هيئة تجعله ملائمًا تمامًا لنشأة الإنسان.

وبالرغم مما عرضه أنتونى فلو من براهين وجيهة على صحة هذين المفهومين، فما زال الملاحدة يعارضون دلالة هذه البراهين على الوجود الإلهى. لذلك سنعرض فى هذا الجزء من الكتاب هذين المفهومين بمزيد من التفصيل، كما نؤصل الأسس العقلية والفلسفية والعلمية لعلاقة الإنسان بالله، وعلاقة الإنسان بالدين.

* * *

الفصل الأول

البرهان الكونى فى الميزان

«تدل نشأة الكون من عدم، كما تدل بنية الكون وقوانينه على وجود المصمم الذكى»

مفاهيم أساسية تمهيدية

هناك عدد من المفاهيم الأساسية التى ينبغى أن تكون واضحة فى أذهاننا عند دراسة البرهان الكونى.

أولاً: هناك حدود للعلم، ينبغى أن تكون واضحة عند الدارسين، حتى لا يتجاوز العلم حدوده، وفى الوقت نفسه لا يتم تجاوزه. ومن هذه الحدود:

١- يتعامل العلم مع **الأشياء** Things والقوانين **التى تحكمها** Laws، ولكنه لا يتعامل بتاتًا مع العدم Nothingness الذى سبق الأشياء والقوانين.

٢- يتعامل العلم فقط مع ما يمكن **ملاحظته وقياسه** Observable and measurable، ولا يملك أى قدرة على التعامل مع الغيب أو مع الإله، أو مع ما قبل الزمان وما خارج المكان.

٣- ينطلق العلم من التصديق ببعض الأساسيات التى نعتبرها بديهيات، ولا نستطيع لها إثباتًا. من هذه البديهيات، أننا موجودون، وأن الجزء أصغر من الكل، **وأن كل حدث له سبب** The Law of Cause and Effect.

يمكننا بالتأكيد أن نرفض هذه البديهية الأخيرة، كما فعل ديفيد هيوم، ولكن سيؤدى ذلك حتمًا إلى رفض جميع قوانين العلم التى تبنى كلها على **العلاقة بين السبب والنتيجة**.

٤- تُعتبر الكونيات من أكثر فروع المعرفة التى **يختلط فيها العلم** Science **مع العلم الزائف** Pseudoscience.

فإذا كان أمام العلم الكثير ليدرسه ويقوله حول حالة الكون الآن، ولديه مجال لوضع النظريات حول حالته فى الماضى، **فإن قضايا مثل البداية الأولى والعدم المطلق وخروج الموجود من العدم، ليس لدى العلم ما يقوله فيها**، وسنرى أن كل ما قيل فيها هو أقرب للخيال العلمى.

ثانيًا: إن من أصعب الأمور دراسة أصل الأشياء، خاصة إذا كان موضوع الدراسة هو الكون.

إننا لا ينبغى أن نقف عند اعتبار أن الانفجار الأعظم هو سبب وجود الكون (كما يكتفى الملاحدة). **فالانفجار الأعظم فى حد ذاته فى حاجة إلى سبب لحدوثه**.

وإذا كان ريتشارد دوكنز قد اعتبر أن قوانين الطبيعة تقف وراء النشأة التلقائية العشوائية للكون والحياة، وشبَّهها بصانع ساعات أعمى لا يدرى ما يفعل، فيمكننا قبول أن الأدوات التى صُنِعت بها الساعة (كالمفك والعدسة) عمياء، لكن لا بد من صانع بصير حكيم يستخدم هذه الآلات. **هكذا شأن الانفجار الأعظم، فهو الآلة العمياء فى يد الصانع البصير الحكيم**.

إن الاكتفاء بالانفجار الأعظم كأصل للكون، ليس إلا **تقديم المشكلة خطوة للأمام**، تمامًا كمن يفسر نشأة الحياة على الأرض بأنها جاءت من كوكب آخر!!

ثالثًا: الأزلية.. الأبدية.. السرمدية

إذا كان العلماء قد أثبتوا أن الزمن بدأ مع الانفجار الكونى الأعظم، فهل فكرت يومًا، **ماذا كان قبل بداية الزمن؟ وماذا سيكون بعد نهاية الزمن؟**، إنها قضية منطقية فلسفية علمية صعبة، لكنها فى منتهى الأهمية. ومن أجل أن نقربها إلى الأذهان فلنتأمل عالم الأرقام.

فى تعاملنا مع الأرقام، نجد أنه يمكن إضافة (١) إلى أى رقم فيزداد بمقدار واحد، ويمكن أن نستمر فى ذلك لبلايين السنين، ولن نصل إلى رقم يمكن أن يُوصف بأنه الرقم اللانهائى، الذى لا رقم بعده. أى أنه لا يمكن الوصول إلى ما لا نهاية، عن طريق إضافة أرقام أو أجزاء إلى بعضها مهما بلغت.

إن تعريف اللامتناهى هو: ما لا يمكن عَدُّه أو إحصاؤه. إذن، فما يمكن عده من الأرقام أو الأجزاء ليس هو اللانهائى.

إن الزمن كالأرقام، يمكن عده وقياسه بالثوانى والدقائق والساعات....

لذلك فإننا لن نصل إلى اللانهاية فى المستقبل بإضافة سنوات إلى الوقت الحالى. وبالمثل لن نصل إلى اللانهاية فى الماضى بحذف سنوات من الوقت الحالى، أى أننا مهما أغرقنا فى المستقبل أو فى القِدَم فلن نصل إلى «ما لا نهاية».

أى أننا مهما حذفنا من السنوات فلن نصل إلى «الأزل»، الذى هو ما قبل بداية الزمن. كذلك مهما أضفنا من السنوات فلن نصل إلى «الأبدية»، فالأبد هو ما بعد نهاية الزمن. وبالتأكيد لن نصل إلى «السرمدية Eternity» التى هى الأزلية والأبدية معًا. وقد عبر الفلاسفة الغربيون عن ذلك بقولهم: «Eternity is not forever» أى «إن الإغراق فى الزمن، يختلف عن السرمدية، إن السرمدية هى ما قبل وما بعد الزمن، إنها خارج الزمن».

وبذلك يصبح السؤال عن مقدار الزمن قبل بداية الكون وبعد نهايته، سؤالًا غير ذى معنى. إنه تمامًا كالسؤال عن ماذا يوجد شمال القطب الشمالى؟ لا شك أننا لن نجد إجابة، إذ إن القطب الشمالى هو بداية الشمال على كوكب الأرض.

* * *

البرهان الكونى فى الميزان

بعد أن عجز علماء الكون عن طرح أى تفسير مادى معقول لحدوث الانفجار الكونى الأعظم، طرح العديد من الفلاسفة والعلماء ما صار يُعرف «بالبرهان الكونى أو برهان التصميم»، الذى يعتبر من أكثر البراهين (العلمية / المنطقية) دلالة على وجود إله خالق للكون.

ويتكون هذا البرهان من **مقدمتين واستنتاج**:

(أ) كل موجود له بداية، لا بد له من مصدر سابق له (موجِد).

(ب) الكون له بداية.

إذن: الكون لا بد له من مصدر سابق له (موجِد).

وبالرغم من سلاسة ووجاهة هذا الاستنتاج المنطقى، واعتماده على أرضية صلبة من العلم والفلسفة، فما زال هناك من يحاولون التهرب من القول بمصمم ذكى قديم قادر، خلق كوننا هذا.

ونظرًا لسلامة الاستنتاج، رَكَّزَ الملحدون على مقدمتى البرهان (أ، ب)، **وطرحوا العديد من الاعتراضات عليهما**، ويمكن إجمال هذه الاعتراضات فى ثمانى نقاط:

أولًا: كوننا قديم ولا بداية له (أزلى)

كان هذا الاعتراض فى الماضى أقوى الحجج ضد البرهان الكونى، حتى أثبت العلم (وأقر الملاحدة) بأن لكوننا بداية.

ثانيًا: كوننا له بداية لكنه لا يحتاج إلى موجد:

للخروج من المأزق السابق، لجأ المنكرون لقيام الإله بخلق الكون، إلى **طرح نظريات تجمع بين أن لكوننا بداية، وبين أنه لا يحتاج إلى موجد أول.**

أهم هذه النظريات، **نظرية «الكون المتذبذب Oscillating universe»** التى تشبه نظرية الانفجار الأعظم Big bang، لكنها ترى أن الكون نشأ من **«انفجار عظيم»** أعقبه **«انسحاق عظيم»** أعاد الكون إلى حالة الـمُفرَدة، ثم أعقب ذلك انفجار عظيم آخر، ثم انسحاق عظيم، وهكذا إلى ما لا نهاية فى القدم، أى أن هذا التذبذب أزلى.

وهذا الافتراض مرفوض فى معظم الأوساط العلمية[١]. بل إن العالمين

(١) هناك ثلاثة أسباب رئيسية لرفض العلماء لهذه النظرية:

١- أثبتت الفيزياء أن كوننا هذا بدأ بالانفجار الأعظم، وسيعقبه انسحاق عظيم، ولكن ليس هناك دليل علمى واحد على أن الانسحاق سيعقبه انفجار.

٢- كذلك لا يوجد دليل علمى واحد على أن كوننا هذا قد سبقه كون منسحق، ومن ثَمَّ لا يزيد الأمر عن كونه افتراضًا بدون دليل.

٣- فى نموذج الكون المتذبذب، تشير قوانين الديناميكا الحرارية إلى أن زمن حدوث الدورة القادمة ينبغى أن يكون أطول من الدورة الحالية. وإذا عدنا إلى الوراء وعكسنا الحسابات، فسنجد أن كل دورة سابقة كانت أقصر من =

الروسيين[1] اللذين قدما هذه النظرية عام ١٩٦٣، قد رجعا عنها بعد سبع سنوات فقط من طرحها. ومع ذلك ما زال المجادلون يستشهدون بها.

ويشبه مفهومَ الكون المتذبذب مفهومٌ آخر، يرى أن **الـمُفردة التى بدأ بها الانفجار الكونى الأعظم يمكن أن تكون أزلية**، ومن ثَمَّ يكون للانفجار الأعظم بداية، لكنه لا يحتاج إلى مُوجد. إن هذا الافتراض يفتقر (كسابقه) إلى الدليل العلمى.

ثالثًا: هناك كون هائل «أزلى» أنتج العديد من الأكوان، منها كوننا الحالى:

يُعتبَر هذا الاعتراض امتدادًا للاعتراض السابق، مع اختلاف واحد، وهو أنه نسب الأزلية إلى **«كون أُم»**.

لا شك أن الملاحدة سيعجزون عن تفسير أزلية الكون الأم، كما عجزوا عن تفسير أزلية كوننا الحالى.

ويؤكد عالم الكونيات البارز بيبلز P.J.E. Peebles أن كل هذه الأطروحات (أولًا وثانيًا وثالثًا) إنما هى افتراضات، وليست نظريات علمية تقف وراءها حقائق أو معلومات أو حتى ملاحظات مقبولة. إنها أقرب إلى الخيال العلمى منها إلى العلم[2].

= التالية لها، حتى نصل إلى دورة زمانها صفر، وستكون هذه هى بداية دورات التذبذب، أى أنه لا يمكن أن يكون التذبذب أزليًّا.

(١) العالمان هما Evgenii Lifshitz & Isaac Khalatnikov.

(٢) رَتَّب عالم الكونيات البارز بيبلز P.J.E. Peebles (مجلة العلوم الأمريكية Scientific American، عدد فبراير، ٢٠٠٥) النظريات الخاصة بنشأة الكون، بناءً على مدى موضوعيتها[1]. وقد أعطى بيبلز النظريات القائلة بنشوء الكون من حالة أكثر كثافة وأشد سخونة (وأهمها نظرية الانفجار الكونى الأكبر) تقدير +A. أما باقى النظريات الأخرى فقد أعطاها تقديرات -A، +B، -B، غير مقبولة.

وينطلق ترتيب بيبلز من تقييمه وترتيبه للأدلة العلمية المختلفة إلى أربعة مستويات:

أولًا: حقائق (Facts) لا يتطرق إليها شك.

ثانيًا: افتراضات منطقية Reasonable Hypotheses تقف وراءها أدلة مقبولة.

ثالثًا: افتراضات معقولة Plausible Speculations لا تؤيدها أدلة.

رابعًا: افتراضات مرفوضة Inplausible Speculations لا تؤيدها أدلة، وتتعارض مع الحقائق التى ثبتت لدينا.

رابعًا: ليس ضروريًّا أن كلَّ موجود له بداية، لا بد له من موجد أو مصدر سابق عليه!

بعد أن عجز الملحدون عن التوصل إلى أصل مادى أزلى لكوننا، لم يعد أمامهم إلا القول بأن **الكون يمكن أن ينشأ من لا شيء دون سبب!!** حتى لقد أصبح هذا القول العجيب أكثر الاعتراضات التى يطرحها الماديون فى العصر الحديث.

ولكن، **ألا يمكن حقًّا أن ينشأ شيء من لا شيء دون سبب؟**

يرى المؤمنون بوجود المصمم الذكى **أن ذلك مستحيل**، للأسباب الثلاثة التالية:

(١) هناك إدراك عند البشر (عبر التاريخ وعبر الجغرافيا) ببداهة فكرة «أن كل حدث له سـبب»، وهو ما يُسمى بقانون «العلاقة بين الحدث والمسبِب law of Cause and effect».

إن القول بكون حادث (له بداية) دون مُحدِث ودون مصدر سابق عليه، سيكون خبرة **البشرية الأولى** فى هذا الشأن !!

(٢) إن **العدم المطلق «اللاشيء» لا يملك «موارد» ولا «دافعًا» لإنتاج** شيء ما، ولو افترضنا حدوث ذلك فلن يكون عدمًا مطلقًا.

(٣) مشكلة الملاحدة الكبرى، هى تصورهم أن القول «بإله خالق» يتعارض مع «المنهج العلمى». ولكن **ألا يتعارض خروج شيء من لا شيء دون سبب مع المنهج العلمى؟** إن ذلك **يدمر العلم** الذى يقوم على البحث عن العلاقة بين الحَدَث والمسبِب. بل إن القول بإن هذا الشيء حدث فقط، **يقضى على التفكير والتحليل المنطقى**.

وتُعتبر **نظرية تذبذب الفراغ الكمومى** Quantum Vacuum Fluctuations، **أشهر** الافتراضات التى طرحها الفيزيائيون الملحدون، **لتفسير نشأة موجود له بداية، دون أن يكون له مصدر**، وقد ثبت خطأ هذه النظرية[١].

(١) ترى هذه التخمينات، أنه يمكن للجسيمات تحت الذرية أن تنشأ وتختفى تلقائيًّا فى الفراغ (أطلقوا عليه اسم الفراغ الكمومى Quantum Vacuum، نسبة إلى نظرية الكم – الكوانتم). وبالمثل **فإن كوننا يمكن أن ينشأ تلقائيًّا كذلك فى** الفراغ Vacuum.

يخبرنا عالم الفيزياء الكبير «بول ديفيز» Paul Davies أن تَشَكُّل الجسيمات فى الفراغ الكمومى لا يعنى خلق المادة من لا شيء، ولكن يعنى **تحوُّل طاقة موجودة بالفعل فى هذا الفراغ إلى مادة، أى أن الفراغ هنا ليس عدمًا مطلقًا**. **فمن أين جاءت هذه الطاقة؟** ومن ثم فإن هذه الافتراضات مرفوضة تمامًا.

كذلك طرح ستيفن هوكنج فى كتابه الأشهر «**تاريخ موجز للزمان**»، **نموذجًا لكيفية نشأة الكون من العدم دون الحاجة إلى موجد**[1].

ولا شك أن ستيفن هوكنج هو رجل العصر لعبقريته ولأسباب أخرى، لكن ذلك لم يمنع نجاح الفيزيائيين النابهين الآخرين فى تفنيد نموذجه، إن اعتراضهم لم يكن على نظرته الرياضية، ولكن على **التضارب المنطقى داخل هذا النموذج**.

خامسًا: إذا كان كل موجود له بداية،له مسبب،

إذن ينبغى أن يكون للموجد الأول (أو الإله) مسبب.

للرد على هذا القول للملاحدة نلفت النظر إلى أننا نقول: **إن كل موجود له بداية له مسبب**، بينما الإله ليس له بداية.

لذلك فإن **بعض الملاحدة يشاركون المؤمنين الرأى**، بأنهم إذا سَلَّموا - جدلًا - بوجود الموجد الأول، فبديهى أن يكون سرمديًّا (لا أول له، ولا آخر له)، وألا يكون له مُوجد.

كذلك نعرض بشكل مفصل دفعًا لهذا الاعتراض فى الفصل الثامن تحت عنوان «إلحاد فى أسوأ حالاته».

---

(١) يُعرف بنموذج هارتل - هوكنج، أو النموذج الكمومى للكون. ويعتمد هذا النموذج على مفهوم يطرحه هوكنج لأول مرة، وهو مفهوم «الزمن التخيلى Imaginary Time»، وهو تطبيق لمفهوم الرقم التخيلى.

فإذا بحثنا عن الجذر التربيعى لرقم مثل (-٤) فلن نجد رقمًا حقيقيًّا (إذ إن -٢×-٢ = +٤). لذلك قام هوكنج بوضع رمز (x) ليشير إلى هذا الرقم الذى لا وجود له، ووضع x فى معادلاته الخاصة بحساب الزمن، فنتج زمن تخيلى، عندما استخدمه هوكنج فى حساباته أزال الحاجة إلى موجد أول.

يخبرنا سير هيربرت دِنجل Sir Herbert Dingle رئيس الجمعية الفلكية الملكية بإنجلترا، أنه إذا كان مفهوم الأرقام التخيلية صحيحًا من الناحية الرياضية، فلا اعتبار له من الناحية التطبيقية، ويستدل على ذلك بمثال يعرفه كل التلاميذ الدارسين للرياضيات:

فإذا كان عدد الرجال المطلوبين لوظيفة ما هو (x)، وكانت x فى بعض المعادلات موجبة، سالبة، عددًا صحيحًا، كسرًا، عددًا تخيليًّا،عددًا مركبًا، صفرًا، لا نهاية، أو أى شكل آخر من الأشكال التى ولَّدتها عقول الرياضيين، فإننا بالتأكيد سنعتبر x (عدد الموظفين المطلوبين) رقمًا صحيحًا موجبًا، ونرفض باقى الاحتمالات.

إن الرياضيات لا تستطيع وحدها الاختيار بين البدائل فى المثال السابق، وسنعتمد على المنطق، والخبرة، والتجربة.

ومن ثَمَّ، **فإن الزمن التخيلي الذى نشأ عن وضع الأرقام التخيلية فى معدلات هوكنج، لا اعتبار له**، وسينقلب إلى زمن حقيقى إذا استبدل الرقم التخيلى برقم حقيقى، عندها ستظهر الحاجة إلى «المسبب الأول».

سادسًا: إذا كان لا بد من مُوجد أول، هل ضرورى أن يكون إلهًا؟

نجيب على هذا التساؤل الاستنكارى، بأن نعرض الصفات التى ينبغى أن تتوافر فى الموجد الأول، فكحد أدنى، **ينبغى للموجد الأول أن يكون:**

١- **واجب الوجود The Necessary Being**: إذ إن تصور عدم وجوده وهو الموجد الأول، سيتبعه ألا يكون لنا وللكون وجود.

٢- **وجوده لا يحتاج لسبب Uncaused**: وهذا أمر بديهى، فلا يمكن أن نتدرج فى مصدر للموجودات إلى ما لا نهاية[1]. كذلك لا يمكن لخالق قانون السببية أن يخضع له.

٣- **أزليًا Eternal**: إذا كان الزمان قد خُلق مع الانفجار الأعظم، فإن ذلك يتطلب أن يكون الموجد الأول الذى خلق الزمان، خارج الزمان (أزليًا - لا بداية له).

٤- **غير مادى، ولا يحده مكان**: خُلِقَت المادة والمكان (مع خلق الزمان) عند حدوث الانفجار الأعظم، ومن ثَمَّ لا يمكن أن يكون السبب الأول مُحْتَوًى فى المادة والمكان، وهو خالقهما.

٥- **مطلق القدرة Omnipotent**: إذا كان الموجد الأول قادرًا على الخلق من عدم، فلا شك أنه قادر على فعل أى شىء.

٦- **مطلق المعرفة Omniscint**: لا بد أن يكون الخالق للوجود وما فيه على معرفة تامة بموجوداته، وبما يحدث فى الكون.

٧- **قادرًا على اتخاذ القرارات Decision Maker**: إذا كان الخالق الموجود منذ الأزل قد بدأ خلق الكون منذ ١٣,٧ بليون سنة، فلماذا بدأ الخلق فى هذا التوقيت؟ لا شك أنه اتخذ قرارًا بهذا.

وإذا كان الملاحدة يقولون إن بداية خلق الكون كانت عملية تلقائية لظروف جَدَّت، **فعليهم أن يفسروا لنا كيف تَجِدُّ ظروف فى العدم المطلق**، ولِـمَ جَدَّت الظروف منذ ١٣,٧ مليار سنة فقط بعد أن تُرِكَ العدمُ أزليًا **(برهان فترة الترك)**؟ ومما يزيد من خطأ رأى الملاحدة أن أى ظروف تَجِد على أمر أزلى ستُحدث التغير منذ الأزل (إذ إن الأزل - ١٣,٧ مليار سنة = الأزل)، وهذا يعنى أن الكون، بمنطقهم، ينبغى أن يكون أزليًا. وليس ذلك ما أثبته العلم.

(١) يطلق علماء المنطق على هذا المعنى اصطلاح (التسلسل بمتنع).

إن وجود كون له بداية، نشأ فى توقيت معين، بعد أن كان هناك عدم أزلى، لا يمكن أن يحدث تلقائيًا، ويقتضى وجود «**عامل مُرَجِّح» يقطع فترة الترك**، ويُخرج الكون إلى الوجود فى هذا التوقيت.

إن هذا هو **الحد الأدنى من الصفات التى ينبغى أن تتوافر فى موجد الكون**، ألا ترى أن مثل هذه الصفات **لا تتوافر إلا فى الإله الخالق، الحكيم، القادر، القديم الأزلى**.

حسنًا، **لماذا يكون إلـهًا واحدًا وليس عدة آلهة؟** هكذا يعلق بعض الملحدين. يستوى تمامًا فى نفى الإلحاد أن يكون الخالق إلـهًا واحدًا أو ألف إله. لكن القاعدة المنطقية تقول بأنه **إذا كان يمكن تفسير الأمر بشكل أبسط، فلا ينبغى أن نلجأ إلى التفسير الأعقد**. فلِمَ نرفض القول بإله واحد، ونلجأ إلى القول بآلهة متعددة، ينشأ عنها **عبث وتداخل** يتدارسه المؤمنون بالإله الواحد؟!

سابعًا: إله سد الثغرات God Of The Gaps

يرى الملحدون أن القول بوجود الإله الخالق للكون، كنتيجة أخيرة لمقدمتى البرهان الكونى، إنما هو استغلال خاطئ لعدم استطاعة العلماء (حتى الآن) الإجابة عن جميع التساؤلات. ويؤكد الملحدون وجهة نظرهم **بأن العلم تتكشف أمامه يومًا بعد يوم تفسيرات لأمور كان يعتبرها الناس من المهام الإلهية**، مثلما اُكتشفت الجراثيم كمسببات للأمراض الـمُعدِية. ومن ثَمَّ لا ينبغى كلما ظهرت ثغرة لا يملؤها العلم، أن نهرول **إلى سدها ومَلْئها بالقول بالقدرة الإلهية**.

ولندفع هذا الادعاء، نراجع الأدلة الرئيسية التى يقوم عليها البرهان الكونى، لنرى إن كان يمكن للعلم أن يجد منها مخرجًا فى المستقبل، **أم أنها حقائق نهائية مطلقة**. هل يمكن أن يكتشف العلم فى المستقبل:

١ – أن الكون لا بداية له، وأنه موجود منذ الأزل؟

٢ – أن الكون الذى له بداية يمكن أن ينشأ ذاتيًا من عدم مطلق؟

٣– أن السبب الأول لوجود الكون يمكن أن يكون سببًا ماديًا؟

لا شك أنه قد ظهر أثناء مناقشة الاعتراضات السبعة السابقة، أن هذه النقاط الثلاثة أمور ثابتة علميًا وفلسفيًا، وليست عُرضة للنفى والتغير. أى **أن القول بإله مصمم ذكى ليس مجرد «سد ثغرات»، أو حلًا مؤقتًا لعجزنا عن تفسير بعض الأمور**.

لذلك نؤكد فى النهاية أن **رفضنا للوقوف عند التفسيرات المادية ليس مبنيًّا على نقص فى المعرفة العلمية (جهل)، ولكنه رفض عن علم**[1].

القارئ الكريم...

يرى البعض أن الاعتراضات التى وُجهت إلى البرهان الكونى تُعتبر دليلًا على أن هذا البرهان ملىء بنقاط الضعف، حتى صار عندهم القول بأن أى تفسير مادى لنشأة الكون يُعتبر أكثر قبولًا من القول بوجود إله خالق!

إن العكس هو الصحيح، فكل ما طُرح من اعتراضات، تم دحضه بالبراهين العلمية والفلسفية، بل **لقد أظهر هذا الهجوم جوانب قوة لم تكن ظاهرة فى البرهان الكونى**.

عليك بعد هذا العرض أن تتأمل البرهان الكونى، لترى إن كان صحيحًا مُلزِمًا، أم غير صحيح وغير ملزم، مع الأخذ فى الاعتبار أن رفض الإقرار بوجود الإله الخالق يتطلب من الناحية العلمية قبول:

- أن الكون قفز إلى الوجود من العدم بدون مسبب.
- أن النتيجة يمكن أن تكون أكبر من السبب.
- أن النظام يخرج تلقائيًّا من الفوضى.
- أن قوانين الطبيعة وضعت نفسها.
- أن الحياة تنشأ تلقائيًّا من المادة غير الحية.

لقد صرت الآن (عزيزى القارئ) فى مفترق طرق، فإما أن تُغمض عقلك ليقبل هذه الافتراضات المستحيلة، كما يفعل الماديون، وإما أن تنظر إلى الوجود باعتباره كونًا مفتوحًا يتلقى التوجيه من عالم الغيب. **لا مفر الآن من أن تأخذ موقفًا تجاه أخطر قضية فى حياة الإنسان، قضية الوجود الإلهى**.

---

(١) ولنبين معنى الرفض عن علم، نضرب مثالًا، فنقول: إذا توصلنا بعد دراسة شاملة لبنية الجسم البشرى ووظائفه، إلى أن الإنسان لا يستطيع الطيران، إلا إذا استخدم آلة تُعينه على ذلك، هل يمكن أن يأتى مُعترض ليقول لنا: لا.. ربما يكتشف العلم بعد فترة إمكانية أن يطير الإنسان دون الاستعانة بآلة. هل رفضنا لهذا القول راجع إلى نقص المعرفة العلمية (جهل) أم إنه رفض عن علم؟.

الفصل الثانى

المبدأ البشرى فى الميزان

«لقد تم بناء الكون على هيئة تجعله ملائمًا تمامًا لنشأة الإنسان»

يرى العلماء والفلاسفة الماديون أن بداية نشأة الكون كانت تلقائية، وأن انتقاله من مرحلة إلى مرحلة فى هذه النشأة كان يتم بعشوائية، أو تبعًا لما تفرضه قوانين الطبيعة (على أفضل تقدير). لذلك يعتبرون القول بأى قصد وراء خلق الكون (**وهو ما يُعرف بالغائية Teleology**) **خروجًا صريحًا على العلم.**

بينما يرى **المؤمنون بمفهوم التصميم الذكى** أن ما فى بنية الكون من توافق مذهل مع احتياجات الإنسان، **دليل على الغائية Teleology، التى تعنى أن الإله قد صمم الكون على هذه الهيئة ليكون مناسبًا لنشأة الحياة بصفة عامة، ونشأة الإنسان بصفة خاصة. ويُعرف هذا المفهوم بالمبدأ البشرى Anthropic Principle.**

وقد عبَّر كلٌّ من جون جريبين John Gribbin ومارتن ريز Martin Rees[1] عن هذا المعنى بشكل دقيق بقولهما: «يبدو أن الكون قد تم تفصيله على مقاس الإنسان[2] Tailor – made for man». كما عبَّر فريمان ديسون Freeman Dyson عن المعنى نفسه بقوله:

---

(١) التعريف بعلماء الفيزياء المذكورين فى هذا الفصل، موجود فى هوامش الفصل السابع من الجزء الأول.

(٢) جاء ذلك فى كتابهما «مادة الكون» The stuff of the universe.

«**يبدو أن الكون كان يعلم أننا قادمون**». وكلما زادت معارفنا عن نشأة الكون وبنيته، تَكَشَّف لنا بشكل أكبر مدى مواءمة هذه النشأة والبنية، وكذلك قوانين الكون الفيزيائية، لبزوغ الحياة.

أما **المعارضون لمفهوم التصميم الذكى**، فيرون أن مجرد وجودنا فى الكون دليل بديهى على أن بنيته مناسبة لنشأة الحياة ونشأتنا، وإلا لما نشأنا. ومن ثَمَّ لا تُعتبر ملاءمة الكون لنشأتنا دليلًا على أى أمر غيبى. لذلك يرفض جون بارو John Barrow فكرة أن الكون قد تم تفصيله على مقاس الإنسان، ويرى بدلًا من ذلك أن قوانين الطبيعة قد فَصَّلت الإنسان ليتناسب مع بنية الكون[1].

ولا أرى أن مفهوم جون بارو يتعارض مع مفهوم التصميم الذكى والمبدأ الإنسانى. **فالإله الخالق يمكن أن يستخدم قوانين الطبيعة فى تشكيل الخلق على الهيئة التى يريدها**.

* * *

إعداد الكون لنشأة الإنسان

فى كتاب «ستة أرقام فقط Just Six Numbers»، يحدد سير مارتن ريز Sir Martin Rees (عالم الكونيات الإنجليزى الكبير) ستة قيم عددية، مسئولة عن صفات الكون التى تناسب تمامًا نشأة الحياة واستمراريتها. ويوضح ريز أن أدنى تَغَيُّر فى هذه القيم يجعل من المستحيل وجود الكون بصفاته الحالية.

أولًا: يُعتبر تمدد الكون عقب الانفجار الأعظم (وحتى الآن) المحرك الرئيسى لمراحل نشأته، إذ أدى ذلك إلى تَبَرُّد الكون وما تبعه من أحداث.

فإذا كانت القوى التى تحكم تمدد الكون أضعف من مقدارها الحالى، لانهدم الكون على نفسه، وإذا كانت أقوى، لـمَـا نشأت المجرات والنجوم. ويعرف هذا المقدار **بالحد الحرج**.

ثانيًا: نشأت المجرات نتيجة لزيادة **كثافة مادة الكون فى بعض المناطق** عن باقى أماكن الكون الوليد بمقدار ١ : ١٠٠ , ٠٠٠، مما وَفَّر المادة المطلوبة لتكوين المجرات فى هذه المناطق.

ولو قَلَّت هذه النسبة عن هذا المقدار، لظل الكون على حالته الغازية، ولو زادت لصارت مادة الكون أكثر كثافة، ولَتَحَوَّلت إلى ثقوب سوداء تبتلع مادة الكون كلها.

(١) طرح جون بارو هذا الفهوم فى كتابه «الكون البديع The Artful universe»، طبع عام ١٩٩٥.

ثالثًا: إذا كان **مقدار قوة الجاذبية** التى تربط بين أجرام الكون أكبر من قدرها الحالى، لانهدم الكون على نفسه قبل أن تنشأ الحياة، وإن كان أضعف مما هى عليه الآن، لـمَـا تكونت المجرات والنجوم. وقد تم ضبط قوة الجاذبية بدقة تتجاوز ١: ٠٠٠ , ١٠٠.

رابعًا: مقدار الطاقة المتاحة للربط بين مكونات نواة ذرات الهليوم داخل النجوم **(القوة النووية القوية)**:

إن مصدر الطاقة التى تصدرها النجوم (كالشمس) هو الاندماج النووى بين ذرات الهيدروجين. ويتم استغلال ٧ , ٠٪ من هذه الطاقة للربط بين مكونات نواة ذرة الهليوم الناتجة عن هذا الاندماج. وإذا كان المتاح من كتلة ذرات الهيدروجين لإنتاج هذه الطاقة هو ٦ , ٠٪ أو أقل، لـمَـا أمكن للشمس أن تشع حرارتها وضوءها. وإذا بلغت النسبة ٨ , ٠٪ أو أكثر، لنفد الهيدروجين الموجود فى الكون والذى هو مصدر طاقته.

باختصار، **إذا كانت النسبة ٠٠٦ , ٠ بدلًا من ٠٠٧ , ٠ لن يوجد فى الكون سوى الهيدروجين، ولو أصبحت ٠٠٨ , ٠ لن يوجد أى هيدروجين.**

خامسًا: **تبلغ الروابط الكهربائية Electrical Bonds** (الرابطة الأيونية والرابطة التساهمية) التى تمسك الذرات بعضها ببعض لتكوين الجزيئات مقدارًا **أكبر كثيرًا من قوى الجاذبية بينها** Gravitational forcc.

إن أى خلل فى النسبة بين القوتين، يقلل بشكل كبير من عمر الكون، ويُقلص حجم أكبر الكائنات الحية إلى حجم الحشرات، أو يجعلها تتضخم وتنتفخ إلى حد الانفجار.

سادسًا: **إن بنية الكون الفراغية ثلاثية الأبعاد**، هى الملائمة لنشأة الحياة، إذ إن كونًا ثنائى الأبعاد أو رباعى الأبعاد ما كان يسمح بأن تنشأ الحياة فيه.

وقد أكد مارتن ريز على أمر شديد الأهمية، وهو **أن قيم هذه الثوابت الستة لا علاقة فى تحديدها ببعضها البعض**. ومن ثَمَّ لا يمكن الادعاء بأن وجود أحد هذه الثوابت بالصدفة، قد أدى إلى وجود الثوابت الأخرى بقيمها المناسبة.

بالإضافة إلى هذه الثوابت التى طرحها ريز، طرح باحثون آخرون **عشرات الثوابت الأخرى، التى لولاها ما كانت نشأة الكون والحياة أمرًا ممكنًا**، ومنها:

أولًا: فى اللحظات الأولى عقب الانفجار الكونى الأعظم، تَحَوَّل جزء من طاقة الكون الوليد

إلى جسيمات المادة (الكواركات والإلكترونات) ومضادات جسيمات المادة (مضادات الكواركات ومضادات الإلكترونات)، وقد أدى التقاء جسيمات المادة مع مضاداتها إلى فناء كليهما.

وقد كانت جسيمات المادة تزيد على مضاداتها بمقدار جزء إلى ثلاثين مليون جزء، وقد نتج عن هذه **الزيادة الضئيلة فى الكواركات والإلكترونات تَوَفُّر** مقدار من المادة ملائم تمامًا لنشأة الكون.

ثانيًا: إذا كان **مقدار شحنة الإلكترونات** (التى تدور حول نويات الذرات) مغايرًا لما هى عليه الآن، لـمَـا حدثت الاندماجات النووية بين ذرات الهيدروجين فى النجوم (ومنها الشمس)، و لـمَـا انبعثت الطاقة من هذه النجوم.

ثالثًا: تبلغ **كتلة البروتون** ١٨٣٦ **ضعف كتلة الإلكترون**، ولو تغيرت هذه النسبة لـمَـا نشأت ذرات وجزيئات المادة.

رابعًا: لقد كان **تَكَوُّن عنصر الكربون** لا غنى عنه لنشأة الحياة. فالكربون يتميز **بليونة الروابط بين ذراته**، مما يسمح بالاتحاد مع ذرات الأكسجين والهيدروجين والنيتروجين والكبريت لتكوين مركبات المادة الحية العضوية كالبروتينات والأحماض النووية.

وإذا قارَنَّا الكربون بأقرب العناصر إليه، وهو السليكون، وجدنا أن الأخير لا يستطيع تكوين أى مركبات عضوية، وذلك لشدة الروابط بين ذراته.

خامسًا: حدد جون بارو John Barrow **خمسة وعشرين ثابتًا أساسيًّا**، تعتمد عليها بنية الكون (كسرعة الضوء - وثابت بلانك - والصفر الحرارى الـمُطْلق...)، وأشار إلى أن أى **خلل فى قيمة أحد هذه الثوابت ما كان ليسمح باستقرار الكون أو نشأة الحياة.**

هل ما زال هناك شك فى أن الكون قد تم تفصيله على مقاس الإنسان؟! إذن فلننظر إلى بيتنا.

التوازن المدهش الملائم للحياة فى كوكب الأرض

يبلغ قطر كوكب الأرض حوالى ٦٤٠٠ كم، ومحيطها حوالى ٤٠٠٠٠ كم. ويتكون لب الأرض من كتلة من الحديد، تحولت إلى كرة صلبة بالرغم من الحرارة الهائلة، بسبب تعرضها للضغط الشديد. ويحيط بهذه الكرة طبقة من الحديد المنصهر.

ويبلغ سمك القشرة الأرضية حوالى ٢٠ كم، وتتكون من صفائح تتراص بعضها فوق بعض بطريقة متداخلة، وتطفو هذه الصفائح فوق طبقة أخرى أكثر ليونة تسمى الغلاف Mantle.

حجم وجاذبية كوكب الأرض...

إذا كان حجم كوكب الأرض أصغر أو أكبر مما هو عليه الآن، لاستحالت الحياة.

فلو كانت الأرض فى حجم القمر مثلًا، لبلغت جاذبيتها سدس جاذبيتها الحالية، وما استطاعت أن تمسك ببخار الماء والهواء حولها، أى أن الغلاف الجوى سيتلاشى. وسيترتب على ذلك اشتداد البرودة ليلًا حتى يتجمد كل ما على سطح الأرض، واشتداد الحرارة نهارًا حتى يحترق كل ما عليها (كما هو الحال فى القمر الذى لا يحيطه غلاف جوى)[1].

كذلك إذا كان الغلاف الهوائى للأرض أقل كثافة مما هو عليه الآن، لسقطت النيازك كل يوم على كل بقعة من الأرض، بسرعة ثمانين كيلو مترًا فى الثانية، وأحرقت ما عليها، ولأصبحت الأرض كالغربال فى وقت قصير.

وعلى العكس، إذا أصبح قطر الأرض ضعف قطرها الحالى، لتضاعفت جاذبيتها. وانكمش غلافها الجوى (يمتد لمسافة مائة وعشرين كيلومترًا تقريبًا) فيزداد الضغط على كل بوصة مربعة من سبعة كيلوجرامات إلى أربعة عشر، مما يؤثر أسوء الأثر على الكائنات الحية.

أما إذا تضاعف حجم الأرض إلى مثل حجم الشمس، لتضاعفت قوة جاذبيتها مائة وخمسين مرة، ولانكمش غلافها الهوائى إلى سُمك سبعة كيلومترات فقط، وارتفع الضغط الجوى إلى طن كامل على كل بوصة مربعة، فيصير وزن الحيوان الذى يزن كيلوجرامًا واحدًا - تحت كثافة الهواء الحالية - خمسمائة كيلو جرام، كما يهبط حجم جسم الإنسان (إن سمحت الظروف بنشأته) حتى يصير فى حجم فأر كبير، ولاستحال وجود العقل الإنسانى على النمط الذى نعهده، إذ يحتاج هذا النمط إلى مخ لا يقل عن حجم معين.

(١) يسمح الغلاف الجوى للأرض بمرور قدر محدد من الأشعة تحت الحمراء التى تدفئ جو الأرض فى النهار، كما يحتفظ الغلاف الجوى ببعض هـذه الحـرارة فى الليـل Green House Effect.

دوران الأرض...

تدور الأرض حول الشمس بسرعة مقدارها ١١٠٠٠٠ كيلومتر فى الساعة (٣٠ كم فى الثانية)، حتى توشك أن **تقذف بنا** فى الفضاء، فكيف نستقر على سطح الأرض وهى تدور بهذه السرعة؟! يرجع الفضل فى ذلك إلى **الجاذبية الأرضية وضغط الهواء** الذى يحيط بنا من كل ناحية.

وتُتم الأرض **دورة واحدة حول محورها** كل يوم، بسرعة ١٧٦٠ كيلومترًا فى الساعة. فإذا انخفضت هذه السرعة إلى خمسمائة كيلومتر فى الساعة، **لطال ليلنا ونهارنا** بمقدار عشر مرات. ويترتب على ذلك أن تحرق حرارة الشمس كل شىء فوق الأرض، وما بقى بعد ذلك ستقضى عليه البرودة الشديدة فى الليل الطويل.

ميل محور الأرض...

وتدور الأرض حول الشمس بزاوية مَيْل على محورها الرأسى مقدارها **٢٣,٤٥** درجة، الأمر الذى تنشأ عنه **فصول السنة**، فتصبح أكثر مناطق الأرض صالحة للزراعة والسُكنى طول العام.

وإذا لم تكن الأرض بهذا الميل لغمر الظلام القطبين طوال السنة، ولتحرك بخار الماء من البحار شمالًا وجنوبًا، ولـمَـا بقى على الأرض غير جبال الثلج فى القطبين وفيافى الصحراوات بينهما؛ مما يجعل الحياة على ظهر الأرض مستحيلة.

درجة حرارة الأرض...

تبلغ درجة حرارة سطح الشمس سبعة آلاف درجة مئوية، وتبلغ المسافة بينها وبين الأرض ما يقرب من ١٦٥ مليون كيلومتر. ولو اقتربت الأرض من الشمس بمقدار النصف مثلًا، فسوف تحترق هذه الورقة التى تقرأها على الفور. ولو زادت هذه المسافة إلى ضعف ما هى عليه الآن، فستقضى البرودة الشديدة على الحياة على سطح الأرض.

أما إذا حل محل الشمس نجم تزيد حرارته على حرارة الشمس بضع مرات (وما أكثر هذه النجوم)، فسوف تصبح الأرض تنورًا رهيبًا.

القشرة الأرضية والبحار...

لو زاد سُمك قشرة الأرض بمقدار ثلاثة أمتار عن سمكها الحالى، فستمتص أكسجين الهواء، وبدونه تستحيل الحياة الحيوانية.

كذلك لو كان عمق البحار أكثر من عمقها الحالى ببضعة أمتار، لامتصت ثانى أكسيد الكربون والأكسجين، ولاستحال وجود النباتات، فضلًا عن الحياة الحيوانية على الأرض.

العباءات الواقية للأرض...

تحيط بكوكب الأرض ثلاث عباءات واقية. العباءة الخارجية عبارة عن «**مجال مغناطيسى**» يعكس العواصف الشمسية التى تهب على جميع كواكب المجموعة الشمسية(١)، والقادرة على تدمير جميع أشكال الحياة على سطح الأرض.

والعباءة الثانية هى **طبقة الأوزون**(٢) التى تحمى الأرض من الأشعة الكونية الضارة.

ويمثل **الغلاف الجوى** (الذى سبق مناقشته) العباءة الثالثة. ويمثل الأكسجين ٢١٪ من الغازات الـمُكَوِّنَة للغلاف الجوى القريب من سطح الأرض، ولو زادت هذه النسبة بمقدار الضعف لزادت قابلية الاحتراق وشدة الحرائق بالنسبة نفسها. كذلك لا تخترق «**الأشعة الشمسية ذات التأثيرات الكيميائية**» Actinic Rays هذا الغلاف، إلا بالقدر الذى يكفى لحياة النبات، وتكوين فيتامين «د» فى جسم الإنسان، والقضاء على الجراثيم الضارة، وما إلى ذلك من منافع !!

أعجوبة الماء ...

الأرض هى الكوكب الوحيد فى مجموعتنا الشمسية الذى يحتوى على الماء بحالاته الثلاث **(الغازية – السائلة – الصلبة)**.

والماء هو **السائل الوحيد الذى تقل كثافته بالتجمد !**، لذلك يطفو الثلج على سطحه. وفى الدائرتين القطبيتين يحجب الثلج الماء الذى تحته، فتظل حرارته دون درجة التجمد، وتبقى الأسماك والحيوانات المائية على قيد الحياة.

(١) تتكون هذه العواصف من بروتونات موجبة الشحنة وإلكترونات سالبة.
(٢) يتكون جزىء الأوزون من ثلاث ذرات من الأكسجين.

ويستجيب الماء بشكل مثالى لظاهرة الخاصية الشعرية **Capillarity**، وهى معجزة فى هيئة قانون طبيعى. فهى تسمح للماء بالحركة لأعلى فى طبقات التربة، كما تسمح بصعوده فى سيقان الأشجار من الجذور إلى الأوراق عكس قوة الجاذبية الأرضية[1].

القارئ الكريم...

إن كل قفزة يحققها العلم تضيف إلى أدلة (التصميم الذكى) وتؤكد صحة (البرهان الكونى)، كما تشير وبشكل متزايد إلى صحة (المبدأ البشرى). بل إن القفزات العلمية، من قوانين الحركة (نيوتن)، إلى العلاقة بين الكتلة والطاقة (أينشتين)، إلى سلوك الذرة والجسيمات تحت الذرية (فيزياء الكم)، إلى بنية الدنا DNA (جزىء الحياة)، إلى المخ وما تَكَشَّف من أسراره... تُظهر لنا أبعادًا وأعماقًا أكبر وأكبر لهذه المفاهيم الثلاثة.

وإذا كان المعترضون على «المبدأ البشرى» يعتبرون أن مجرد وجودنا فى الكون دليل بديهى على أن بنيته مناسبة لنشأة الحياة، ومن ثَمَّ فأن ملاءمة الكون ليس دليلًا على أى أمر غيبى. فقد فات هؤلاء المعترضين أمران:

الأول، أن العالم ليس مجهزًا لخروج الحياة وحسب، ولكن لخروج كائنات حية ذكية منطقية، ترصد وتفهم هذه المواءمة.

والأمر الثانى، هو غزارة ما فى الكون من توافق يفوق احتياجات الكائنات الحية ويحقق لها الرفاهية والاستمتاع، وخاصة الإنسان ذا الاحتياجات النفسية المتميزة، ذلك بالرغم من أن قدرًا أقل بكثير من هذا التوافق كان كافيًا لنشأة هذه الكائنات.

بعد إدراك هذين الجانبين من التوافق، أصبح أنصار «المبدأ البشرى» يطلقون عليه «المبدأ البشرى القوى **Strong Anthropic Principle**»، وذلك مقابل اصطلاح «المبدأ البشرى الضعيف» الذى يشير فقط إلى مفهوم (إننا موجودون، إذن الكون ملائم).

---

(١) وقد قَدَّر البيولوجيون كمية الماء التى تصعد فى شجرة ارتفاعها ثلاثون مترًا بحوالى ٤٠٠ لتر فى الساعة. تستطيع أن تتصور مقدار الطاقة المطلوبة، وكذلك الضوضاء التى تسببها مضخات تُستخدم لهذا الغرض فى غابة من هذه الأشجار.

وبالرغم من ذلك، يرفض الماديون (كما ذكرنا فى أول الفصل) مفهوم المبدأ البشرى، بل يعتبرون أن القول **بالغائية Teleology** خروج صريح على العلم الذى توصل إلى **التفسير الفيزيائى (الآلى)** لمعظم الظواهر الطبيعية، مما لا يدع عندهم حاجة للقول **بتفسيرات غائية للوجود**، ويعتبرون ذلك مبررًا لإنكار الوجود الإلهى.

نَرُد على ما يعتمل فى عقول الملاحدة من شبهات حول البرهان الكونى والمبدأ البشرى بعرض مفهومين نرى فيهما **الخروج من مستنقع الشك والإلحاد**:

- **المفهوم الأول: لا ينبغى أن نعتبر أن التفسير الآلى هو وحده التفسير العلمى**. فإذا كان التفسير الآلى يتعرض للكيفية (كيف) How?، التى يقوم العلم بالبحث عنها، فإن ذلك لا يتعارض عقليًا مع وجود تفسير غائى (لماذا) Why? قصد إليه خالق الكون والإنسان.

ولنضرب على ذلك مثالًا: رجل يتسلق جبلًا، ويتساءل الناس عن ذلك. هناك إجابتان مختلفتان. الأولى، أنه **يريد أن يشاهد المنظر الطبيعى** من فوق قمة الجبل. وهذا هو التفسير الغائى للظاهرة؛ لأنه يطرح الغاية التى يسعى إليها الرجل من التسلق.

أما الإجابة الثانية، فتكون بعرض **سلسلة الأسباب والنتائج التى تنتهى بحركة أَرْجل هذا الرجل**: فالطعام الذى تناوله كان مصدرًا لإنتاج طاقة استفاد منها الجهاز الحركى، ثم دفعه مثير خارجى إلى استغلال هذه الطاقة، فتقلصت عضلات الرجل ثم ارتخت ثم تقلصت حتى دفعت فى النهاية جسده إلى أعلى الجبل، وهذا هو التفسير الآلى أو الميكانيكى، وهو تفسير يدفع الحدث من الخلف، أما التفسير الغائى فإنه يجر الحدث من الأمام.

لذلك لا نرى تعارضًا بين التفسيرين، ولا يتنافى القول بأحدهما مع القول بالآخر (كما يرى الملحدون). فإن معظم أمورنا الحياتية يحكمها الأمران، الغائية والآلية: التهام الطعام، هناك غائية وهناك آلية. تناول الدواء، هناك غائية وهناك آلية، قيادة السيارة...

إن أهم التعارضات بين العقل فى العصر الوسيط، والعقل فى العصر الحديث هو أن الأول **سيطر عليه الدين** المسيحى الذى ارتبط بالغائية، بينما **سيطر العلم** الذى ارتبط بالآلية على عقل العصر الحديث.

إن التمييز، ثم الجمع، بين التفسير الغائى والتفسير الآلى على جانب كبير من الأهمية، لفهم تاريخ الفكر البشرى، وفهم حياتنا كلها، وأخيرًا لإدراك الغاية من وجودنا.

- **المفهوم الثانى**: يقول البعض، إذا سَلَّمنا بوجود الخالق الذى خلق الكون، ووضع فى الطبيعة القوى والقوانين التى تديرها. فما ضرورة القول بقيام الإله بتنظيم الكون وتدبير شئونه أولًا بأول؟

لقد كان فلاسفة اليونان القديم (وعلى رأسهم أرسطو) أول من طرح هذا المفهوم. فقالوا إن الإله بعد أن خلق الكون ونظمه انشغل بما يليق بسموه وعُلُوِّه، انشغل بذاته. لقد حاول الفلاسفة بذلك تنزيه الإله عن الانشغال بها دونه، فكانت النتيجة أنهم عزلوه عن خلقه، وجعلوه **إلـهًـا ليس له أهمية عملية فى حياتنا**.

لكن الديانات السماوية أغلقت هذا الباب فى وجه الشكاكين ومن يمسكون العصا من الوسط، فبينت لنا **أن الله يُدَبِّر الوجود طوال الوقت، من خلال وبواسطة القوانين**. فقوة الجاذبية مثلًا لا تعمل بذاتها، بل إن الله هو الذى يمدها بقوتها فى كل لحظة، وتلك هى الحال مع جميع قوانين الطبيعة الأخرى.

وإذا لم يكن الله قائمًا على الوجود بشكل متواصل، فسوف تتوقف الجاذبية وغيرها من قوى وقوانين الطبيعة عن العمل، بل سوف تنهار الطبيعة نفسها. أى **أن الله لا يزال يخلق الطبيعة وقوانينها، ويعيد خلقها من جديد فى كل لحظة، على نحو متواصل**.

لا شك أن هذين المفهومين معًا يجمعان بين التفسير الغائى والتفسير الآلى، ويحلان الكثير، والكثير جدًّا، من التعارض الظاهر بين النظرة الدينية والنظرة العلمية للوجود.

الفصل الثالث

الفكر الدينى فى الميزان

يرى المهتمون بنشأة التدين وتاريخه أن المفاهيم الدينية والأخلاقية قد ظهرت بشكل بدائى عند نشأة البشرية، ثم **تطورت تدريجيًّا نحو الاكتمال**. بينما نفهم من ظاهر نصوص الديانات السماوية، أن هذه المفاهيم **قد وُجِدَت منذ البداية على كمالها**، بل إن الإنسان منذ خَلْقه كان على صلة مكاشفة مع الله (الحوار بين الله ﷻ وبين آدم عليه السلام)، لذلك ينبغى بذل الجهد من أجل المواءمة بين هذا المفهوم وبين علم الأديان.

الأساطير (فلسفة ما قبل الفلسفة)

جاء فى موسوعة أديان العالم:

«لا توجد جماعة بشرية – مهما تكن بدائية – ليس لديها **أفكار** عن **موجودات** أو كيانات تعلو فوق الطبيعة».

إن نشأة الفكر الدينى يرتبط عند الإنسان بنشأة العقل وإدراكه أن له ذاتًا تميزه. **فبدأ العديد من التساؤلات** يلح عليه: هل لهذا الوجود خالق؟ هل هناك بعث بعد الموت؟ ما الخير وما الشر؟....

وعندما بدأ الإنسان فى البحث عن أجوبة لمثل هذه الأسئلة، حتى يُرضى نزعته البحثية

وحتى يستطيع التعايش بسلام مع نفسه ومع هذا الوجود المُبْهَم، لم يجد أمامه إلا **الخيال المتمثل فى الأساطير**، وكان قد لجأ إليها من قبل لتفسير **الظواهر الطبيعية** المحيطة به، مثل لماذا تشرق الشمس وتغرب؟ ما سبب الفيضان؟ لماذا تسقط الأمطار؟...

وهكذا أصبحت الأسطورة هى محاولة الإنسان الأولى لتفسير الظواهر الطبيعية (**بديلًا عن العلم**)، ثم لتبرير وجوده وخلقه ولفهم طبيعة وماهية الخالق (**بديلًا عن الدين**).

ولم يجد الإنسان فى خبرته المعتادة إلا الصورة البشرية، بكامل انفعالاتها وسلوكها (بمحاسنها ومساوئها) ليخلعها على الآلهة العظمى (مثل: إيزيس، وأوزوريس، وزيوس)، وهكذا **عبد الإنسان نفسه دون أن يدرى**.

وقد طرح خيال الإنسان تصورات **لآلهة أدنى** على هيئة الحيوانات، كعجل أبيس عند الفراعنة. كما **زاوج بين الهيئتين**، فتصور إلـهًا مثل «أبو الهول»، الذى رأسه رأس آدمى وجسمه جسم أسد.

الفلسفة

عندما أصبح العقل البشرى أكثر نضجًا، أدرك الإنسان **عبث تصوراته الأسطورية**، عندئذ تقدمت المعرفة خطوة أخرى، **تقدمت نحو الفلسفة**.

وقد بدأت الفلسفة (مثل الأساطير) **بالاهتمام بالأصل المادى للوجود** (الخلق من التراب، الماء، الهواء، النار). ثم قامت **بمعالجة الأسئلة المعرفية الشاملة**، فتبلورت مباحث الفلسفة الرئيسية الثلاثة: **الوجود، المعرفة، الأخلاق**[1].

وإذا كانت الفلسفة قد أخذت بيد البعض إلى تصورات لا بأس ببعضها، كما حدث مع سقراط وأفلاطون وأرسطو ومع أنتونى فلو، فإن الفلسفة **أغرقت الكثيرين فى بحار من الحيرة والاغتراب**[2].

(١) للتعريف بالفلسفة ومجالاتها، راجع: قبل أن تقرأ هذا الكتاب.

(٢) **يجسد الحيرة والاغتراب، موقف جان بول سارتر**، مؤسس الفلسفة الوجودية الإلحادية. فحين اقترب الموت من سارتر، طلب من رفيقة حياته سيمون دى بوفوار أن تأتى له بقس!، وأبدت المرأة دهشتها الشديدة واستنكارها لما يطلبه الفيلسوف المسكين وقالت: سآتى لك بكاردينال، فرفض وقال: لا أريد كاردينالًا، إنهم يَغِشُّون الإله، إنما أريد قسًّا متواضعًا من قرية مغمورة. وجاءت له بالقس، **واعترف سارتر بهزيمته وأخطائه، أملًا فى النجاة**.

ومو قف سارتر قريب جدًّا من موقف الفيلسوف الفرنسى الملحد فولتير إزاء الموت، فقد طلب قسًّا ليسمع =

وحتى بالنسبة لمن كانوا أكثر توفيقًا، فقد فشلوا فشلًا ذريعًا فى الوصول إلى القول الفصل حول تحديد هوية الإنسان، ومعنى الحياة، والغايات من الخلق، ومعرفة الخالق، وغيرها من قضايا الفلسفة.

الإنسان مع الإله والدين[1]

علاقة الإنسان بالله... علاقة عاطفية

علاقة الإنسان بالدين... علاقة عقلية

الإنسان والوجود الإلهى...

إن الإنسان ليس فى حاجة إلى دين لإدراك وجود الله! فالوعى بوجود الله شعور فطرى، رَكَّبَه الله فى الجانب العاطفى عند الإنسان. ويقوم الإنسان بقبول (أو تأسيس) نظامه الدينى كَبِنْية تعلو هذا الشعور، ولا تشترط هذه **العاطفة** أن يشتمل النظام الدينى على صفات محددة للإله، كما لا تستلزم توضيح الغايات من الخلق، ولا تشترط أى طقوس لعبادة الإله الخالق،إنما تتطلب تأكيد وجود الإله من حيث المبدأ وحسب.

لذلك، كما يتم إشباع هذا الوعى الفطرى بوجود الله بالعقيدة الصحيحة وبالعبادة الحقة، **فيمكن إشباع هذا الوعى بعقيدة وعبادة وثنية أو بدائية،** تم استبعاد العقل تمامًا عن النظر فيها.

ويُعَرِّفنا الإسلام أن الله قد زرع هذه الفطرة بذاته فى النفس البشرية، دون وساطة من مَلَك مقرب أو نبى مُرسَل، كما يخبرنا القرآن الكريم:

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

=اعترافه قبيل موته، لكن القس رفض تقديم الغفران له ما لم يوقع على اعتراف بإيمانه بالمذهب الكاثوليكى! فثارت ثائرة فولتير وطرد القس، وكتب بيانًا جاء فيه: «**إننى أموت على الإيمان بالله، ومحبة أصدقائى، وكراهية أعدائى، ومقتى للخرافات والأساطير الدخيلة على الدين**».

(١) المفاهيم الواردة تحت هذا العنوان، مستقاة عن كتاب المهندس الدكتور محمد الحسينى إسماعيل: الدين والعلم وقصور الفكر البشرى. عام ١٩٩٩ - مكتبة وهبة.

وينبغى أن نؤكد أن كَوْن علاقة الإنسان بالله علاقة عاطفية، لا يعنى استحالة، أو عدم الحاجة إلى إقامة الدليل العقلى على وجود الله ﷻ. فالكتاب الذى بين يديك «رحلة عقل» إنما هو رحلة عقلية لإقامة هذا الدليل.

الإنسان والدين

لقد جعل الله ﷻ **علاقة الإنسان بالدين علاقة عقلية**، يمكن أن يبرهن عليها العقل البشرى، ويخضعها للتحليل والاستدلال والاستنباط، كما جاء فى القرآن الكريم:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ ﴾ [النساء: ١٧٤]

وقد أظهرت الدراسات **تشابهًا كبيرًا فى النسق الدينى بين الشعوب البدائية وبين الشعوب الأكثر تحضرًا**، مما يتحدى النظرية التى تقول بأن الدين هو انعكاس للحياة الاجتماعية والثقافية والمادية، كالأدب والشعر والفن والفلسفة.

إن قولنا إن علاقة الإنسان بالدين علاقة عقلية، لا ينفى وجود **الرغبة الفطرية لدى الإنسان فى اعتناق دين ما**، أما دور العقل فهو إدراك صحة المضامين الدينية. لذلك ينبغى **القيام بالفصل الدقيق والصارم** بين الشعور الفطرى العاطفى(متمثل فى الوعى بوجود الله) وبين الفكر العقلانى (الذى يتمثل فى إدراك صحة المضامين الدينية)، حتى لا يفقد الإنسان **طريقه الصحيح فى التوجه إلى الله**، وهو غاية الغايات من خلق الإنسان فى جميع الديانات.

دين واحد، فى إصدارات متعددة...

ويخبرنا القرآن الكريم أن الدين عقيدة(١) وشريعة(٢)، **وأن العقيدة فى كل الديانات واحدة، أما الشريعة فتختلف من دين إلى دين:**

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ [الشورى: ١٣].

(١) العقيدة: الإيمانيات والمعتقدات، وهذه اتفق عليها كل المرسلين، فما من نبى إلا وقال لقومه: (اعبدوا الله ما لكم من إله غيره). أى أن عقيدة كل الأنبياء والرسل هى التوحيد.

(٢) الشريعة: هى ما ينظم حياة الناس، فتحل لهم ما يحله الله وتحرم عليهم ما يحرمه الله، وتأمرهم بما يحب الله وتنهاهم عما يبغض.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [البقرة: ٦٢].

﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾[البقرة: ١٣٣].

أى أن الدين واحد منذ آدم عليه السلام، وإن تعددت الشرائع (إسلام - مسيحية - يهودية).

وقد أدرك الكثيرون من الفلاسفة الغربيين هذه الحقيقة، وعَبَّرَ عنها جورج برنارد شو بقوله: يوجد دين واحد، وصل إلينا فى أكثر من مائة إصدار.

لذلك تشترك الأديان فى العديد من السمات والمفاهيم، وأهمها:

١- الإيمان بإله أزلى أبدى، خالق لهذا الوجود.

٢- أرسل الإله رسلًا يُعَرِّفون البشر بربهم، وبالغاية من خلقهم.

٣- المخاطَبون بالرسالة، هم الشعب المفضل عند الإله.

٤- توجد قصة خلق للكون والإنسان.

٥- تحتوى الديانة على قصص غيبية وأحداث مقدسة.

٦- تشتمل الديانة على شعائر وعبادات، كالصلاة والصيام.

٧- تحدد وقتًا مناسبًا للتأمل.

٨- لها أماكن مقدسة يُحَجُّ إليها.

٩- تتحدث الديانة عن حياة أخرى خالدة، تقترب فيها الأرواح من الإله.

١٠- تحدد الديانة نظامًا أخلاقيًا، يطلب الخالق من عباده الالتزام به (غائية)، ويحاسبهم على ذلك.

الدين مفهوم نسبى، أم حق مطلق

ذكرنا أن هناك عقيدة واحدة وديانات متعددة، كما ذكرنا أن علاقة الإنسان بالدين علاقة عقلية، فهل يمكن دراسة أى دين بشكل مستقل لإقامة الحجة على صدقه أو خطئه (أى أنه حق

مطلق)، أم ينبغى أن يكون ذلك من خلال مقارنته بالديانات الأخرى (مما قد يعنى عدم صدق مفهوم الدين على الإطلاق)؟

والحقيقة أن الدين حق مطلق؛ إذ يمكن تقويمه بشكل موضوعى، عن طريق تقويم مكوناته الأساسية الثلاثة (محتوى الرسالة - الرسول - الإله).

- **المُكَوِّن الأول**: يختص بمحتوى النص الدينى وطبيعته، وينبغى أن يتميز النص الدينى الصحيح بالآتى:

١- أن يُعَرِّف الإنسان بالإله الخالق.

٢- أن يوضح للإنسان الغاية من وجوده.

٣- تقع المفاهيم الدينية فى إطار الإدرك العقلى للإنسان.

٤- أن يقدم الدين البرهان العقلى على صحة ما يعرضه من مفاهيم ومسلمات.

٥- لا يوجد تناقض بين المضامين الدينية التى تطرحها الرسالة.

٦- لا يتناقض النص الدينى مع قانون الفطرة الأخلاقى للإنسان.

٧- لا تتناقض المفاهيم الدينية مع مفاهيم العلم.

٨- ألاَّ يكون منفصلًا عن واقع حياة الإنسان.

٩- أن يتحرك معنى النص الدينى مع التقدم الحضارى للإنسان، فثبوت المعنى عند مفاهيم وقت التنزيل، يعنى أن الخالق لم يأخذ فى الاعتبار التطور العلمى والحضارى الذى يُجريه على الإنسان على مدار حضاراته.

- **المكون الثانى**: ويختص بمفهوم الرسول وصفاته، وينبغى أن:

١- تحدد الرسالة كيفية اتصال الخالق بالرسول وبمخلوقاته.

٢- تبين الرسالة أن الأنبياء والرسل مسئولون عن التبليغ عن الإله، فلم يأتِ الرسل للتعريف بأنفسهم.

٣- تؤكد الرسالة أن الأنبياء والرسل هم الذروة فى الكمال الإنسانى المحدود، حيث إنهم يمثلون القدوة البشرية للإنسان. وذلك بمفهوم أرقى كثيرًا من مفهوم أبطال الشعوب فى الملاحم والأساطير.

• **المكون الثالث:** يختص بمفهوم الإله وطبيعته، وينبغى فى الدين الحق أن يحتوى على:

١- **برهان الإله الخالق على وجوده** بشكل قاطع، وعلى **فطرة وجوده** فى النفس البشرية.

٢- اتصاف الإله **بالكمالات المطلقة**، وأن حكمته وقدرته تتعالى فوق الحكمة والقدرة البشرية.

٣- عند عرض صفات الإله لا مفر من استخدام الألفاظ التى نستخدمها فى الحديث عن الإنسان، مثل الوجود والغضب والرحمة والسمع والبصر. فنحن لا نملك مواد أخرى نصوغ منها تصورنا عن الله، وهذا ما يُسَمَّى عند علماء العقائد **«النزعة التشبيهية»**. ولا يعنى ذلك بأى حال من الأحوال أن الإله يُشْبهنا.

وقد تعامل القرآن الكريم مع هذا الموقف بأسلوب أزال كل لَبْس:

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾[الشورى: ١١].

فالله - عز وجل - قد استخدم أسلوب التشبيه (ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ)، وقَدَّم لذلك بتنبيهنا إلى أن التشبيه يأتى فى إطار من التنزيه المطلق (لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ).

هذه البنود الثلاثة هى الخطوط العريضة، التى يمكن أن نحكم من خلالها بشكل موضوعى على صحة أو خطأ الديانة المعنية بالدراسة.

فبديهى أنه لا مكان لديانة **تصف الإله بصفات إنسانية متدنية، أو صفات وثنية أسطورية. أو تصوره فى صورة حيوان أو مسخ أحمق**، تتعالى عليه مخلوقاته البشرية حكمةً وذكاءً وقدرة. أو تعتبره إلـهًا أحمق متسرعًا لا يدرى ماذا يفعل.

ولا مكان لديانة تخبرنا نصوصها أن **أنبياءها زناة وقتلة وسفاحون وخونة.**

ولا مكان لديانة **تطفح نصوصها بالفاحشة** فى أحط وأقذر معانيها.

وقبل كل شىء، لا مكان لديانة **لا تعطينا البراهين العقلية الواضحة والكافية** للحكم على صحة ما جاء بها. وقد ضرب الإسلام أوضح مثل على ذلك، فلم يكتفِ القرآن الكريم بسَوْق الأدلة، بل تحدى الآخرين أن يقدموا البراهين العقلية على صحة ما يقولون: ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ [المؤمنون: ١١٧].

ديانات البشر الرئيسية

بعد هذا العرض لما ينبغى أن تكون عليه المكونات الثلاثة الرئيسية للدين الحق (الرسالة- الرسول - الإله)، نعرض باختصار الديانات الرئيسية الثلاث التى يدين بها البشر. ويستطيع القارئ النظر فيما بينها من سمات مشتركة، ويستطيع كذلك تقويم موقف هذه الديانات من المكونات الثلاثة الرئيسية.

أولًا: أديان التوحيد السماوية

وتشمل: الإسلام: ويعتنقه حوالى ١,٥ مليار نسمة[١]

والمسيحية: ويعتنقها حوالى ٢ مليار نسمة

واليهودية: ويعتنقها حوالى ١٤ مليون نسمة

بالإضافة إلى السمات العامة للديانات، تشترك أديان التوحيد فى المفاهيم التالية:

- خلق الإله الكون وجميع موجوداته من عدم، على مهل (فى ستة أيام).
- الإنسان مخلوق يتميز بالثنائية: جسد مادى، وروح غير مادية غير فانية.
- خُلِق الإنسان فى جنة، أُخرج منها بسبب عصيانه للإله.
- يوسوس الشيطان للإنسان بمعصية الإله.
- يُبعث الإنسان بعد الموت، ليُحاسب على أفعاله، ويلقى ثوابًا أو عقابًا فى الحياة الأخرى.
- فى وقت ما، كان هناك فيضان غطى الأرض وقضى على العصاة.

ونعرض هنا فكرة عامة عن كل من ديانات التوحيد الثلاث:

١- الإسلام

الإسلام خاتم الأديان السماوية، ويقوم كتابه «القرآن الكريم» على البرهان العقلى بالإضافة إلى مخاطبة الفطرة الدينية فى الإنسان، لذلك أُرسل للعالمين فى كل زمان ومكان وحتى قيام الساعة.

---

(١) إحصائيات عام ٢٠٠٧..

ويقوم الإسلام على ثلاثة مفاهيم: الإسلام، الإيمان، الإحسان[1].

الإسلام: «بُنى الإسلام على خمس: **شهادة أن لا إله إلا الله** وأن محمدًا رسول الله، وإقامة **الصلاة**، وإيتاء **الزكاة**، وصوم رمضان، **وحج البيت** لمن استطاع إليه سبيلًا».

لذلك يدخل الإنسان فى الإسلام بالشهادة لله ﷻ بالإلوهية ولمحمد ﷺ بالرسالة. ويؤمن المسلم فى حق الله **بكل ما يليق من صفات الكمال والتنزيه**، وفى حق الرسول ﷺ بكل ما يليق من **صفات الكمال البشرى**.

الإيمان: «**أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقَدَر خيره وشره**».

وتمثل هذه الأركان الستة **أمور الغيب** التى ينبغى أن تستقر فى قلب المسلم ليسلك فى حياته بأسلوب يؤكد هذا الإيمان. فالإيمان ما وقر فى القلب وصَدَّقَه العمل.

الإحسان: «**أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**».

فالمسلم يؤمن بأنه يستطيع الوصول إلى درجات عليا من القرب من الله عن طريق المجاهدة والتَفَكُّر والذكر.

وهذه المفاهيم الثلاثة هى الأساس الذى يقوم عليه الإسلام **كمنهاج حياتى شامل** يحدد القرآن الكريم والسنة النبوية خطوطه العريضة.

٢ - اليهودية

تؤمن اليهودية الكتابية [2] بأن الله قد **اختار الشعب اليهودى ليعلن له عن ذاته** حتى يسير فى طريق الله، فيكون نورًا للأمم، فيعرفون الله عن طريقهم[3]. وتقوم الديانة اليهودية على:

١ - **هذا العهد الذى قطعه الله مع الآباء** (إبراهيم وإسحاق ويعقوب)، وأرساه لموسى وشعبه عند خروجهم من أرض مصر[4]، وأمَّنهم على حفظه. إلا أن تلك الأمانة قابلها اليهود فى معظم الأحيان بالتمرد والعصيان.

---

(١) اجتمعت هذه المفاهيم الثلاثة فى الحديث النبوى الصحيح الذى رواه الإمام مسلم فى صحيحه.

(٢) تؤمن اليهودية الكتابية بكتابات العهد القديم كلها، وتشمل التوراة (كتب موسى الخمس) بالإضافة إلى ما يُعرف بكتب الأنبياء والكتابات.

(٣) إشعياء ٤٢.

(٤) تثنية ٥: ٣.

٢- ونظرًا لقداسة الله المطلقة وكونه يكره الشر، تجلب مثل هذه الخطية على فاعلها غضب الله وتورِثه الذنب، وتجلب على الأرض كلها اللعنة والألم، وهذا هو قضاء الله العادل.

٣- حتى نتخلص من الخطية (خطايا التعمد والسهو وأيضًا الخطايا القلبية[١]). نحن دائمًا فى حاجة إلى بداية جديدة، على أساس صفات الله من حب ورحمة وغفران، ليس لشعبه فقط، بل لكل الأمم[٢]، فهو كثير الرحمة وبطيء الغضب[٣].

وليس الخلاص على أساس الصلاح الإنسانى[٤]، ولكن يمكن تقديم الذبائح كرمز للتكفير والتطهر من الذنوب. وأشهر طقوس الذبائح ما يحدث فى يوم الكفارة[٥]، وفيه تُقدَّم ذبيحتا الكاهن كرمز للتكفير عن نفسه وعن عائلته وشعبه.

٤- والشريعة (فرائض وأحكام) هى الأساس الذى يُعتبر الحيد عنه خطية وذنب، وقد أعطاها الله للشعب اليهودى ليعمل بجميع وصاياه[٦]. وحفظ الوصايا هو طريق البركة.

٥- أما غاية الإيمان اليهودى فهى تحقيق وعود الله. لذلك يمتلئ العهد القديم بالوعود والنبوءات عن المَسِيَّا (المُخَلِّص)، وهناك نبوءات عن العهد الجديد الذى سيقطعه الله مع اليهود فيجعل الشريعة مكتوبة على قلوبهم وليس على الحجر، ويمسح خطيتهم بأن يعطيهم قلبًا جديدًا وروحًا جديدة[٧،٨].

٣- المسيحية

تدور المسيحية حول المسيح. فتبدأ من حيث انتهى العهد القديم الملء بمئات النبوات عنه: ميلاده المعجز، وحياته الكاملة (فهو لم يقترف إثمًا واحدًا)، وصلبه وموته وقيامته. وقد وقعت هذه النبوءات بحذافيرها. وتقوم الديانة المسيحية على:

---

(١) مزمور ١٩: ١٢.
(٢) يونان ٤: ٢.
(٣) يوئيل ٢: ١٣.
(٤) هو ١٤، مز ٥٣.
(٥) لاويين.
(٦) تثنية ٢٨ - تثنية ١٢.
(٧) حزقيال ٣٦: ٢٦.
(٨) إرميا ٣١.

١ – العهد الجديد الذى أسسه المسيح بدمه، والذى تنبأ به أنبياء بنى إسرائيل من قبل. وبه صار **تَعامُل الله مع البشر الخطاة على أساس أن المسيح قد فداهم بدمه المسفوك على الصليب.**

٢- **الصليب هو الحل لمشكلة الخطية والخلاص منها**، فقد قدم المسيح نفسه ودمه طواعية كذبيحة عن خطايا البشر، «لأنه بدون سفك دم لا تحصل مغفرة»[١]. لذلك فكل ذبائح وطقوس العهد القديم تشير إلى الصليب.

٣- لأن المسيح هو الإنسان الكامل والإله الكامل – ما يُسمَّى **بعقيدة التَجَسُّد** – فهو القادر على أن يُكَفِّر عن خطايا البشر. فلأنه غير محدود كإله، فهو يستطيع التكفير عن العقاب غير المحدود للبشر (جهنم الأبدية). ولأنه أخذ صورة إنسان، فهو يستطيع أن يكون مَثَلًا لهم.

وهذا التجسد يعود إلى حقيقة **أن الله واحد مثلث الأقانيم**[٢] (الثالوث القدوس: الآب والابن والروح القدس) مثلما يكون الإنسان أبًا وابنًا وزوجًا فى عين الوقت.

وقد تجسد الابن طواعية آخذًا جسمًا بشريًّا[٣]، كحل قدمه الله للإنسان[٤]. **فأصبح الصليب ملتقى العدل الإلهى والرحمة الإلهية**، فالعدل فى أخذ القصاص، والرحمة فى أخذه من الإبن الحبيب الذى دفع دَيْنَ الذنوب[٥]،[٦].

٤- **تُعتبر شريعة وتعاليم المسيح تكميلًا لشريعة موسى**[٧]. وقد أعطى المسيح الناموس (الشريعة) الذى يسلك به المفديون (المسيحيون)، بمعونة روح الله القدوس (الروح القدس)، وقد وضع الله فى المؤمنين طبيعة جديدة **تستطيع أن تحيا مثل المُعَلِّم: المسيح.**

٥- **وغاية الإيمان المسيحى هى الخلاص. ويبدأ الخلاص بالإيمان بالكفارة** (دم المسيح الذى قدمه طواعية دون مقابل)[٨]، وينتهى بالتحرير النهائى من الجسد والخطية والعالم، حيث يسكن الله مع الناس فى سموات جديدة، وأرض جديدة[٩].

(١) عبرانيين ٩: ٢٢.
(٢) الأقنوم: مظهر – تعيين.
(٣) فيلبى ٢ ٥ – ١١.
(٤) ٢ كورنثوس ٥: ١٩
(٥) مزمور ٨٥: ١٠.
(٦) يوحنا ١: ١٧.
(٧) متى ٥: ١٧.
(٨) رومية ٣: ٢٤ – ٢٥.
(٩) الرؤيا ٢١: ٣ - ٤.

ثانيًا: الهندوسية

يعتنق الهندوسية حوالى ٩٠٠ مليون إنسان، يعيش معظمهم فى شبه القارة الهندية. والهندوسية مجموعات مختلفة، تشترك فى أربع عقائد أساسية:

(١) الكارما Karma: وهى قانون الجزاء.

فالكون نظام إلهى قائم على **العدل الصارم**، وفيه يتم إحصاء كل ما يفعل الإنسان لينال عليه الجزاء، إما فى هذه الحياة، أو بعد الموت عن طريق التناسخ.

(٢) عقيدة التناسخ The Doctrine of Re-Incarnation:

يقضى الموت على الجسد المادى، **أما الروح فتلحق بدورة التناسخ**. فإذا كانت الروح لإنسان خَيِّر تقمصت جسد إنسان من طبقة أعلى **(كنوع من الثواب)**، وإذا كانت لإنسان شرير لحقت بجسد إنسان من طبقة أدنى أو جسد حيوان **(كنوع من العقاب)**. وفى كل الأحوال لا يدرى الإنسان شيئًا عن حياته السابقة (أى لا يعرف إن كان قد أُثيب أو عُوقب).

(٣) الانطلاق:

بتكرار دورات التناسخ، يتم تطهير الروح من الشهوات واستيفاء ما عليها من ذنوب. عند ذلك **تنجو الروح من تكرار المولد، وتمتزج بالإله** (براهما) كما تعود قطرة المياه إلى المحيط العظيم، **وهذا هو هدف الحياة الأسمى**.

وأفضل سبيل للانطلاق هو **الزهد والسلبية**، فصالح الأعمال وأرذلها تُدخِل الروح فى دورات جديدة من التناسخ.

(٤) وحدة الوجود:

انبثق الكون عن الله، وكذلك روح الإنسان، فهى أزلية أبدية غير مخلوقة، وهى من الإله مثل أن شرارة النار نار. وعندما تُجَرَّد الروح من جسمها المادى تعود إلى الروح الأكبر (الانطلاق).

وعقيدة التثليث ظاهرة فى الهندوسية. فللإله ثلاث صفات، فهو براهما (من حيث إنه خالق)، وهو فشنو (من حيث إنه حافظ) وهو سيفا (من حيث إنه مُهلِك). وهذه الصفات الثلاث كامنة فى الإنسان.

ويقدس الهندوس الحيوانات، **خاصة الأبقار**، ولذلك عدة أسباب. فالبقرة رمز للإيثار لما تعطيه للبشر (اللبن، الجلد، اللحم، الرَّوْث)، كما أنها رمز للأخوة بين الإنسان والحيوان، بل قد تحمل الأبقار أرواح بشر تناسخت فى هذه الحيوانات. لذلك كله ينظر الهندوس إلى البقرة باعتبارها **أم الإنسان الحقيقية**.

ولا شك أن **بعض عقائد الهندوسية موجودة عند بعض معتنقى الديانات السماوية. فنجد مفهوم وحدة الوجود** فى التصوف الفلسفى الإسلامى، كما نجد **عقيدة التثليث فى المسيحية**.

ثالثًا: ديانات الشرق الأقصى

يعتنق هذه الديانات حوالى ٨٠٠ مليون إنسان. وتشمل ديانات الصين الثلاث، البوذية والكونفوشيوسية والطاوية، وكذلك الشنتوية ديانة اليابان.

وتختلف هذه المجموعة (باستثناء الطاوية) عن المجموعتين السابقتين فى أنها **لا تهتم بالأمور الغيبية**، مثل الإله الخالق، وخلود الروح، والحياة بعد الموت، وتعتبر أن هذه الأمور **فوق طاقة العقل البشرى**. كذلك تسمح هذه الديانات لمعتنقيها باعتناق أى معتقدات دينية أخرى، **لذلك لا ينظر إليها الكثيرون باعتبارها ديانات**.

وتركز هذه الديانات على **تعليم الناس كيف يحيون على الأرض**؛ إذ إن النفس والهوى هما أصل الشرور. ففعل الخير يعطى الإنسان سعادة فى حياته وحياة الآخرين، وقد عبر بوذا عن ذلك المفهوم بقوله: الخير يجلب الخير From Good Comes Good، **ولا ينبغى التفكير فى انعكاس ذلك على حياة الإنسان بعد الموت**.

وإذا نظرنا إلى الفوارق بين ديانات الشرق الأقصى الأربع، وجدنا:

أن **البوذية Buddhism** تدعو للزهد والتَّسول ونبذ **كل أشكال المتعة**، كالمال والجنس، وتؤمن بشكل من أشكال **التناسخ** الذى تؤمن به الهندوسية. كما تؤمن بنشوة عظمى (**النيرفانا**) يمكن أن يحققها الإنسان فى هذه الحياة، وربما فى حياة تالية (عند بعض الفرق البوذية).

وتدور البوذية حول ما يُعرف **بالحقائق الأربع المقدسة**:

الألم موجود، له سبب، قابل للزوال، الوسيلة لإزالة الألم موجودة.

وهذه الوسيلة هى ما يعرف بالطريق ذى الثمانى شُعَب، وهى صحة: الاعتقاد - العزم - القول - العمل - العيش - الجهد - الفكر - التأمل.

ولما كان بوذا قد ترك حيز الإله فى نفوس أتباعه فارغًا، فقد غلبت على الكثيرين من البوذيين فطرة الإيمان بالإله، فاعتبروا بوذا شخصية ثنائية: ناسوتية (ذا طبيعة إنسانية)، ولاهوتية (حلت فيه روح الإله)، وذلك مثل العقيدة المسيحية فى المسيح. ولهذا أُقيمت التماثيل لبوذا، وعُبد بوذا، وقدمت القرابين لبوذا، بالرغم من أنه ينكر أنه رسول ولا يتحدث بتاتًا عن الإله!

أما الكونفوشيوسية **Confuciantism** فتسمح بمختلف المتع، وتُشجع تذوق الجمال والفن والموسيقى. وأهم ما تدعو إليه الديانة، أن تعامل الآخرين كما تحب أن يعاملوك. وتقدس الكونفوشيوسية الولاء للعائلة والأجداد أكثر من الولاء للوطن.

وتتفق الكونفوشيوسية والبوذية فى قصة الخلق التى تبدأ بانفلاق البيضة الكونية Cosmic Egg[1].

أما الشنتوية **Shinto** - ديانة اليابان - فتقدس قوى الطبيعة والوطن والإمبراطور والأبطال القوميين، وتعتبر أن الإمبراطور سليل إله الشمس الذى خلق أرض اليابان المقدسة، لذلك وُضع شعار الشمس على علم اليابان.

وتختلف الطاوية **Taoism** عن ديانات الشرق الأقصى الثلاث الأخرى، فى تركيزها على العالم الآخر. لذلك تسعى إلى فهم الذات الإنسانية وتهذيبها، والوصول بها إلى أقصى درجات العلو من خلال التأمل والمجاهدة «اليوجا». وتُعتبر الطاوية الديانة الصوفية للشرق الأقصى.

القارئ الكريم...

تتبعنا فى هذا الفصل نشأة الفكر الدينى، متمثلًا فى الأساطير والفلسفة.

ثم انتقلنا إلى الأديان، وذكرنا أن علاقة الإنسان بالله علاقة فطرية عاطفية، بينما علاقة الإنسان بالدين علاقة عقلية، لذلك توجد عقيدة واحدة، وصلت إلينا فى أكثر من مائة إصدار.

---

(١) من التحف الصينية الشهيرة «البيضة» المزخرفة التى نجدها فى محلات التحف والهدايا.

وتَعَرَّضنا للسمات المشتركة للأديان، وذكرنا أن **الدين الحق مفهوم مطلق** يمكن تقويم مكوناته الثلاث (الرسالة - الرسول - الإله) بموضوعية تستبعد الكثير مما تشتمل عليه ديانات البشر من ضلالات. ثم طرحنا سمات كل من الثلاث مجموعات الرئيسية من الديانات.

والآن يأتى دور عرض مفهوم أصبح سائدًا فى العالم، وينبغى أن نحلله لنفهم جذوره ومكوناته، وهو ما يُعرف بالديانة الطبيعية.

الفصل الرابع

الديانة الطبيعية والعلمانية في الميزان

الديانة الطبيعية Natural Religion مذهب فكرى، يدعو إلى الإيمان بدين مبنى على العقل، لا على الوحى، ويُعرف كذلك بمذهب الربوبية Deism.

ويقوم هذا المذهب على أن الله قد خلق الكون ووضع قوانينه التى تديره الآن بدون تدخل منه. تمامًا كما نقول بأن صانع الساعة قد صنعها، وهى تدور الآن بدون الحاجة إليه. ويُجمل المتخصصون هذا المعنى فى قولهم إن «الكون مغلق Closed Universe»، أى أنه مكتفٍ بذاته؛ إذ يحوى داخله كل ما يكفى لتسييره وإدارته.

إن هذا المنظور يستبعد الإله وكل ما يتصل به من غيب عن الكون والوجود، كما ينزع القداسة عن كافة الظواهر بما فى ذلك الإنسان. وبذلك فإن للديانة الطبيعية علاقة قوية بمفهوم العلمانية، الذى هو مفهوم سياسى، اجتماعى، دينى.

وكلمة العَلمانية Secularism مشتقة من الكلمة اللاتينية Seaculum، وكانت تعنى فى العصور الوسطى العالَـم (أو الدنيا) فى مقابل الكنيسة. ثم أصبحت مرادفة لكلمة «الدنيوية».

ويتبنى المنظور العلماني ثلاث فئات من الناس:

١- الملاحدة، الذين لا يؤمنون بوجود الإله.

٢- **أنصار الديانة الطبيعية.**

٣- متدينون، يرون أنه ينبغى فصل الدين عن الحياة العامة؛ إذ إن الدين علاقة خاصة بين الإنسان وربه.

لذلك سنعرض (ونحلل) فيما يلى تلخيصًا للفكر العلمانى، ثم نشير إلى ما يؤمن به أنصار الديانة الطبيعية[1].

أولًا: يغفل العلمانى «النفس والروح» كجزء أصيل فى بنية الإنسان، ولا يُثبت إلا جسده المادى والقوانين الطبيعية التي تحكمه.

ويرى العلمانى أن المادة وقوانينها الطبيعية قد خلقت نفسها، وهو بذلك **يسبغ صفات الإله الخالق عليها**، أى أنه أقر بوجود الإله (الذى هو الكون)، لكنه إله لا يدرى ماذا خلق وماذا يفعل.

كذلك فإن مفهوم **«الإنسان المادة»** لم يقدم أى تفسير للأمور المميِّزة للإنسان، والتى تُعتبر من البراهين الدالة على وجود الله، مثل الفطرة الأخلاقية والوعى الفطرى بوجود الإله، والفطرة الدينية، والعقل بملكاته المتعددة...

ثانيًا: يرى العلمانى أن على الإنسان حصر اهتمامه بقضايا العالم والطبيعة، وأن يتجاهل كل ما وراء الطبيعة:

إن العلمانى هنا لا يعلم أن الدين قد صار علمًا، **يُستشهد عليه علميًّا وفلسفيًّا**. كذلك فإن **الإيمان بالدين ليس خيارًا بين الرفض والقبول**، ولكنه ضرورى ليدرك الإنسان حقيقته وحقيقة الوجود من حوله، وإلا عاش فى خواء نفسى واغتراب.

كذلك **يغفل العلمانى** أن الدين الحق يدعوه إلى الاهتمام بقضايا العالَم والطبيعة، بل **ويعتبر العقل والعلم والمنطق الرياضى طرقًا للاستدلال على وجود عوالم ما وراء الطبيعة.**

---

(١) عن كتاب المهندس الدكتور محمد الحسينى إسماعيل: الدين والعلم وقصور الفكر البشرى. عام ١٩٩٩ - مكتبة وهبة.

ثالثًا: يدعو العلمانى إلى تحرير العقل من سلطان الدين، ليكون سلطانه مطلَقًا:

إن هذه الدعوة ناتج حتمى (نقدره) لصراع الإنسان المرير مع المفاهيم الكَنسِية. وناتج حتمى أيضًا **لكل فكر دينى متطرف** يدعو لإلغاء العقل وغلق باب الاجتهاد. لذلك قال الفيلسوف الألمانى نيتشه: **إن الإيمان المسيحى معناه الانتحار المتواصل للعقل البشرى**. وإذا كان نيتشه قد شن حملته على المفاهيم المنحرفة فى المسيحية واليهودية، فإن العلمانى يُعمم حملته لتشمل جميع المفاهيم فى جميع الديانات.

رابعًا: يجعل العلمانى الإنسان هو الـمُطلَق، بدلًا من الله.

يجسد نيتشه موقف الملاحدة بعد أن بهرتهم قدرة العلم والقوانين الطبيعية على تفسير الظواهر الطبيعية بقوله: «**إن الإله قد مات، وسيظل ميتًا، ونحن الذين قتلناه**».

وبديهى لم يجد نيتشه بعد موت الإله، إلا الإنسان ليضعه مكانه، فأخذ يُبشر بمجىء **الإنسان الأعلى أو السوبر مان**، القادر على كل شىء، والمرجعية لكل شىء. لذلك ترى العلمانية **أننا موجودون فى عالم عبثى، ليس فيه غايات من الخلق أو الوجود.**

خامسًا: يضع العلمانى التجربة الحسية محل المعارف النقلية والوجدانية، ويستعيض بالعلم الطبيعى عن الدين والفلسفة.

تمثل المعارف النقلية والوجدانية رافدًا أساسيًّا للدين، كما تمثل عوالم ما وراء الطبيعة المحطة النهائية لاهتماماته، وتشاركه الفلسفة هذا الاهتمام، وبذلك فهما يتصديان لشرح ما يتجاوز مجالِ وقدرة العلم الطبيعى. فإذا كان الفيزيائيون ينطلقون فى علمهم من الانفجار الأعظم الذى أنشأ الكون، ولا يهتمون بما قبل الانفجار الأعظم، فإن الدين والفلسفة يستكملان هذا النقص، ويبحثان فى كيف نشأ الوجود من العدم.

كذلك يدرس البيولوجيون الظواهر المادية والأصل المادى للحياة، أما حقيقة الحياة وكيف دَبَّت فى المادة غير الحية، فذلك أمرُ يترك أيضًا للدين والفلسفة.

إذن، فالعلم الطبيعى هو المقدمة لعالم ما وراء الطبيعة، أى أن كليهما يمثلان حلقتين فى متوالية واحدة، ولا يمكن إحلال أحدهما محل الآخر.

سادسًا: يعتبر العلمانى أن الفكر نتاج المخ. أى أن المادة مصدر الفكر، وليس هناك مصدر وراء ذلك:

انتهى الفلاسفة فى بحثهم عن مصدر المعرفة إلى ثلاثة مذاهب أساسية، هى:

المذهب التجريبى أو الواقعى: وفيه يتم إرجاع كل معرفة إلى التجربة أو الواقع، ويكون المخ بمثابة صفحة بيضاء تُطبَع عليها المعارف المكتسبة، دون أن يكون له أى دور أو تأثير فى اكتسابها أو تشكيلها.

- **المذهب العقلى**: يعتبر أن العقل (بالمفهوم غير المادى) هو صاحب الدور الرئيسى فى المعرفة، عكس المذهب السابق.
- **المذهب النقدى**: يقوم بالتوفيق بين المذهبين، ويعتبر أن المعرفة تحوى العنصرين.

من ذلك نرى أن **نظرية المعرفة Epistemology لم تحسم هذه القضية، فكيف حسمها العلمانى، وتبنى المذهب التجريبى / الواقعى، وأنكر المذهبين الآخرين؟**

سابعًا: يستنبط العلمانى الأخلاق من الطبيعة الإنسانية لا من الدين. ويجعل السعادة واللذة، وليس الفضائل الروحية والنفسية، هى معيارها.

يتحرك الإنسان فى حياته نحو تحقيق «احتياجات خمسة» متدرجة متتابعة، تُعرف باسم **مراتب الاحتياجات Hierarchy of Needs** وهى:

الاحتياجات الأساسية Basic needs: تشمل إشباع غرائز الإنسان الأساسية، من مأكل ومشرب ومأوى وجنس....

الأمن الذاتى Security needs: تحقيق الأمن الحالى والمستقبلى.

ويشترك الإنسان فى النوعين السابقين من الاحتياجات مع الحشرات والحيوانات.

الاحتياج الاجتماعى Social needs: يحاول الإنسان إشباع رغبته فى أن يكون عضوًا هامًّا مُقَدَّرًا داخل الجماعة.

الاحترام الذاتى Self Esteem: يسعى الإنسان لأن يكسب احترامه لذاته، ويتحقق ذلك عندما يشعر أن ما يؤديه لا يستطيع أن يؤديه الآخرون.

تحقيق الذات Self Actualization: البحث عن تحقيق الذات، من خلال ترك بصمة واضحة فى أوسع دائرة، أو فى التاريخ الإنسانى.

تدور جميع الاحتياجات السابقة فى فلك الفردية والأنانية، وقد يلجأ إلى طرق غير مشروعة لتحقيقها، بل قد يتحول فى سبيل ذلك إلى وحش كاسر مدمر للآخرين كما يحدث فى نظم الحكم الديكتاتورية. أى أن الغاية تبرر الوسيلة.

لذلك ينبغى الالتزام بمصدر للأخلاق ينظم تحصيل هذه الاحتياجات بمعزل عن الأنانية، ولا يجعل تحقيق السعادة واللذة هو الهدف الأسمى، بل يتجاوز ذلك إلى إشباع الجانب الروحى للإنسان، ولن يكون ذلك المصدر إلا الدين.

ثامنًا: رد القوانين إلى المصالح المادية والخبرة التاريخية لا إلى الشرائع الدينية.

من أجل تحصيل الاحتياجات الخمس السابقة، يقوم المُشَرِّعون بسن القوانين لتضبط أداء الأفراد، حتى لا تحدث تجاوزات فى حق الآخرين وحق المجتمع.

وبديهى، بعد أن تم تجاوز الدين، أن يكون مصدر التشريعات هو ما يرى المُشَرِّعون بخبرتهم أنه يحقق المصلحة.

تاسعًا: يُرجع العلمانيون الشعور الدينى إلى الخوف، وليس إلى الفطرة:

ربما لا يدرى العلمانى المعاصر أن نبذ الدين السماوى واعتباره «خرافة مرعبة»، يرجع إلى التجربة المريرة فى الصراع بين العلم والمفاهيم الكَنَسِية المُحَرَّفة فى العصور الوسطى فى أوروبا.

كذلك لا يدرك العلمانى أن برنامج الإصلاح الدينى Religious Reform الذى وضعه فلاسفة التنوير فى أوروبا فى أعقاب هذا الصراع من أجل بناء الدين الطبيعى، إنما هو استجابة لإحساس الفطرة البشرية بوجود الإله وبالحاجة إلى التدين.

عاشرًا: يرفض العلمانيون مفهوم «فطرية» الحس الإلهى والحس الدينى والحس الأخلاقى، ويرون أن الإنسان «اكتسب» هذه المشاعر بنفس الطريقة التى اكتسب بها سماته الأخرى، ألا وهى تحقيق المصلحة، أى أن «الحاجة أم الاختراع». ويقصدون بذلك أن الإنسان فى مواجهة قوى الطبيعة والشرور والآلام بحث عن قوة كبرى يستشعر فى وجودها الدعم والأمان، فطرح على المستوى العقلى والنفسى مفهوم الألوهية ومفهوم الدين. وهذا ما يقصده نيتشه بقوله «**إن الإنسان هو الذى خلق الله !**».

كذلك ابتكر الإنسان المنظومة الأخلاقية عندما وجد أن الالتزام الأخلاقى يحقق له حسن السيرة وخلود الذكر فى الحياة، كما أنه يشعر بالرضا عند مقاومته للشر. ويضيف البعض أن الإنسان يفعل الخير لذات الخير. وأخيرًا وقبل كل شىء إن لم نتمسك بالأخلاق فسنغرق جميعًا.

ولإثبات خطأ هذه التصورات نعرض فى الفصل القادم الأدلة على فطرية مفاهيم الألوهية والتدين والأخلاق(١). ولتأكيد هذا المعنى، تصف كارين أرمسترونج(٢) الإنسان فى كتابها «تاريخ الإله» A History of God، بأنه كائن روحى. وتقترح اسمًا آخر للجنس البشرى ليصبح **Homo religious (الإنسان الدَّين) بدلًا من Homo sapiens (الإنسان العاقل)**. وتؤكد كارين أرمسترونج بذلك أنه من المستحيل استئصال شأفة الدين من النفس الإنسانية كما يطمع الملحدون، أى أن الأمر ليس «وهم الإله» God Delusion كما يَدَّعى ريتشارد دوكنز.

الديانة الطبيعية والفكر العلمانى

الآن ثم العدم...

ذكرنا أن ثلاث فئات من الناس يتبنون الفكر العلمانى، هم الملحدون وأنصار الدين الطبيعى وبعض المؤمنين. وإذا كان أتباع هذه الفئات يختلفون فى تفسير أصل الوجود، فإن الفارق العملى بين الملحدين وأنصار الدين الطبيعى ضئيل للغاية.

(١) يُساء استغلال الفطرة الدينية من قِبَل تيارات متعددة. فالديكتاتوريون يدفعون شعوبهم لقبول الواقع المُر الذى يحيونه، طمعًا فى الفردوس فى الحياة الأخرى (فكرة أن الدين أفيون الشعوب).

ويقوم بعض الدعاة بالاستيلاء على التبرعات محققين ثروات كبيرة. كما يستغل الدجالون هذه الفطرة فى أمور مختلفة، كعلاج الأمراض وتفسير الأحلام والسحر وفك السحر.

كذلك يدفع الأصوليون فى كل الديانات أتباعهم للالتزام بمفاهيمهم المتعصبة، وربما يُزَيِّنون له التضحية بأرواحهم لتحقيق السلطة والسيطرة، وإشباع هوسهم. مثال ذلك الكوارث التى قام بها متطرفون مسيحيون فى الولايات المتحدة: فى عام ١٩٧٨ أمر Jim Jones أتباعه بشرب السم فمات منهم ٩٠٠ شخص. وفى عام ١٩٩٣ دفع David Koresh ٧٥ من أتباعه فى تكساس إلى الانتحار حرقًا. وفى عام ١٩٩٤ قتل ٧٤ من أتباع منظمة معبد الشمس أنفسهم. وأيضًا تفجير المهووس Timothy Mcveigh وجماعته لمبنى حكومى فى أوكلاهاما وقتله لمائتى أمريكى.

(٢) كارين أرمسترونج Karen Armstrong: مفكرة إنجليزية مهتمة بالأديان، ولدت عام ١٩٤٤.

تدور كتاباتها حول اتفاق الأديان الرئيسية فى نفس المفاهيم، وأن الحل الجذرى لجميع مشاكل الإنسانية هو «أن تعامل الناس كما تحب أن يعاملوك».

وهى شديدة الاهتمام والاحترام للإسلام، وقد أصدرت عنه عدة مؤلفات عقب أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١. ودعت فى فبراير ٢٠٠٨ إلى تشكيل مجلس عالمى للتوفيق بين المسلمين والمسيحيين واليهود.

فإذا كانت النظرة المتأملة للإنسان ينبغى أن تحيط به من ثلاثة جوانب: المصدر ـ المسار ـ المآل، فإن الملحدين وأنصار الدين الطبيعى يختلفان فى تفسير «مصدر» الإنسان (الخالق هو الطبيعة أم الإله)، لكنهما ينتهيان إلى أننا نحيا فى كون مغلق ليس للإله دور فيه سواء فى حياتنا أو بعد الموت. وقد أدى ذلك إلى اتفاقهما فى «المسار»، فجعلا هدفهما الأسمى هو تحقيق سعادة الإنسان فى الحياة، كما اتفقا على أن المآل بعد الموت هو العدم!

لا شك أن من يتبنى هذا المسار (السعادة) وهذا المآل (العدم) قد وضع نفسه فى تناقض واضح. فأية سعادة يستشعرها إنسان يعلم أن موته معناه العدم، وأنه يمشى على الأرض حاملًا كفنه بين يديه، انتظارًا لتنفيذ حكم الإعدام ثم الفناء الصادر عليه.

إن بنية الإنسان النفسية ترفض أن يخسر كل شىء بالموت، ولن يتحرر الإنسان من الخوف من الموت والعدم، إلا بإدراك يقينى بانتقاله لحياة أخرى خالدة.

رحلة أنتونى فلو فى الميزان

إذا تأملنا رحلة أنتونى فلو العقلية، نجد أنه انتهى إلى التالى: «هناك إله» أبدى أزلى، مطلق العلم والقدرة، غير مادى لا يحده زمان ولا مكان، وأنه خلق الوجود من العدم. كما يتفق مع الديانات السماوية أيضًا فى وجود هدف عام (غائية) وراء خلق الكون، وهو أن يكون مُعَدًّا لخلق الحياة واستقبال الإنسان.

ومع ذلك، لم يكمل أنتونى فلو المشوار ليلتقى مع المتدينين فى نهاية الرحلة، ويمكن أن نجمل الاختلاف فى ثلاث نقاط:

أولًا: يرى أنتونى فلو أن القوانين الطبيعية كافية لإدارة شئون الكون دون الحاجة إلى متابعة إلهية، وهو ما يُسمى «بالكون المُغلق» الذى ليس فى حاجة لتدخل من خارجه. وهذا هو نفس ما توصل إليه أرسطو عندما أراد أن ينزه الإله، فقال: إنه لا ينبغى للإله أن ينشغل بالمخلوقات، بل ينشغل بما يليق به، ينشغل بذاته.

أما الديانات السماوية، فترى أن الله كان وما زال وسيظل متابعًا ومتحكمًا فى الكون وفى الإنسان، وأنه أقرب إلينا من أنفسنا، وأن هناك علاقة تواصل مستمرة بين الله والإنسان، تصل إلى حد الحوار المتبادل والطلب والاستجابة (الدعاء). لذلك إذا ترك الله الكون لحظة واحدة، لانهارت القوانين الطبيعية التى تُسَيِّره، ولتلاشى الوجود تمامًا.

الفصل الخامس

الإيمان والبيولوجيا - ١
من الجينات إلى المخ

ونحن فى عصر الفتوحات العلمية الجبارة، وبعد مرور عشر سنوات من القرن الحادى والعشرين، لا تكتمل «رحلة عقل» دون التأمل داخل الإنسان، لنرى هل للإيمان بالله وبالدين، وهل للمفاهيم الروحية، جذور بيولوجية؟ خاصة وقد رأينا كيف اقترحت كارين أرمسترونج على البيولوجيين أن يطلقوا علينا اسم **الإنسان الدَيِّن Homo religious** بدلًا من **الإنسان العاقل Homo sapiens**.

ويدور التساؤل نفسه عن الجذور البيولوجية للمنظومة الأخلاقية، إذ يعتقد معظم المتدينين أن المرجعية الوحيدة للأخلاق هى الأديان، التى جاءت لتُعَرِّف الإنسان الصوابَ والخطأ، ويظنون أن الملاحدة يحيون فى فراغ أخلاقى، وأنهم بشر سيئو الطباع وعدوانيون.

بهذين التساؤلين نبدأ دراستنا حول العلا ـة بين الإيمان والبيولوجيا.

فى هذا الفصل، نعرض ما كشفه العلم من معارف لها علاقة بقضيتنا، وذلك فى مجال الجينات وفى مجال بنية ووظائف المخ. وفى الفصل القادم، نطرح للبحث العلاقة بين القلب وبين الإيمان.

كائن عاطفى، خَلوق متدين

يخبرنا إدوارد ويلسون[1] Edward O.wilson (أستاذ البيولوجيا الاجتماعية فى جامعة هارفارد) أن **الإنسان عاطفى بطبعه**، وأن هذا الحس **مُسَجَّل فى جيناتنا**.

كما يخبرنا جيمس واطسون[2] James watson فى كتابه DNA، أن **المفاهيم الأخلاقية** Moral Codes **مدموغة فى جينات الإنسان** منذ نشأته، وقبل وجود الديانات.

كذلك يخبرنا روبرت وينستون[3] Robert Winston فى كتابه «الفطرة البشرية »، **أن الحس الدينى جزء من بنيتنا النفسية**، وأنه **مسجل فى جيناتنا**، وأنه يتراوح قوةً وضعفًا من إنسان لآخر.

ولا شك أن هناك علاقة قوية بين عناصر هذا الثالوث: كَوْن الإنسان عاطفيًّا بطبعه، وتبنيه للمفاهيم الأخلاقية، واستجابته للمشاعر الدينية. وقد أثبت علماء النفس والتربويون أن هذه المنظومة الثلاثية ترجع إلى شعور فطرى شديد الأهمية، **ألا وهو مفهوم التعاطف**.

ما هو التعاطف...
وكيف يتشكل فى نفوسنا؟[4]

اغرورقت عينا الطفلة سوزى، البالغة من العمر تسعة أشهر، بالدموع عندما رأت طفلًا يقع على الأرض، زحفت سوزى نحو أمها تلتمس منها التخفيف عن الطفل. أما مراد (١٠ أشهر) فقد ذهب ليحضر لعبته (دبدوب) ليعطيها لصاحبه الذى كان يبكى، وعندما استمر الصغير فى البكاء أخذ مراد يخفف عنه.

(١) إدوارد ويلسون: ولد بأمريكا عام ١٩٢٩، من المهتمين بالفلسفة والأديان وحقوق الإنسان. حصل على جائزة بوليتزر العالمية مرتين.
يُعتبر كتابه وحدة العلوم Consilience من أحسن ما كُتب عن العلاقة بين البيولوجيا والطبيعة الإنسانية.

(٢) جيمس واطسون: ولد فى أمريكا عام ١٩٢٨، والتحق بجامعة شيكاغو وعمره ١٥ عامًا. حصل على الدكتوراه فى علم الوراثة عام ١٩٥٠. حصل على جائزة نوبل عام ١٩٦٢ (مشاركة مع فرانسيس كريك وموريس ويلكنز) لتوصله إلى اكتشاف تركيب جزىء الدنا DNA، وما زال يعمل فى مختلف مجالات الأبحاث البيولوجية.

(٣) روبرت وينستون: إنجليزى، ولد عام ١٩٤٠.
يعمل كأستاذ وعميد معهد أمراض وجراحة النساء والتوليد بلندن، وله أبحاث مشهورة فى مجال أطفال الأنابيب والحيوانات المنوية والخلايا الجذعية. ويشغل منصب رئيس الاتحاد البريطانى لتقدم العلوم. وهو كاتب وإعلامى شهير.

(٤) عن كتاب المخ ذكر أم أنثى؟! الفصل الثانى عشر، للدكتور عمرو شريف والدكتور نبيل كامل، مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٩.

يُعَبِّر هذان الحادثان عن التعاطف والاهتمام، ويُظهران أن جذور هذه المشاعر ترجع إلى الطفولة المبكرة. فالأطفال يشعرون منذ اليوم الأول لولادتهم بالتوتر عند سماع طفل يبكى، وبعد شهور قليلة يظهر على الأطفال الانزعاج كرد فعل لما يزعج غيرهم، فينخرطون فى البكاء إذا سمعوا بكاءً أو رأوا دموع طفل آخر.

وعندما يتخطى الأطفال عامَهم الأول تهدأ هذه المشاعر، يدركون أن تعاسة مَن حولهم لا تخصهم. ومع ذلك، يبدو عليهم الارتباك أمام معاناة الآخرين.

فى بحث أجراه «مارتن هوفمان» Martin L. Hoffman (العالِم النفسى فى جامعة نيويورك) وجد أن الأطفال بعد عامهم الأول يقلدون هموم وأحزان الآخرين، فى محاولة لكى يدركوا بشكل عملى ما يشعر به هذا الآخر. فتجد الطفلة تضع إصبعها فى فمها إذا جُرح إصبع صديقتها، وتجد طفلًا يكفكف عينيه عندما يرى أمه تبكى. هذه «المحاكاة الآلية» عند الصغار[١] تُـجَـسِّـد معنى «التعاطف أو المشاركة الوجدانية» Empathy[٢].

وعندما يبلغ الأطفال عامين ونصف العام، يخف تقليدهم لمعاناة الآخرين شيئًا فشيئًا، ويبدأ ظهور الاختلاف بين الأطفال فى حساسيتهم تجاه معاناة غيرهم، فيحتفظ بعض الأطفال بتعاطفهم مع هذه المعاناة بينما يتجاهلها البعض الآخر.

كيف ينضج التعاطف الفطرى؟...
التوافق...

يؤكد العالِـم النفسى «دانييل شتيرن»، على أهمية تبادل النظرات واللمسات وتكرار المداعبات بين الوالدين والطفل. ويعتقد أن غرس المنظومة الأخلاقية يتم خلال هذه اللحظات الحميمة، التى تجعل الطفل يُدرك أن مشاعره مقبولة ومتبادَلة، وقد أطلق على هذا التجاوب اسم «التوافق».

(١) أخبرنى صديق كان حاضـرًا أثناء قيامى بخياطة جرح بذراع أخيه، أنه كان يشعر بوخز الإبرة فى ذراعه هو، ويُعرف هذا الشعور بالتقمص الوجدانى. كذلك فإن بعضنا يقوم بوضع يده على عينه بطريقة لاإرادية إذا رأى شخصًا يتلقى ضربة على عينه. لا شك أن هذه أمثلة من المحاكاة الآلية التى تستمر معنا بعد مرحلة الطفولة.

(٢) استخدم «إيه. بى. تيتشنر» A.B.Tichener عالم النفس الأمريكى، اصطلاح Empathy أول مرة فى عشرينيات القرن العشرين. ويقول تيتشنر: ينبع التعاطف من محاكاة معاناة الآخرين عن طريق استحضار مشاعر الآخر إلى داخل نفس المتعاطف. لقد حاول تيتشنر إيجاد كلمة تختلف عن كلمة «عطف» Sympathy، التى تقف عند تَفَهُّم شخص لما يشعر به شخص آخر من أحزان، ولكن دون مشاركة أيًا كانت. أما التعاطف Empathy فهو أن تضع نفسك مكانه تمامًا، وكما يقول التعبير الإنجليزى أن تكون: In the other's own Shoes.

ويرى «شتيرن» أن المواقف المتكررة من التوافق، أو عدم التوافق، بين الوالدين وأطفالها تشكل سلوكياتهم التى يتعاملون بها مع الآخرين طوال حياتهم. إن هذه اللحظات قد تكون أكثر تأثيرًا من أكبر الأحداث التى تمر بهم فى طفولتهم.

كذلك أظهرت الدراسات[1] أن الأطفال الأكثر تعاطفًا هم الذين لَفَت والداهم انتباههم إلى ما تسببه تصرفاتهم من ضيق للآخرين. كأن يقال للطفل إذا أساء التصرف مع أخته «انظر كيف جعلتها تشعر بالحُزن»، بدلًا من القول «لقد كان سلوكك هذا عنيفًا».

كما ينمو تعاطف الأطفال عند رؤيتهم لرد الفعل الإيجابى للمحيطين بهم تجاه شخص يمر بمحنة، فتتكون لديهم الرغبة فى تقديم المساعدة للآخرين.

إن هذا الأسلوب لتنشئة أطفالنا يؤدى إلى تنمية مشاعر التعاطف لديهم، من خلال إنضاج دوائر عصبية معينة فى أمخاخهم. فعلى سبيل المثال، عندما تسمع الأم بكاء طفلها، وتحمله بين ذراعيها وتهزه حتى يهدأ، فإن هذا التناغم يُحَفِّز تكوين الوصلات العصبية بين الفص الأمامى للمخ (المسئول عن التحكم فى انفعالاتنا وسلوكياتنا) وبين لوزة المخ Amygdala (المركز المسئول عن الانفعالات)، مما يجعل هذا الفص بمثابة مفتاح التحكم Control Switch فى الانفعالات والسلوك. ومن ثَمَّ، يتميز هذا الطفل طوال حياته - مقارنة بغيره - بالقدرة على التحكم فى انفعالاته وتبنى السلوك الأخلاقى عندما يتعرض للتوتر.

مثال بيولوجى على فطرية الأخلاق

من الظواهر الراسخة وشديدة الدلالة على فطرية المفاهيم الأخلاقية، ما يُعرف بظاهرة **العزوف عن زواج المحارم Incest Avoidance**.

ولا يقف تحاشى هذه العلاقة عند الإنسان، بل يمتد إلى الحيوانات، وأيضًا النباتات[2]! مما يعنى أن لهذا المفهوم الأخلاقى فائدة بيولوجية.

(١) أُجريت فى المعهد القومى للصحة النفسية بالولايات المتحدة، وقامت بها كل من «ماريان راديك يارو» Marian Radek Yarrow، و«كارولين شان واكسلر» Carolyn Shan-Waxler المتخصصتين فى طب نفس الأطفال.

(٢) لاحَظ العلماء فصائل من الفئران لا تتزاوج فيها الذكور والإناث المولودين من نفس الأم، ويتم التعرف على الإخوة من خلال رائحة معينة تميز صغار كل أم.

كما تتحاشى قِرَدة الشمبانزى والبابون إقامة علاقة جنسية بين الإخوة والأخوات، وبين الأصول والفروع.

وتستخدم الكثير من النباتات آليات ذكية لتمنع التلاقح بين حبوب لقاح وبويضات نفس الزهرة.

ولتفسير هذا العزوف، يطرح علماء الاجتماع ما يُعرف بتأثير ويسترمارك[1] Westermarck effect، الذى يوضح أن «الأطفال الذين تربوا معًا لا تنشأ بينهم مشاعر جنسية، حتى ولو لم يكونوا إخوة». ونلاحظ ذلك فى عائلاتنا، عندما يُطرح أمر زواج شاب من فتاة تربيا معًا (قرابة أو جِيرة)، كثيرًا ما يُجيب أحدهما: إنى أشعر كأنه أخى / أختى[2].

هناك اتفاق فى الأوساط العلمية على إرجاع تأثير ويسترمارك إلى العوامل البيولوجية فى المقام الأول[3]، فقد ثبت أن هناك مواد كيميائية تُفَرز فى عَرَق كل منا، تُعرف بالفيرومونات Pheromones، يستقبل رائحتها المحيطون، فتؤثر على مراكزهم المخية المسئولة عن الميل إلى الجنس الآخر. وقد يؤدى هذا إلى زيادة الميل بين غير الأقارب فينشأ الحب، كما يؤدى إلى ظهور تأثير ويسترمارك بين من تربوا معًا.

وقد ثبت أن حساسية الدوائر المخية لنوع معين من الفيرومونات مدموغة فى جيناتنا، وكلما زادت درجة القرابة كان العزوف الفطرى أشد.

جين الألوهية The God Gene

طرحت مجلة تايم Time، فى عدد ٢٥ أكتوبر ٢٠٠٤، موضوعًا مهمًّا بعنوان «جين الألوهية»[4]، ويدور هذا الموضوع حول أن الشعور بالإله، والرغبة فى التوجه إليه بالعبادة، وكذلك الشعور بوجود النعيم والعذاب فى حياة أخرى بعد الموت، أمور فطرية عند البشر، فى كل الحضارات عبر التاريخ وعبر الجغرافيا.

ومن أوضح الأمثلة على ذلك، اهتمام الفراعنة الشديد بالموت والتحنيط وما بعد الموت.

---

(١) نسبة إلى الفيلسوف وعالم الاجتماع الفنلندى إدوارد ويسترمارك Edvard westermarck (١٨٦٢ - ١٩٣٩)، وقد ذكر هذا التأثير عام ١٨٩١ فى كتابه The History of Human Marrage.

(٢) تقوم العائلات الغنية فى تايوان بتبنى الفتيات الصغيرات اللاتى يناسبن أولادها الصغار، ليتربوا معًا تمهيدًا لتزويجها فيما بعد. وقد لاحظ الباحثون أن نسبة الإنجاب تكون أقل، وأن نسبة الطلاق تكون أكبر منها عن الزيجات التقليدية.

وفى الكيبوتسات فى إسرائيل (المزارع الجماعية)، يتم تربية أولاد وبنات من عائلات مختلفة معًا كالإخوة، ويؤدى ذلك إلى عدم ميل كل من الجنسين للزواج من الآخر.

ولا شك أن زواج ملوك الفراعنة من محارمهم يمثل ظاهرة استثنائية، بغرض المحافظة على نقاء الدم الملكى الإلهى! وقد أدى ذلك إلى نتائج غير محمودة بالنسبة لذرياتهم .

(٣) يأتى الالتزام الاجتماعى (الذى يتحمس له فرويد) فى مرتبة تالية.

(٤) طرحت المجلة هذا الموضوع، نقلاً عن كتاب بنفس الاسم، نتحدث عنه بعد قليل.

ويظهر ذلك فى المعابد الضخمة وفى رسوم المقابر الفرعونية، وكذلك البرديات مثل كتاب الموتى. وقد أظهر علم الآثار اهتمامًا مشابهًا عند القدماء فى الهند والصين وأمريكا الجنوبية وإسبانيا وفرنسا وبريطانيا والسويد.

ويؤكد مايكل شيرمر(١) Michael Shermer (رئيس تحرير مجلة الشَّكَّاك Skeptic) أن **الشعور بثنائية الجسد والروح أمر فطرى مزروع فينا منذ ولادتنا.**

ويذكر بول بلوم (أستاذ علم النفس بجامعة ييل بالولايات المتحدة):

«إننا كائنات ثنائية (جسد وروح)، دُمِغَ فى جيناتنا (HardWired) **الإيمان بحياة أخرى** تحيا فيها الروح بعد مغادرة الجسد الفانى. إن هذا الإيمان هو أصل الفطرة الدينية»(٢).

والآن إلى كلمة البيولوجيا(٣)

يخبرنا دين هامر Dean Hamer (رئيس وحدة أبحاث الجينات بالمعهد القومى للسرطان بالولايات المتحدة) أن الإنسان يرث مجموعة من الجينات التى تجعله مستعدًا لتقبل مفاهيم **الألوهية والدين God Gene Hypothesis.**

وقد خرج هامر بهذا المفهوم بناء على الأبحاث التى أجراها على جينات السلوك، وعلى دراسات بيولوجيا الأعصاب وعلم النفس. ونشر نتيجة هذه الأبحاث فى كتابه The God Gene: How faith is Hardwired in our genes، عام ٢٠٠٤(٤).

وكما تتوقع، واجه كتاب دين هامر «جين الألوهية» معارضات من بعض الأوساط العلمية. وربما يرجع ذلك إلى اسم الكتاب الذى استفز الماديين، بالرغم من أن ما يطرحه من مفاهيم علمية ليس بجديد!

(١) مايكل شيرمر: أستاذ الاقتصاد بجامعة كلاريمونت - أمريكى، ولد عام ١٩٥٤، مهتم بالفلسفة والعلوم، يرأس تحرير مجلة Skeptic التى تصدرها جمعية Skeptics التى تضم ٥٥,٠٠٠ عضو، وتهتم بتنقية العلم مما يحيط به من ضلالات.

(٢) جاء هذا الطرح فى كتابه: Descartes baby: How the Science of child development explains what makes us Human الذى نشر عام ٢٠٠٤.

(٣) من المهتمين بهذا المجال أ. د. حسين أحمد أمين، أستاذ الجراحة. وقد أصدر فى ذلك كتابًا باللغة الإنجليزية (رجعنا إليه) بعنوان Genes and Human Nature, 2007.

(٤) من أهم الجينات المسئولة عن هذا الاستعداد هو الجين المعروف بـ VMAT2. هذا الجين مسئول عن تكوين ناقل كيميائى بالمخ، يُعرف باسم Vesicular monamine transporter. وهو مسئول عن تحديد مستوى عدد من الناقلات الكيميائية التى تنظم عمل المخ (السيروتونين - الدوبامين - النورأدرينالين).
كما أن له دورًا فى توجيه مراكز المخ المسئولة عن المشاعر الروحية والمفاهيم الغيبية.

فقبل كتاب دين هامر بعشرين سنة، طرح كلود كلوننجر[1] Claud R. Cloninger (أستاذ علم النفس والطب النفسى وعلوم الوراثة بجامعة واشنطن) «**نظرية المزاجات والأخلاق الوراثية**»[2] والتى صارت من المفاهيم الثابتة فى الأوساط العلمية.

فى هذه النظرية، طرح كلوننجر **ثلاث مجموعات من الأخلاق الوراثية** (تمهد جيناتنا للتخلق بها) التى تحدد ميول البشر الإنسانية والأخلاقية والروحية. وهذه المجموعات هى:

١ - **مصداقية الذات** Self-Directedness: وتشمل وضوح الأهداف Purposefulness، وكَوْن الإنسان أهلًا للثقة Reliable (وهى صفات خاصة بشخصية الإنسان).

٢ - **التعاون** Cooperativeness: وتشمل استعداد الإنسان لمساعدة الآخرين Helpful، وتحملهم Tolerant والعزوف عن الانتقام Non-Revengeful (وهى صفات تحكم تعامل الإنسان مع الآخرين).

---

(١) وُلد د. كلود كلوننجر Claud Robert Cloninger فى الولايات المتحدة عام ١٩٤٤. وهو رائد فى أبحاث الجينات وبيولوجيا الأعصاب والطب النفسى والأمراض النفسية، وقد شغل منصب الأستاذية فى هذه التخصصات، وشغل أيضًا منصب مدير مركز الصحة النفسية، فى جامعة واشنطن. وهو الناشر الرئيسى لعدد من المجلات العلمية المحترمة فى الطب النفسى والوراثة، واشترك فى تأليف أربعة كتب وأكثر من ٤٠٠ بحث علمى.
وقد كُرِّم بالعديد من الجوائز، منها العضوية مدى الحياة فى الأكاديمية الأمريكية للعلوم، وحصل عام ٢٠٠٩ على جائزة اتحاد الأمراض النفسية الأمريكى لجهوده لفهم الإنسان بشكل متكامل (جسم - عقل - نفس - روح).

(٢) **نظرية المزاجات والأخلاق الوراثية Temperament and Character Inventory**: تحدد هذه النظرية أربعة مزاجات وثلاث مجموعات من **الأخلاق الوراثية**، تتحكم فيها جيناتنا ويتوارثها الأبناء عن الآباء. وتوجه هذه المزاجات والأخلاق ما سيكون عليه سلوك الإنسان وأخلاقه وتدينه !!، كما تحدد قابليته للإصابة ببعض الأمراض، واستعداده للإدمان وخاصة الكحوليات.
وتُوَرَّث كل سمة من هذه السمات السبع بشكل مستقل عن السمات الأخرى، وتتفاعل فيما بينها لتشكل شخصية الإنسان.
وقد اعتمد كلوننجر فى هذه النظرية على أبحاثه فى علم الجينات وبيولوجيا الأعصاب، وليس على الدراسات النفسية والإحصائية فقط. وهذا هو سبب قوة دلالة هذه النظرية.
وبالإضافة للمجموعات الثلاث من الأخلاق الوراثية التى نذكرها فى الكتاب، تطرح النظرية أربعة مزاجات تحدد سلوك الإنسان واستعداداته المَرَضية، وهى:
١ - الميل لتحاشى الضرر Harm Avoidance.
٢ - البحث عن الجديد Novelty Seeking.
٣ - الاعتماد على المكافأة (مادية أو معنوية) Reward Dependence.
٤ - المثابرة Persistence.
ويقع مركز هذه المزاجات فى مخ الإنسان فى الجهاز الحوفى والقشرة المخية البدائية، وهى المناطق المسئولة عن عادات الإنسان ومشاعره وسلوكه الغريزى.

٣- تجاوز الـذات (السـمو النفسـى) Self-Transcendence ويشـمل الميـول الروحـية Spiritualness والإبـداع Creativity وإنكـار الـذات Self - forgetfulness والبعـد عـن الماديـة Non-Materialism (وهى صفات خاصة بالمفاهيم العلوية).

وتقوم جينات معينة (فى الجنين وفى مرحلة الطفولة) بتكوين الدوائر العصبية المسئولة عن هذه الصفات فى المراكز الخاصة بالتعلم وبالمفاهيم المُسْبَقة فى **القشرة المخية الحديثة Neocortex، التى يتميز بها الإنسان عن باقى الثدييات.**

وإذا تأملنا هذه المجموعات الثلاث من الأخلاق، وجدنا أنها تمثل **الأساس النفسى لفطرة التدين وفطرة المنظومة الأخلاقية فى الإنسان.** ثم تقوم التربية بتنمية هذه التوجهات.

ويؤمن د. كلوننجر أنه **ينبغى أن ننظر إلى الإنسان كوجود متكامل** (جسم - عقل - نفس- روح). وينبغى عند دراسة الشخصية معرفة حدود كل من هذه المكونات الأربعة، وتحديد العلاقة بينها.

كما يؤمن أن الإنسان **يستطيع أن يصير أفضل عقليًا وروحيًا بالتدريبات العقلية والروحية،** كالتَفَكُّر والتأمل والصلاة ومجاهدة النفس، تمامًا كما يبنى جسمه بالتمرينات الرياضية.

المفاهيم الدينية والتنشئة

إذا كان العلم قد أثبت أن إدراك مفاهيم الألوهية والدين، وكذلك الشعور بثنائية الروح والجسد، وأيضًا المنظومة الأخلاقية، موجودة فى جيناتنا منذ فجر البشرية وعند مولد كل إنسان، فلماذا نجد بعض الناس أكثر تدينًا من البعض الآخر؟ **وما دور التنشئة فى تبنى المفاهيم الدينية؟**

إن ذلك يشبه تَعَلُّم الإنسان اللغة. فاللغة ليست كلمات القاموس الذى نحتفظ به فى المكتبة، فالقاموس يحوى فقط الكلمات التى تستخدمها كل لغة، وهناك المئات من اللغات التى يستخدمها البشر.

أما أصل اللغة، فهو طريقة بنائنا للجملة Syntax. وهذه الطريقة تتفق فيها جميع اللغات، **ومدموغة فى جيناتنا.**

وتظل جينات اللغة كامنة فى الأطفال، وعند سن السنتين، تنشط هذه الجينات فتزداد القدرة اللغوية للطفل بشكل ملحوظ، ويكون إدراك الفروق الزمنية (الماضى والمضارع والمستقبل) آخر المهارات اللغوية ظهورًا.

أما ما يكتسبه الطفل من بيئته، فهو مفردات وقواعد اللغة.

إن جوهر الدين مثل جوهر اللغة، أمر عالمى يتفق فيه جميع البشر، فهو مسجل فى جيناتنا. أما نوع الدين، ومدى تفهم الفرد لمنظومته الدينية وتمسكه بها، فهو أمر مكتسب من البيئة.

التدين والمخ

يواجه الماديون من الدارسين لبيولوجيا المخ موقفًا صعبًا:

فبينما يبذلون جهودًا مضنية لإثبات أن **العقل** (الإدراك والتفكير وإدراك الذات...) نشاط مادى، سيتوصل العلم لتفسيره فى ضوء **نشاط المخ الكهروكيميائى**، أصبح عليهم الآن أن يفسروا نشاطات تفوق العقل غموضًا، إنها **المشاعر الروحية**.

الموضوع ساخن للغاية، وأصبح يُطرح مؤخرًا بشكل مكثف، وأجريت حوله مئات الأبحاث، وصدرت عنه عشرات الكتب.

بيولوجيا العقل

لدراسة الوظائف العقلية والنفسية والشعورية والروحية للمخ، ينبغى أن نعرف شيئًا عن البنية التشريحية والوظيفية لمراكز المخ العليا. ونمهد لذلك **بقصة ميلودرامية معروفة عند علماء النفس والاجتماع**، إنها قصة الفتاة ماتيلدا.

إنها مأساة بكل ما تحمل الكلمة من معانٍ. فقد أرادت «ماتيلدا كرابترى» الصبية البالغة من العمر أربعة عشر عامًا، أن تفاجئ والديها بمقلب مضحك، فاختبأت فى دولاب الملابس، على أن تخرج منه وهى تصيح «بوو» فى اللحظة التى يعود فيها الوالدان من سهرة مع بعض الأصدقاء.

كان «بوبى كرابترى» وزوجته يعتقدان أن ماتيلدا خارج المنزل عند أصحابها، لذلك عندما سمع الأب أصواتًا عند دخوله المنزل، اتجه إلى المكان الذى يضع فيه مسدسه عيار ٣٥٧، وأخذ المسدس وسار متجهًا إلى حجرة النوم ليضبط المتسلل بداخلها.

وعندما قفزت «ماتيلدا» من الدولاب مداعِبة والديها، أطلق «كرابترى» النار فأصابها فى رقبتها، ثم فارقت الحياة بعد اثنتى عشرة ساعة من الحادث.

إن تغليب الانفعال على الإدراك والعقل ليس أمرًا نادر الحدوث. انظر إلى ما يحدث أثناء مشاجرة بين شخصين، قد يصل الغضب بأحدهما إلى أن يستل سكينًا يوجه به طعنة قاتلة لغريمه، دون النظر إلى ما سيترتب على ذلك من الحكم بإعدامه.

فى دماغنا عقلان.. وأيضًا ذاكرتان

ترجع هذه المآسى إلى أن لدينا نظامين مختلفين تمامًا للمعرفة والإدراك، يتفاعلان فيما بينهما لتشكيل حياتنا العقلية والشعورية. النظام الأول هو **العقل المنطقى** Rational Mind، وهو مسئول عن فهم الأمور الواضحة فى وعينا، ومسئول كذلك عن التفكير بعمق وتأمل. ومركز العقل المنطقى هو **القشرة المخية الحديثة Neocortex** [١].

وإلى جانب هذا العقل، هناك نظام آخر للمعرفة، نظام قوى ومندفع، يتعامل مع مشاعرنا ومع الأمور المبهمة والغامضة فى فكرنا، بل ويتعامل مع مشاعر وأمور لا ندركها على المستوى الواعى على الإطلاق، هذا النظام هو **العقل الانفعالى (العاطفى) Emotional Mind**. ومركزه **لَوزة المخ Amygdala**[٢].

كذلك تبين أن لكل من هذين العقلين مركزًا مستقلًّا لحفظ المعلومات (ذاكرة منفصلة). فقد أكدت الأبحاث أن «**منطقة فرس البحر Hippocampus**» (أحد أجزاء الجهاز الحوفى فى

---

(١) إن كل إنجازات الحضارة الإنسانية من فكر وعلم وفن وثقافة إنما هى من نتاج العقل المنطقى، المتمركز فى القشرة المحيطة بالمخ البشرى.

وتقوم القشرة المخية الحديثة أيضًا بتوجيه مشاعر الإنسان، فقد أدى وجود هذه القشرة – مثلًا – إلى نمو رابطة الحب بين الأم وطفلها، مما حقق الالتزام بتربية الأطفال لسنوات طويلة سمحت بنشأة الحضارة الإنسانية وتطورها.

لذلك فإن الكائنات التى ليس لها قشرة مخية متطورة تفتقر إلى عاطفة الأمومة، مثل الزواحف التى تختبئ صغارها غريزيًّا من أمهاتها بعد ولادتها خشية أن تلتهمها الأم.

(٢) تقع فى مركز المخ منطقة تُعرَف بالجهاز الحوفى Limbic System، وهى تتكون من عدة تراكيب أهمها لوزة المخ Amygdala وفرس البحر Hippocampus.

ولوزة المخ هى مركز الوظيفة الانفعالية والعاطفية، فهى التى تتحكم فينا حين تسيطر علينا الشهوة أو الغضب أو الوله فى الحب أو التراجع خوفًا أو....

وإذا أصاب اللوزة المخية خلل، تكون النتيجة عجزًا هائلًا فى التعرف على المشاعر والأحداث العاطفية، وهى الحالة التى يُطلق عليها «العمى الانفعالى» Affective Blindness.

المخ) هى المسئولة عن تسجيل الأمور الـمُدرَكَة حسيًّا وعقليًّا، لتقوم بعد ذلك بتمرير المعلومة إلى القشرة المخية، حيث يتم فهمها وتسجيلها بشكل أكثر تفصيلًا ودقة.

وفى الوقت نفسه، تقوم لوزة المخ بتخزين الدلالات العاطفية التى تصحب تلك التفاصيل والوقائع (ذاكرة العقل الانفعالى). فمثلًا تقوم منطقة فرس البحر والقشرة المخية بالتعرف على وجه إنسان ما، لكن اللوزة المخية تضيف إلى هذا التحديد الدقيق ما سبق أن سجلته عن حقيقة مشاعرك نحوه، وهى أنك لا تحب هذا الشخص مثلًا[1].

وهذا يعنى أن المخ يحتوى على مركزين للذاكرة: مركز خاص بالوقائع المادية، وهو منطقة فرس البحر ثم القشرة المخية. ومركز ثان خاص بالانفعالات المصاحبة للوقائع، وهو «اللوزة المخية».

التناغم بين التفكير والانفعال= التعاون بين العقلين

يقترب التقسيم إلى «منطقى» و«انفعالى» من **التمييز الشائع بين العقل والقلب**. فحين يعرف الإنسان بقلبه أن شيئًا ما صحيح، فهذا نوع من المعرفة لا يلغيه عدم إدراكها بالعقل المنطقى.

وهناك **توازن دقيق بين العقل المنطقى والعقل الانفعالى**. لكن إذا تجاوزت المشاعر حد التوازن، **فإن العقل الانفعالى يتسيد الموقف ويكتسح العقل المنطقى**[2].

كذلك أثبت الباحثون أن اللوزة المخية (العقل الانفعالى) تقوم بفرض سيطرتها على الجهاز العصبى اللاإرادى وتوجهه للقيام برد الفعل، قبل أن تصل المعلومة إلى القشرة المخية (العقل المدرك)، كما حدث فى حالة ماتيلدا.

(١) مثال آخر: نفترض أننا حاولنا تخطى سيارة فى طريق سريع، وكنا على وشك التصادم بسيارة أخرى قادمة فى الاتجاه المضاد، هنا يحفظ فرس البحر والقشرة المخية تفاصيل الحادث، مثل «كم كان عرض الطريق» و«من كان معنا أثناء الحادث»، و «ماذا كان شكل السيارة الأخرى»، أما لوزة المخ فستبعث بدفقة من القلق والتوتر كلما حاولنا تخطى سيارة أخرى فى ظروف مشابهة.

(٢) يرجع ذلك إلى أن الإشارات التى تحملها الدوائر العصبية من اللوزة إلى القشرة المخية أكثر غزارة من الإشارات العكسية.

إن قنوات الاتصال (الدوائر العصبية) بين القشرة المخية وبين اللوزة هى محور كل المعارك، وكذلك اتفاقات التعاون، بين العقل والقلب، أى بين التفكير والشعور. إن خللًا أو توترًا يصيب الدوائر العصبية الموصلة بين هذه التراكيب الدماغية، والتى يحكمها تناغم دقيق، يؤدى إلى اضطراب نفسى - عصبى شديد.

ومن خلال الاتصالات بين لوزة المخ وبين القشرة المخية والجهاز العصبى اللاإرادى، **يؤثر عقلنا الانفعالى وذاكرتنا اللاشعورية وتجاربنا النفسية المبكرة وتوافقنا القلبى**[1]، **على إدراكنا وأفعالنا وسلوكنا بل وتفكيرنا. كما يؤثر على باقى وظائفنا الجسدية.**

لذلك يؤكد دانييل جولمان فى كتابه «الذكاء الانفعالى[2] «Emotional Intelligence أن الذكاء الإنسانى ليس نتيجة النشاط العقلى فقط، إنه يتأثر بشكل كبير بالجوانب النفسية المختلفة، كالحماس وقوة الدافع والشعور بالذنب والرغبة فى تحقيق الذات. ويؤكد جولمان أن **التواصل بين العقل المنطقى والعقل الانفعالى مدموغ Hardwired فى أمخاخنا.**

التنشئة والعقل الانفعالى

وللتنشئة دور مهم فى توجيه **العقل الانفعالى**. فإذا تم تنشئة الإنسان فى بيئة مليئة بمشاعر الخوف والغضب، يصبح معتادًا ومتآلفًا مع هذه المشاعر عندما تمر به فيما بعد، ولا تسبب له أى إزعاج. وبالعكس، إذا نشأ إنسان فى جو من الحب والأمان، يصبح متوافقًا ومتآلفًا مع هذه المشاعر.

ويفسر لنا أستاذ الطب النفسى وجراح الأعصاب د. كارل بريبرام[3] هذا الدور، بأن **خبراتنا السابقة يتم دمغها فى مركز الذاكرة الانفعالية فى المخ (لوزة المخ Amygdala)**، لتصبح هذه الخبرات بمثابة مرجعية تُقاس عليها التجارب الجديدة، وقد أطلق د. بريبرام على هذه الخبرات اصطلاح الأنماط المألوفة Familial Patterns.

كما يشارك فى تشكيل الأنماط المألوفة فى مركز الذاكرة الانفعالية مدخلات **Inputs من داخل جسم الإنسان**. ومن أقوى هذه المدخلات الداخلية إيقاع ضربات القلب المنتظم والمتناغم، والذى يطلق عليه اسم **التوافق القلبى.**

فإذا مرت بالإنسان تجارب تخالف الأنماط المألوفة المسجلة فى ذاكرته الانفعالية، يشعر الشخص بمشاعر وانفعالات سلبية مجهِدة، ويشعر بانعدام التوافق النفسى. كما يحس الإنسان

(١) التوافق القلبى هو انتظام معدل ضربات القلب، وسنوضح هذا المفهوم بالتفصيل فى الفصل القادم.

(٢) دانيال جولمان وكتابه الذكاء الانفعالى الذى أصدره عام ١٩٩٦، اسهان شهيران فى عالم الطب النفسى، حتى أُعتبر اصطلاح «Emotional Intelligenecc» أفضل اصطلاح أُدخل فى اللغة الإنجليزية لعدة سنوات.

(٣) كارل بريبرام Karl Pribram: ولد عام ١٩١٩، أستاذ الطب النفسى وجراح الأعصاب بجامعة ستانفورد بالولايات المتحدة، والباحث البارز فى مجال العلاقة بين الجهاز العصبى وبين مشاعر الإنسان وانفعالاته وسلوكه.

بنفس المشاعر والانفعالات إذا حدث اضطراب فى معدل وانتظام وتناغم ضربات القلب (عدم توافق قلبى)، وسنوضح ذلك فى الفصل القادم.

القارئ الكريم...

تعرضنا فيما سبق ببعض التفصيل لبيولوجيا العقل، إذ إن مركز مشاعر التدين هو اللوزة المخية (العقل الانفعالى)، كما تقع هذه المشاعر وهذا المركز تحت تحكم القشرة المخية (العقل المنطقى). كذلك فإن هذه المعرفة مطلوبة لفهم الدراسات حول دور القلب فى المشاعر الدينية والروحية.

الذكاء الروحى !

لا شك أن اختبارات الذكاء المعروفة قد أغفلت جوانب عديدة للذكاء الإنسانى، كالجوانب الانفعالية والمهارات الاجتماعية، حتى أصبح مفهوم الذكاء مرادفًا للقدرة على التحصيل العلمى والنجاح الدراسى.

وفى السنوات الأخيرة، تطرق اهتمام علماء النفس إلى أنواع من الذكاء لا تقوم على القدرات العقلية للتحصيل الدراسى، فظهرت عدة نظريات فى هذا المجال، أهمها نظرية الذكاء المتعدد Multiple Intelligence Theory [1] لهاورد جاردنر Howard Gardner.

أثبتت نظرية جاردنر أنه لا يوجد نوع واحد من الذكاء الإنسانى، بل توجد عدة أنواع من الذكاء، يشكل كلٌ منها نَسَقًا مستقلًا خاصًا به، ويشغل كلٌ منها مركزًا مستقلًا فى المخ تم تحديده بالفحوصات الإشعاعية الحديثة.

(١) قدّم هذه النظرية هوارد جاردنر الأستاذ بجامعة هارفارد بالولايات المتحدة لأول مرة عام ١٩٨٣ فى كتاب بعنوان «أُطر العقل»، واستمر فى تطويرها لما يزيد على ٢٠ عامًا.

وقد لفت نظر جاردنر إلى وجود عدة أنواع من الذكاء (بدلًا من نوع واحد) بعض الملاحظات منها:

أ- أن عطبًا ما فى منطقة معينة من المخ يؤدى إلى خلل فى نوع معين من الذكاء دون الأنواع الأخرى.

ب- وجود الأشخاص النوابغ المعتوهين idiot savants الذين لديهم بعض القدرات المرتفعة بشكل غير عادى بالمقارنة بباقى قدراتهم المنخفضة، مما يشير إلى استقلال كل من هذه القدرات، وأن لكل منها مركزًا مختلفًا فى المخ.

جـ- حدوث تداخل بين مهمتين عقليتين مثل قراءة مقال وسماع تقرير، مما يشير إلى اعتمادهما على نوع واحد من الذكاء (الذكاء اللغوى)، بينما يشير عدم التداخل بين قراءة مقال وسماع قطعة موسيقية إلى أن كلًا من المهمتين تعتمد على نوع مستقل من الذكاء (الذكاء اللغوى والذكاء الموسيقى)، كذلك يمكن للإنسان أثناء قيادته لسيارته (الذكاء المكانى) القيام بإجراء بعض العمليات الحسابية فى ذهنه (الذكاء المنطقى - الرياضى).

طرح جاردنر فى نظريته ثمانية أنواع من الذكاء[١]، ثم أتْبعها بنوعين آخرين (هما مجال اهتمامنا)، وهما **الذكاء الروحى** Spiritual Intelligence والذكـاء الوجـودى Existential Intelligence [٢]، ويهتمان بالقضايا فوق الحسية وبالقضايا الأساسية للوجود الإنسانى.

وخلال العشر سنوات الأولى من القرن الواحد والعشرين، ازداد اهتمام الباحثين فى علوم المخ والأعصاب وعلم النفس وعلم الاجتماع والديانات، بالذكاء الروحى بشكل كبير[٣].

---

(١) **أنواع الذكاء الثمانية هى:**

١- الذكاء اللغوى Linguistic Intelligence.

٢- الذكاء المنطقى - الرياضى Logico-Mathematical Intelligence.

٣- الذكاء المكانى Spatial Intelligence.

٤- الذكاء الموسيقى Musical Intelligence.

٥- الذكاء الجسمى - الحركى Bodily - Kinesthetic Intelligence.

٦- ذكاء العلاقة مع الآخرين Interpersonal Intelligence.

٧- ذكاء فهم الذات Intrapersonal Intelligence.

٨- الذكاء التصنيفى Natural Intelligence.

(٢) عندما استخدم هاورد جاردنر اصطلاح «الذكاء الروحى Spiritual Intelligence» وجد معارضة كبيرة ممن يعتبرون أن كل ما ينسب إلى الروح ليس بعلم، فاستخدم اصطلاح الذكاء الوجودى Existential Intelligence، ليصف كل ما نسبه إلى الذكاء الروحى.

(٣) المعلومات المذكورة هنا حول مكونات ومردود الذكاء الروحى مستقاة من كتابات للرواد فى هذا المجال، منهم:

١- دانا زُهار Danah Zohar: أمريكية من مواليد ١٩٤٥.

درست الفيزياء والفلسفة فى MIT. ودرست الديانات والطب النفسى فى جامعة هارفارد. تعتبر هى وزوجها آيان مارشال Ian Marshall من رواد البحث فى مجال الذكاء الروحى. ولها أبحاث كثيرة، بالإضافة لأربعة كتب عن تطبيقات فيزياء الكوانتم على فهم الذات والعقل والمجتمع. وهى محاضِرة فى العديد من الجامعات فى الكثير من أقطار العالم.

٢- روبرت إيمونز Robert Emmons: أستاذ علم النفس بجامعة كاليفورنيا - مهتم بالعلاقة بين الشخصية والانفعالات والديانات. وهو رئيس مجلة علم النفس الإيجابى The Journal of Positive Psychology.

٣- تونى بوزان Tony Buzan: وُلد فى لندن عام ١٩٤٢.

درس علم النفس والرياضيات والعلوم. وهو صاحب مفهوم خرائط العقل Mind Mapping. ألّف وشارك فى تأليف أكثر من مائة كتاب فى مختلف المجالات التى حاضر فيها فى معظم بلاد العالم، مثل خرائط العقل وقدرات المخ والذاكرة والإبداع والعبقرية والذكاء الروحى.

٤- فرانسيس فوجان Frances Vaughan: أستاذة علم النفس بجامعة كاليفورنيا، شاركت فى تأسيس جمعية الطب النفسى والروح، ورئيسة اتحاد الطب النفسى والروح، وعضوة فى العديد من الجمعيات المهتمة بهذا الأمر.

٥- كاثلين نوبل Kathleen Noble: أستاذة علم النفس بجامعة واشنطن. وألفت العديد من الكتب حول الذكاء الروحى، وكذلك المشاكل النفسية للنساء.

ويمكن فهم المقصود بالذكاء الروحى بمقارنته ببعض أنواع الذكاء الأخرى:

- الذكاء المنطقى يختص بأفكارى
- الذكاء الانفعالى يختص بمشاعرى
- الذكاء الروحى يختص بمن أنا؟

ومثل الكثير من المفاهيم غير المادية، يصعب وضع تعريف للذكاء الروحى. **لكن يمكن فهم المقصود بالذكاء الروحى من خلال معرفة المكونات التى يقوم عليها، وكذلك من خلال ملاحظة مردود هذا الذكاء على حياتنا.**

مكونات الذكاء الروحى

١- **الوعى بالذات**: معرفة معتقداتى، وموقعى من الوجود، ودوافعى العميقة.
٢- إدراك أن العالم المادى جزء من حقيقة أكبر، تربطنا بها علاقات.
٣- القدرة على طرح الأسئلة المعرفية النهائية، والقدرة على فهم الإجابة عليها.
٤- القدرة على التسامى على المفاهيم المادية، إلى مستوى أرقى وأسمى وأعمق.
٥- الحياة تبعًا للمبادئ والعقائد والـمُـثُل.
٦- أخذ المفاهيم الروحية فى الاعتبار فى تعاملاتنا اليومية.
٧- امتلاك قناعة شخصية تجاه الأمور، وإن اختلفت مع الأغلبية.
٨- **التواضع**، وإدراك حجمنا الحقيقى فى العالم، والشعور بأننا أفراد من فريق.
٩- قبول الآخر المختلف عنا.
١٠- الاستجابة لنداء الفطرة لمساعدة الآخرين.
١١- **الاستقامة الأخلاقية**، والتمسك بالعفة والطهر.
١٢- الشعور بأن سعادتى تنبع من داخلى، وليس من الإنجاز العملى أو المادى.
١٣- نفاذ البصيرة وقوة الحدس.

مردود الذكاء الروحى على سلوكنا وحياتنا اليومية

١- التعامل الحكيم مع المحن والشدائد، بدلًا من الغضب الأعمى وإلقاء اللوم على الآخرين.

٢- اتخاذ مواقف إيجابية عند مواجهة المشاكل.

٣- الشكر على كل شىء، حتى المحن.

٤- عدم التعامل بأنانية.

٥- رؤية الجمال الداخلى فى كل شىء.

٦- التماس الأعذار، وقبول الاعتذار من الآخرين.

٧- الشعور بالحنو والشفقة عند التعامل مع الآخرين.

٨- المحافظة على البيئة.

٩- استخدام الأشياء بحكمة ورفق وعدم تبديدها، وصيانتها، وإعادة تدويرها.

١٠- ترك أى مكان أفضل وأنظف مما كان عليه عند التردد عليه.

ونلاحظ من تأمل هذه المكونات وهذا المردود أن قياس معامل الذكاء الروحى أمر شديد الصعوبة، ولكنه ليس بالمستحيل، فقد تم وضع عدد من الاختبارات لقياس هذا الذكاء.

وليس بالضرورة أن يرتبط الذكاء الروحى بالإيمان بديانة معينة. فربما يتمتع الإنسان بقدر كبير من الذكاء الروحى ولا ينتمى لدين. وربما يكون من المتعصبين الدينيين، بينما نصيبه من الذكاء الروحى قليل.

وأخيرًا، هل توافقنى على أن الذكاء الروحى يكاد يتطابق مع ما تعارفنا عليه باسم «الضمير»؟

مراكز التدين فى المخ !

مركز التدين فى العقل الانفعالى...

فى كتاب «أشباح فى المخ» Phantoms in the Brain يقول مؤلفه د. راماشاندران[(١)] V. Ramachandran (أستاذ ورئيس مركز أبحاث بيولوجيا المخ والأعصاب بجامعة كاليفورنيا): **إن الإيمان بأمور ما وراء الطبيعة منتشر فى جميع الحضارات القديمة والحديثة، بشكل يحتم علينا أن نبحث عن أصوله البيولوجية فى المخ. فلا شىء يميز الإنسان عن باقى الكائنات مثل هذا الأمر.**

(١) يوصف راما شاندران بأنه ماركوبولو علوم المخ والأعصاب (الرحالة والمستكشف الشهير فى العصور الوسطى) وبأنه بول بروكا العصر الحديث (مؤسس علوم المخ والأعصاب).

ويخبرنا د. راماشاندران أن عوام الناس تمر بهم لحظات يشعرون فيها **بارتقاء روحى**، وبأنهم يقتربون من الحقيقة، عندما يستمعون للموسيقى أو يشاهدون منظرًا طبيعيًّا أخَّاذًا. أما من اعتادوا على التأمل كالصوفية والرهبان، فيدركون هذه المشاعر بشكل أكثر إلحاحًا وأكثر عمقًا. ومن مظاهر هذا الارتقاء الروحى ما يخبرنا به أينشتين من أن المشاعر الروحية (المنفصلة من أى ديانة محددة) تجتاحه كلما تعمق فى بحث أمر من أمور العلم والكون.

وقد أجرى راماشاندران أبحاثه على الجهاز الحوفى Limbic System فى وسط المخ والمسئول عن الوظائف الشعورية والانفعالية. فحدثت عند تنشيط هذه المنطقة (باستخدام المجال المغناطيسى) **استجابات جسدية وشعورية وانفعالية**، منها الشعور بنشوة روحية جارفة، وصفها البعض: أشعر بوجود الإله، أشعر أنى على اتصال بالإله، أشعر بالتوحد مع الوجود...

ويفسر راماشاندران ما نستشعره من مشاعر روحية عندما نشم **رائحة البخور** فى دور العبادة بأن الجهاز الحوفى يقع بجوار مركز الشم، بل إنه ينشأ فى الجنين كجزء منه، ومن ثم فإن نشاط مراكز الشم يؤدى إلى تنشيط مركز المشاعر الروحية بالجهاز الحوفى.

مركز التدين فى العقل المنطقى

طرح د. آندرو نيوبيرج و د. يوجين داكويلى[1] فى كتاب «لماذا يأبى الإله أن يختفى؟» Why God won't go away ? علمًا جديدًا باسم **Neuro - Theology**، وهو يختص بدراسة الأسس البيولوجية العصبية للروحانيات.

وقد أجرى العالِمان أبحاثهما على الرهبان البوذيين والراهبات الفرانسيسكان أثناء تأملاتهم وصلواتهم، وتوصلا إلى أن **المواقف الروحية تُحدث تغيرات حقيقية (أمكن ملاحظتها وتسجيلها وتصويرها) فى نشاط المنطقة المسئولة عن الاستيعاب والإدراك Oriention Association area فى المخ**، وتؤدى هذه التغييرات إلى ما نحسه من مشاعر روحية فياضة. **أى أن هذه المشاعر ليست مجرد أوهام أو تخيلات**[2].

(١) Andrew Newberg أستاذ الأشعة التشخيصية وأستاذ الطب النفسى، ومدير مركز أبحاث المخ والدراسات الروحية، بجامعة بنسلفانيا بالولايات المتحدة. و Eugene D'Aquili أستاذ الأمراض النفسية بنفس الجامعة. والكتاب صدر عام ٢٠٠١.

(٢) فى أبحاثهما المستفيضة، استخدم العالِمان المجالات المغناطيسية لتنشيط المنطقة المسئولة عن الاستيعاب والإدراك=

لذلك يؤكد المؤلفان، أن المخ البشرى قد تم تشكيله بحيث يستجيب للمشاعر الدينية. كما أصبح الاستنتاج الذى لا مفر منه، هو أن الشعور بالإله قد تم غرسه فى المخ البشرى Hard wired، كما تم غرسه فى جيناتنا.

وفى عام ٢٠٠٩، أصدر مركز أبحاث المخ والدراسات الروحية، بجامعة بنسلفانيا بالولايات المتحدة، والذى يترأسه د. آندرو نيوبرج، كتابًا رائعًا بعنوان: كيف يُغَيِّر الإيمان بالله المخ ?How God Changes your Brain.

ويقوم الكتاب على الأبحاث التى أجراها المركز على أعداد من المؤمنين بديانات مختلفة (البوذية - الهندوسية - المسيحية - الإسلام)[1]، وذلك باستخدام التقنيات الإشعاعية الحديثة، لمعرفة تأثير المشاعر الدينية والروحية على وظيفة ونشاط المخ!

وقد خرج الكتاب بالنتائج الأربع التالية:

١- إن الإيمان بإله رحيم (وليس بإله يتصيد الأخطاء ويتوعدنا بالجحيم)، كفيل بأن يقلل القلق والاكتئاب والتوتر، وأن يزيد شعورنا بالحب والأمان.

٢- إن الصلاة والتَفَكُّر والتأمل بإخلاص وعمق كفيل بإحداث تغيرات صحية فى وظيفة ونشاط المخ، يصحبها سمو فى قيم الإنسان وفى نظرته للحياة.

٣- لا يقف تأثير الصلاة والممارسات الروحية على خفض معدل وحِدَّة ما يصيب الإنسان من توترات، بل إن القيام بهذه الممارسات لمدة عشرين دقيقة فى اليوم كفيلة بأن تبطئ من اقتراب الشيخوخة.

٤- إن ما يتبناه المتطرفون الدينيون من أفكار، يورثهم القلق والتحفز للآخرين، كما يُحدِث تدميرًا للخلايا العصبية بالمخ.

=Orientation Assocation area، والواقعة فى الفص الجدارى الأيسر من المخ، وهى المنطقة المسئولة أيضًا عن شعورنا بذاتنا، وتَفَرُّدنا عن الآخرين.

عند تنشيط هذه المنطقة شعرت الراهبات الفرنسيسكان أن الله موجود حقيقة معهن، كما شعرن بأحاسيس روحية جارفة.

وفى الظروف العادية، يتم تنشيط هذه المنطقة عن طريق فيض النبضات العصبية الصادرة من الحواس الخمس. وإذا قل هذا الفيض (كما يحدث أثناء التأمل العميق وأثناء الانهماك فى تجارب ممتعة كالاستماع إلى الموسيقى) يقل نشاط هذه المنطقة، فيقل شعور الإنسان بذاته، ويشعر بتوحد مع الوجود، وهذا ما وصفه الرهبان البوذيون.

(١) أجرى الباحثون دراساتهم على المسلمين أثناء الصلاة وقراءة القرآن والذكر بأسماء الله الحسنى.

القارئ الكريم:

رأينا فى هذه الجولة مع علوم البيولوجيا، **أن جيناتنا تقوم بدور مهم فى توجيه المخ لتَقَبُّل المفاهيم الروحية والدينية**، وذلك من خلال تكوين ناقلات كيميائية توجه تَكَوُّن الدوائر العصبية، وتنشط المراكز المخية المسئولة عن هذه المشاعر.

كما رأينا أن **العلاقة بين المخ والإيمان علاقة تبادلية**. فكما ثبت وجود مراكز فى المخ مسئولة عما نحسه من مشاعر روحية ودينية، فقد ثبت أن الممارسات الدينية والروحية **تُحدث تغييرات** إيجابية فى نشاط المخ. ومحصلة التفاعل بين الجانبين هى حياة أقل قلقًا واكتئابًا، وأكثر صفاءً.

ويقف كثير من المتدينين موقفًا متحفظًا (أو معارضًا أو مهاجمًا) تجاه ما يكشفه العلم عن العلاقة بين البيولوجيا والمشاعر الدينية والروحية. ويرجع هذا الموقف إلى إصرارهم على إفراد الروح بالفطرة والمشاعر الروحية، ويعتبرون أن الجسد (بما فيه من جينات ومخ) لا علاقة له بالمشاعر الدينية.

لا شك أن موقفهم هذا ينطلق من نقص فى الفهم لطبيعة المشاعر وعلاقتها بالناقلات الكيميائية (التى تتحكم فيها الجينات)، وعلاقتها أيضًا بالدوائر العصبية المخية. فكل ما نشعر به من مشاعر إيجابية أو سلبية، روحية أو حسية، سامية أو وضيعة، إنما هو نتاج للناقلات الكيميائية والدوائر العصبية. لذلك ينبغى أن **نبحث عن همزة الوصل بين الذات الإنسانية (العقل - النفس - الروح) من جهة، وبين البيولوجيا من جهة أخرى**. ولن يكون المخرج هو إنكار ما يتوصل إليه العلم. وسيكون لنا عودة مرة أخرى إلى هذا الموقف الرافض فى الفصل الثامن.

ولا يُستكمل البحث حول علاقة المفاهيم الروحية والدينية بالبيولوجيا، دون محاولة الإجابة عن سؤال شديد الأهمية: هل للقلب علاقة بهذه المفاهيم. وهذا ما سنفرد له الفصل القادم.

الفصل السادس

الإيمان والبيولوجيا – ٢

القلب والتدين

احتل القلب مكانة محورية فى الفكر الدينى والأخلاقى منذ فجر التاريخ، حتى إن الأساطير تعتبره جوهر الإنسان، وتركز على دوره فى تبنى الخير والشر. لذلك اهتم المصريون القدماء بالقلب وحفظوه فى آنية خاصة بعد الموت بجوار الجسد الـمُحَـنَّط، فهو الذى سيتم وزنه فى العالم الآخر، ليتحدد مآل الإنسان إلى العذاب أو إلى النعيم.

وقد ذكرت بردية إيبرز (عام ١٦٠٠ ق.م) فى الجزء الخاص بأمراض القلب، أن الشخصية والسلوك والأمراض العقلية لها علاقة بلون القلب وحجمه. وجاء فى هذه البردية ذِكْرُ القلب الأبيض والقلب الأسود والقلب الكبير. كما نُسبت الأمراض النفسية والعقلية إلى اعتلال «الجهاز القلبى»، لذلك عُولجت هذه الأمراض باعتبارها أمراضًا جسمية، ومن ثم لا يَصِمُ المريض ولا يُسيء إليه أن يشكو من هذه الأمراض؛ إذ ليس هناك تفرقة بين النفس والجسد.

وظل هذا الاهتمام بالقلب سائدًا عبر الزمان فى جميع الحضارات، حتى صرنا نسمع، بجميع لغات العالم، أن هذا الإنسان قلبه أبيض، وهذا قلبه أسود، وهذا قلبه كالحجر، وهذا قلبه منكسر، وهذا يتبع صوت قلبه... وهكذا.

وجاءت الديانات السماوية لتؤكد هذا المفهوم، فجاء فى القرآن الكريم ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج: ٤٦]. كما جاء فى الحديث النبوى الصحيح **«ألا إن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهى القلب»**.

وكما اتخذ الماديون من **نظرية التطور لدارون منطلقًا لمهاجمة الأديان، فإنهم اتخذوا من محورية القلب فى الفكر الدينى والأخلاقى منطقًا آخر للهجوم.** إذ إن المفاهيم العلمية السائدة ترى أن جميع العمليات العقلية والمشاعر والأخلاق والسلوك يوجهها المخ/ العقل، وليس للقلب دور فيها.

وفى الوقت نفسه، كانت علوم التشريح ووظائف الأعضاء حتى ثلاثين عامًا مضت، **تنظر إلى قلب الإنسان باعتباره مضخة، تجمع الدم** من الجسم لتعيد ضخه من جديد بعد تحميله بالأكسجين. ويقوم المخ بتحديد قوة وعدد ضربات القلب فى الدقيقة بناءً على احتياجات الجسم[(١)].

وخلال الربع الأخير من القرن العشرين، حدث انفجار معرفى فى علوم القلب. فقد توالت الاكتشافات التى أظهرت **أن القلب ليس مجرد مضخة**، وأن علاقته بالمخ ليست علاقة العبد بالسَيِّد، بل إن السيادة تبادلية. **إن الحقائق العلمية التى تكشفت تبدو كشىء من الخيال العلمى** لغرابتها ومخالفتها للمفاهيم السائدة. وسنعرض فيما يلى بعضًا من هذه الحقائق حتى نكون قد استوفينا رحلة العقل حقها:

---

(١) يقوم المخ بتنظيم عمل القلب عن طريق عصب مُنَشِّط يُعرف بالعصب السيمبتاوى Sympathetic Nerve (الوُدِّى)، وعصب آخر يقوم بالدور المُهَدِّئ يُعرف بالعصب الجارسيمبتاوى Parasympathetic Nerve (نظير الوُدِّى)، ويشكل كلا العصبين ما يُعرف بالجهاز العصبى اللاإرادى Autonomic Nervous System ANS، إذ ليس للإنسان تحكم إرادى فيه.

وفى الحالات العادية، ينقبض القلب أكثر من مائة ألف مرة فى اليوم الواحد. وعندما يصبح عمر الإنسان سبعين سنة، يكون قلبه قد ضخ مليون برميل من الدم، وذلك فى شبكة من الأوعية الدموية يبلغ طولها مائة ألف كيلومتر!!

أولاً: القلب مغناطيس قوى ومُوَلِّد كهربائى فعَّال

تتكون عضلة القلب من مئات الآلاف من الخلايا العضلية المتشابكة التى تعمل كوحدة واحدة، تدفع الدم فى مسارات محددة عبر غُرَف القلب الأربع ليصل إلى البُطين الأيسر (الغرفة الأخيرة) الذى يدفعه إلى الشريان الأورطى ليغذى أجزاء الجسم المختلفة.

ولكل خلية من خلايا القلب العضلية **مجال كهرومغناطيسى**[١]، يمثل اللغة التى تتواصل بها مع الخلايا المحيطة. وتقوم الخلايا المستقبِلَة بفك شفرة هذه الرسالة الكهرومغناطيسية، والتجاوب معها بتحديد قوة واتجاه وتوقيت انقباضها. وينعكس ذلك فى الظروف الطبيعية على هيئة تغيرات غير ملحوظة فى معدل وانتظام ضربات القلب، وتظهر هذه التغيرات فى رسم القلب الكهربائى، وتُعرف **بتغيرات معدل ضربات القلب (HRV) Heart Rate Variability**[٢].

ويمكن تسجيل النشاط الكهربائى لعضلة القلب من أى مكان من جلد الإنسان، باستخدام رَسَّام القلب الكهربائى ECG. **وتبلغ شدة هذا النشاط ستين ضعف شدة النشاط الكهربائى للمخ**، والذى يمكن تسجيله من الرأس فقط عن طريق رَسَّام المخ الكهربائى EEG.

وتؤدى التغيرات فى النشاط الكهربائى للقلب إلى توليد مجال مغناطيسى متغير حول القلب (كما تؤكد النظرية الكهرومغناطيسية لماكسويل). **وتبلغ قوة هذا المجال المغناطيسى ٥٠٠٠ ضعف قوة المجال المغناطيسى للمخ**، ويمكن رصد المجال على مسافة تصل إلى ٢-٣ أمتار حول جسم الإنسان[٣].

(١) يتم التنسيق بين الخلايا العضلية للقلب عن طريق نظام توصيل Conducting System، يتكون من مراكز عصبية وشبكة عصبية هائلة، تنتقل خلالها الرسائل على هيئة نبضات كهربائية.

(2) **McCraty, R.,M. Atkinson, et al.** (1995). The effects of emotions on short term heart rate variability using power spectrum analysis American Journal of Cardiology 76: 1089-1093.

Umetani, K., D. H. Singer, et al. (1998). Twenty-four hours time domain heart rate variability and heart rate: relations to age and gender over nine decades. Journal of the American Collage of Cardiology 31(3): 593-601.

(3) **Damasio, A.R.** (1994). Descartes' Error, Emotion, Reason and the Human Brain. NY, G.p. Putnam's Sons.

Watkins, A. D. (1995). Perceptions, emotions and immunity: an integrated homeostatic network. Quarterly Journal of Medicine 88: 283-294.

وقد أثبتت التجارب أن المجال الكهرومغناطيسى للقلب يؤثر على (موجات ألفا) الكهربائية الصادرة من المخ، والتى تَنْشَط وقت الاسترخاء، ويمكن رصد ذلك باستخدام رَسَّام المخ الكهربائى[1].

كما ثبت حديثًا، باستخدام أجهزة رصد دقيقة، حدوث تداخل بين المجالين الكهرومغناطيسيين لقلبى شخصين متجاورين. ويؤدى هذا التداخل فى بعض الحالات إلى نوع من التناغم، كما يؤدى إلى التشويش فى بعض الحالات الأخرى![2].

وإذا كان الكثيرون من الباحثين يعترضون على نتائج هذه الدراسات، فإن حدوث التداخل بين المجالات الكهرومغناطيسية يعتبر بديهية فيزيائية نستشعرها جميعًا فى تشويش التليفونات المحمولة على الأجهزة الإلكترونية المحيطة بنا.

ماذا تقول قلوبنا؟

إذا نظرنا إلى أنواع الموجات المختلفة الصادرة من القلب، وجدناها تختلف سرعةً وبطئًا؛ فالأصوات التى يسمعها الأطباء بالسماعة موجاتها بطيئة، والنبض الذى يجسونه عند رسغ اليد تكون موجاته أبطأ، أما الموجات الكهرومغناطيسية فتكون شديدة السرعة، وتختلف فى سرعتها من حين لآخر كما نرصدها فى رسم القلب الكهربائى.

ولنتصور محتوى الرسائل التى تحملها الموجات المختلفة، قارن بين التأثير المهدئ الذى يحدثه تربيت الأم على ظهر طفلها الذى يبكى، وبين تأثير الإيقاع المرعب فى خلفية أحد أفلام الإثارة. ولاحظ كذلك تأثير كل من الموسيقى الهادئة والموسيقى الصاخبة على ضربات القلب وسرعة التنفس وعملية الهضم، وأيضًا على التركيز فى العمليات العقلية وعلى الحالة النفسية...

---

(1) **Gahery, Y. and D. Vigier** (1974). Inhibitory effects in the cuneate nucleus produced by vagoaortic afferent fibers. Brain Research 75: 241-246.
Mc Craty, R. and M. Atkinson (1999). Influence of afferent cardiovascular input on cognitive performance and alpha activity. Proceedings of the Annual Meeting of the Pavlovian Society, Tarrytown, NY.

(2) **Rein, G., M. Atkinson, et al.** (1995). The physiological and psychological effects of compassion and anger. Journal of Advancement in Medicine 8(2): 87-105.

وإذا كانت المجالات الكهرومغناطيسية المحيطة بنا تحمل ما لا حصر له من المعلومات[1]، فما نوع المعلومات التى يمكن أن تحملها الموجات الكهرومغناطيسية الصادرة من وإلى القلب؟

نُمهد للإجابة عن هذا السؤال، بمثال لتعامل جسم الإنسان مع الموجات الكهرومغناطيسية:

تبصر العين البشرية سبعة ألوان أساسية (ألوان الطيف)، تختلف فى تردداتها وأطوال موجاتها. وتحول شبكية العين هذه الموجات إلى شفرة كهربائية، ينقلها العصب البصرى إلى مراكز الإبصار، حتى تصل إلى القشرة المخية التى تقوم بفك هذه الشفرة وترجمتها إلى ألوان. ولا يقف الأمر عند هذا الحد، بل يتم المزج والتداخل بين موجات هذه الألوان السبعة، لتجعلنا نبصر عددًا لا حصر له من الألوان التى يبتدع الإنسان المزيد منها كل يوم[2].

فى هذا المثال، يترجم المخ الموجات المتداخلة إلى ما لا نهاية له من ألوان، فما الموقف مع القلب؟ للإجابة عن هذا السؤال، نبدأ بعرض مفهوم شديد الأهمية، وهو مفهوم التوافق.

التوافق Coherence [3]

التوافق هو التعاون والتنسيق بين نظم متعددة تقوم بوظائف محددة، للخروج بوظيفة أكثر تعقيدًا[4].

(١) حاول أن تتصور مقدار الضجيج الصامت الذى يملأ الهواء والفراغ خارج غلاف الأرض الجوى. تصور حوارات البشر عبر الهواتف المحمولة، وكذلك البث التليفزيونى عبر الأقمار الصناعية لعشرات الآلاف من القنوات التليفزيونية والفضائية، وتصور أيضًا ما يملأ الفضاء من معلومات نتبادلها عبر شبكة المعلومات (Net). كل هذه المعلومات تحملها الموجات الكهرومغناطيسية لتصل إلى الأجهزة القادرة على استقبالها وفك شفرتها (أجهزة الراديو والتليفزيون ومستقبل الدش والكمبيوتر...).

(٢) يحدث الشىء نفسه عند تذوقنا للطعام. فبراعم التذوق فى ألسنتنا تحس بأربعة مذاقات (الحامض - الحلو - المر - المالح)، وتترجم البراعم هذه المذاقات إلى نبضات كهربائية (تشفير) تصل إلى مراكز التذوق فى المخ، حيث يتم فك الشفرة. ويتم المزج والتداخل بين هذه المذاقات الأساسية لنحصل على ما لا نهاية له من مذاقات الأطعمة المختلفة التى يتناولها البشر جميعًا باختلاف عادات بلادهم الغذائية.

(٣) التوافق Coherence مفهوم نقابله فى حياتنا اليومية. فالتوافق فى الموسيقى هو تناسق النغمات وأداء الآلات الموسيقية، حتى يخرج اللحن متناغمًا وليس نشازًا. والتوافق فى الفيزياء هو اندماج أكثر من موجة لإصدار نمط منتظم، مثل اندماج فوتونات الضوء لإصدار أشعة الليزر.

(4) McCraty, R. (2000). Psychophysiological coherence: A link between positive emotions, stress reduction, performance and health. Proceedings of the Eleventh International Congress =

وللتوافق فى جسم الإنسان ثلاثة مستويات. **فالتوافق الفسيولوجى** (الجسدى) يتمثل فى التعاون والتنسيق بين بعض أجهزة الجسم للقيام بمهمة معينة، كما يحدث بين عضلة القلب والجهاز التنفسى لإمداد جسم المتسابق باحتياجاته من الأكسجين أثناء العَدْو.

وعلى المستوى النفسى، يستخدم المهتمون بالمجال الكهرومغناطيسى للقلب اصطلاح «**حالة التوافق**» لوصف المشاعر الإيجابية، كالحب والتقدير وفرحة النجاح، ويستخدمون اصطلاح «**عدم التوافق**» لوصف المشاعر السلبية، كالكُرْه والغضب والضيق والإحباط.

وتؤدى حالة «**التوافق النفسى**» Psychological Coherence إلى «**توافق فسيولوجى**» Physiological Coherence، يتمثل فى انتظام ضربات القلب، واستقرار الجهاز العصبى اللاإرادى، وأداء سليم للمخ وباقى أجهزة الجسم. ويصحب ذلك أيضًا «**توافق عقلى**» Mental Coherence، يؤدى إلى صفاء الذهن وتحسن القدرة على القيام بالعمليات العقلية، وزيادة حدة الإبصار والسمع وردود الأفعال.

إذن، **فالتوافق يشمل الجوانب النفسية والعقلية والجسدية**، مما يؤدى إلى أداء عمل أفضل وتوتر أقل، وتحقيق الاستقرار النفسى والشعور بالرضا، وفوائد متعددة على المستويات الثلاثة.

وفى المقابل، تؤدى **حالة عدم التوافق النفسى Psychological incoherence** إلى حالة من عدم التوافق الفسيولوجى، يتمثل فى الاضطراب فى معدل وانتظام ضربات القلب، وزيادة نشاط الجهاز العصبى الودى (السيمبتاوى). ويؤدى ذلك إلى العديد من **الأمراض النفس ـ جسمية** Psycho-Somatic diseases، كقرحة المعدة والتهابات القولون والأمراض الروماتزمية وانخفاض المناعة، وكذلك ارتفاع ضغط الدم والذبحات الصدرية والجلطات القلبية، بل والموت الفجائى[(١)]. كما يصحب عدمَ التوافق النفسى **اختلالٌ فى التوافق العقلى**، على هيئة اضطراب وإجهاد ذهنى !

=on Stress, Mauna Lani Bay, Hawaii.

Childre, D. and B. Cryers (2000). From Chaos to Coherence: The Power to Change Performance. Boulder Creek, CA, Planetary.

Tiller, W., R. McCraty, et al. (1996) Cardiac coherence; A new non-invasive measure of autonomic system order. Alternative Therapies in Health and Medicine 2(1): 52-65.

(١) فى حالات عدم التوافق النفسى، لاحظ الباحثون:

أ- انخفاض الأجسام المضادة S-IgA التى تُعتبر خط الدفاع الأول فى مناعة الأجهزة التنفسية والهضمية والبولية.

ب- نقص نسبة هورمون DHEA المعروف بالهورمون المضاد للشيخوخة. ويؤدى ذلك إلى نقص المناعة وأمراض=

لذلك يخبرنا د. بول روش Paul Rosch (رئيس المعهد الأمريكى لعلاج التوتر) أن ٧٥ - ٩٠٪ من المرضى المترددين على العيادات الخارجية للفحص الأوَّلى يعانون من مشاكل ترجع إلى عدم التوافق النفسى. ويضيف د. روش: لقد **أصبح مفهوم الصحة يتجاوز الخلو من الأمراض، إنه الحياة فى توافق مع أنفسنا ومع الآخرين ومع البيئة.**

والآن، نعود إلى التساؤل عن ماذا تقول قلوبنا، **وكيف يتعامل القلب مع المجالات الكهرومغناطيسية، وما علاقة ذلك بالتوافق؟**

كيف تعلمت قلوبنا الكلام؟

يعود التداخل بين المجالات الكهرومغناطيسية لقلوب الأشخاص المتجاورين **إلى وقت أن كنا أجنة فى الأرحام**، حيث كنا مغمورين تمامًا فى المجال الكهرومغناطيسى لقلوب أمهاتنا. ويظهر ذلك على هيئة تزامن وتآلف موجات رسم المخ الكهربائى ورسم القلب الكهربائى لكل من الأم والجنين.

وأثناء **فترة الرضاعة**، حيث تحمل الأم طفلها قريبًا من قلبها[1]، أثبتت الدراسات أن المجال المغناطيسى لقلب الطفل يتم ضبطه ضبطًا دقيقًا ليستكمل تزامنه وتآلفه مع مجال الأم.

وخلال فترة الحمل والرضاعة **تنقل الأم الكثير من المعلومات لطفلها، عن طريق المجال الكهرومغناطيسى**، ومن أبسط هذه المعلومات الشعور بأنه طفل مرغوب فيه ومحبوب. وفى هذا المعنى يقول إيزاك كوخ Yetizhak Koch أستاذ الغدد الصماء بكاليفورنيا: إن لبن الأم ليس مجرد مصدر للغذاء، إنه طريق تنقل به الأم المعرفة لطفلها.

=القلب وارتفاع معدلات السرطان والألزهايمر.

جـ- ارتفاع نسبة هورمون الكوتيزون (هورمون التوتر)، مما يؤدى إلى ارتفاع ضغط الدم وارتفاع نسبة السكر بالدم، ويؤدى إلى هشاشة العظام والألزهايمر وانخفاض المناعة وتأخر التئام الجروح.

وفى المقابل يؤدى التوافق النفسى إلى زيادة فى مستوى الهورمون المضاد للشيخوخة إلى الضعف، ونقص هورمون التوتر إلى النصف.

Grossarth-Maticek, R. and H. J. Eysenck (1995). Self-regulation and mortality from cancer, coronary heart disease and other causes: A prospective study. Personality and Individual Differences 19(6): 781-795.

(١) أثبتت الدراسة أن ٩٠٪ من الأمهات فى جميع الحضارات يحملن أطفالهن على جانبهن الأيسر، قريبًا من قلوبهن. ولا يرجع ذلك إلى رغبتهن فى تحرير أيديهن اليمنى ليستخدمنها فى الأعمال المختلفة؛ إذ يحدث الشىء نفسه مع الأمهات العُسر (اللاتى يستخدمن أيديهن اليسرى).

ويتعلم الطفل فك شفرة الموجات الكهرومغناطيسية لقلب الأم؛ إذ نشأ مغمورًا فيها، تمامًا كما نتعلم لغتنا الأم من الوسط الذى ننشأ فيه. لذلك **تظل قلوبنا قادرة على قراءة تلك اللغة والتأثر بها طوال حياتنا**، ويصبح القلب قابلًا للتأثر بكل المجالات الكهرومغناطيسية المحيطة.

معنى ذلك أن القلب يعمل كمستقبِل Reciever أو عضو إحساس Sense organ كالعين واللسان، إلا أنه لا يترجم الموجات الكهرومغناطيسية إلى ألوان ومذاقات، ولكن إلى مشاعر وانفعالات وأحاسيس، فتجدنا نشعر بالانقباض فى القلب تجاه موقف ما، وبالارتياح تجاه موقف آخر، وهكذا [١].

ويستجيب القلب للمعلومات الواردة إليه بإصدار رسائل وتعليمات إلى المخ وباقى أجزاء الجسم، على هيئة كيميائية (هورمونات يفرزها القلب) وعصبية (من خلال الجهاز العصبى اللاإرادى) وميكانيكية (على هيئة تعديلات فى معدل وانتظام ضربات القلب وتغيير فى ضغط الدم)، هذا بالتأكيد بجانب الرسائل الكهرومغناطيسية، وسنطرح هذه الآليات بعد قليل بشىء من التفصيل [٢].

وللاستدلال على دور المجال الكهرومغناطيسى لقلب الإنسان فى إحداث التوافق النفسى والعقلى والجسدى، **يطرح المهتمون بهذه المجالات مستويات أخرى من التواصل تقوم بها هذه الموجات**، منها:

١- التواصل داخل جسم الإنسان:

ربما كان **العلاج بالإبر الصينية** Acupuncture **من أقدم التطبيقات على المجالات الكهرومغناطيسية؛ إذ يرجع إلى ثلاثة آلاف عام قبل الميلاد.**

ويقوم هذا الفرع من الطب الصينى القديم على فكرة **أن هناك مسارات للطاقة (مجالات كهرومغناطيسية) داخل** جسم الإنسان، مسئولة عن الصحة والمرض، وأن هذه المسارات مُمَثَّلة

(1) **Paddison, S.** (1998). The Hidden Power of the Heart: Discovering an Unlimited Source of Intelligence. Boulder Creek, CA, Planetary Publications.

Fredrickson, B. (1998). What good are positive emotions? Review of General Psychology 2(3): 300-319.

(٢) الدكتور فؤاد يحيى أحمد (أستاذ التشريح بجامعة عين شمس) من المهتمين بآليات التواصل بين القلب والمخ، وله مفاهيم دقيقة فى هذا المجال.

فى أجزاء حساسة من الجسم، كالأذن والكف والقدم. لذلك يقوم المتخصصون بغرز إبر دقيقة فى نقاط معينة من هذه الأعضاء، لعلاج الآلام والكثير من الأمراض فى أماكن مختلفة من الجسم. ومن أكثر استخدامات الإبر الصينية إبهارًا، استخدامها بنجاح مقبول فى تخدير المرضى لإجراء العمليات الجراحية[1].

وحسمًا للحيرة التى تسيطر على الأوساط العلمية تجاه هذه التقنيات، أصدر المعهد القومى للصحة NIH بالولايات الأمريكية بيانًا لخص فيه الموقف، جاء فيه البيان: بالرغم من أنه يصعب تفسير الطب الصينى التقليدى فى ضوء مفاهيمنا التشريحية والفسيولوجية، فسيظل للعلاج بالإبر الصينية دور كبير فى تشخيص وعلاج العديد من الحالات المرضية.

٢- تواصل مع البشر

توصل العلماء إلى وجود مواد كيميائية (تُعرف بالفيرومونات **Pheromones**) تُفرَز فى عَرَق الإنسان ويشمها الآخرون (ولا يدركون رائحتها) فتُفَجِّر فيهم العديد من المشاعر مثل الأمومة والحب، ومثل العزوف عن زواج المحارم.

وقد اكتفى معظم البيولوجيين بهذه الآليات الكيميائية، ولم يتنبهوا لوجود دور إضافى مهم للمجالات الكهرومغناطيسية. وعندما اهتم بعض الباحثين مؤخرًا بهذه المجالات، توصلوا إلى نتائج مدهشة:

فإذا كان الشباب يتحدثون فى السنوات الأخيرة عن «الكيميا» (يقصدون الفيرومونات) لتفسير سر انجذابهم للطرف الآخر من أول نظرة، فقد استُخدِم اصطلاح «الجاذبية» منذ مئات السنين !! وقد أثبت الباحثون مؤخرًا حدوث التناغم بين المجالات الكهرومغناطيسية لقلوب من يأتلفون، سواء بين المحبين أو بين الأم وأطفالها !

كذلك تتبع د. جارى شوارتز Gary Schwartz (أستاذ الطب النفسى فى جامعة أريزونا)، أكثر من ٣٠٠ مريض أُجريت لهم جراحات لزراعة القلب، فلاحظ حدوث تغيرات نفسية وعقلية جذرية لجميع المرضى بعد الجراحة، خاصة هؤلاء الذين رُكِّبَت لهم قلوب صناعية! لكن الكثيرين من أطباء القلب والأمراض النفسية رفضوا أن تُرجَع هذه التغيرات إلى أن للقلب

(١) فسر الطب المعاصر نجاح هذه التقنية بما يعرف «بنظرية البوابة Gate Theory». وترى هذه النظرية أن الاهتزازات التى يحدثها المتخصصون فى هذه الإبر المغروسة فى الجسم، ترسل موجات تعترض البوابات التى تمر منها مسارات الألم، فلا يصل الألم إلى المخ.

وظيفة عقلية وشعورية، وفسروها بأن هؤلاء المرضى كانوا على شفا الموت وأنهم عانوا الكثير قبل الجراحة وأثناءها وبعدها، مما أدى إلى تغيرات كبيرة فى حالتهم النفسية والعقلية.

٣- تواصل مع النبات :

أظهرت الأبحاث المستفيضة التى أجراها عالم النبات الهندى د. بوس Jagadis C. Bose[١] أن **للنبات جهازًا عصبيًّا**، يشبه الجهاز العصبى للإنسان والحيوان إلى حد بعيد[٢]! ومن خلال هذا الجهاز، استطاع العلماء تفسير العديد من الظواهر التى يصعب تفسيرها بالآليات الكيميائية، كارتخاء أوراق نبات (الست المستحية) فور ملامستنا لها.

وقد ثبت أن **لهذا الجهاز العصبى مجالًا كهرومغناطيسيًّا يتفاعل مع المجالات المحيطة به**، ويفسر ذلك ذبول بعض النباتات فى منازلنا عند سفر من اعتادوا على الاعتناء بها!

٤- تواصل مع غير الأحياء:

من الأبحاث المذهلة فى هذا المجال، ما قام به العالم اليابانى ماسارو إيموتو Masaru Emoto على قطرات الماء أثناء تجميدها[٣].

وقد لاحظ إيموتو انتظام بللورات الماء فى أشكال متناسقة بديعة (أو عشوائية قبيحة) عند التلفظ أمامها بكلمات تعبر عن **مشاعر الود = التوافق (أو الكُرْه = عدم التوافق)** التى تحملها قلوب من يقومون بالتجربة !!

لا شك أن ما تمخضت عنه هذه التجارب من نتائج كانت فوق احتمال الكثيرين من العلماء، فهاجموا د. إيموتو واتهموه بعدم الموضوعية فى أبحاثه.

إن اعتبار القلب مغناطيسيًّا قويًّا ومولدًا كهربائيًّا فعالًا صار بمثابة الحقيقة العلمية، ويبدو **أن التواصل من خلال المجالات الكهرومغناطيسية لا يقف عند الإنسان والكائنات الحية الحيوانية والنباتية، ولكنه قد يمتد ليشمل الموجودات غير الحية أيضًا !**

(١) نشر نتائج أبحاثه فى كتابه The Nervous Mechanisms of plants.

(٢) يتكون الجهاز العصبى للنبات من خلايا ومراكز عصبية، وكذلك وصلات Synapses وألياف عصبية صادرة وواردة Afferent, Efferent nerve Fibers، وأيضًا أقواس عصبية انفعالية Reflex arc. تمامًا كالجهاز العصبى للإنسان والحيوانات.

(٣) نشر نتائج أبحاثه فى ستة كتب، أشهرها كتاب «الرسائل الخفية للماء The Hidden Massages in Water» صدر عام ٢٠٠١.

ثانيًا: المخ الصغير

قد يقول قائل: إن هؤلاء الكهرومغناطيسيين يتحدثون عن القلب وكأنه المخ. **فهل للقلب حقًا مثل هذه القدرات الاستقبالية والإدراكية والإرسالية؟!**

فى عام ١٩٩٤م، فاجأ الدكتور آندرو آرمور[١] Andrew armour (من المؤسسين لعلم أعصاب القلب Neuro-cardiology) العالَمَ بطرح مفهوم فى غاية الأهمية. لقد توصل فى أبحاثه إلى أن **للقلب جهازًا عصبيًا خاصًا** Interinsic Nervous System، يستحق أن يُدْعى المخ الصغير The Little Brain، قياسًا على المخ الكبير الذى فى أدمغتنا !![٢].

ويتركب الجهاز العصبى للقلب من حوالى ٤٠,٠٠٠ خلية عصبية، بالإضافة إلى الأنواع المختلفة من الخلايا الداعمة التى تشبه مثيلتها فى المخ Glial Cells، ويستخدم نفس الناقلات العصبية الكيميائية والبروتينات التى يستخدمها المخ. ونتيجة لهذه المشابهة، ينظر البعض إلى **هذا الجهاز باعتباره جزيرة صغيرة انفصلت عن المخ الأم، واستقرت فى القلب!**

ويمكن لهذا المخ الصغير أن يقوم بتنظيم أداء القلب بمعزل عن الجهاز العصبى، وهذا ما يحدث فى المرضى الذين أُجرِيَت لهم جراحات نقل القلب، التى يتم فيها قطع الأعصاب التى يتواصل بها المخ مع القلب[٣] !

ولا يقف الأمر عند ذلك الحد، بل إن هذا «المخ الصغير» يشارك فى توجيه المخ الكبير! وقد أثبت الباحثون أن تنشيط العصب نظير الودى (الجارسيمبثاوى) فى القلب يؤدى إلى تهدأة النشاط الكهربائى للمخ بنسبة ٥٠٪ !![٤].

---

(١) آندرو آرمور: أستاذ أمراض القلب بجامعة مونتريال بكندا، والمشرف الرئيسى على مجلة Neuro Cardiology. وقد نشر آرمور نتائج أبحاثه فى كتابه «مخ القلب The Heart Brain».

(2) **Armour, J. A. and J. Ardell. Eds.** (1994) Neurocardiology. New York, NY, Oxford University Press.

(3) **Armour, J. A.** (1991). Anatomy and function of the intrathoracic neurons regulating the mammalian heart. In: I. H. Zucker and J. P. Gilmore, eds. Reflex Control of the Circulation. Boca Raton, FL, CRC Press. 1-37.

(4) **Sandman, C. A. B. B. Walker, et al.** (1982). Influence of afferent cardiovascular feedback on behavior and the cortical evoked potential. In: J. Cacioppo, J. T. and R. E. Petty, eds. Perspectives in Cardiovascular Psychophysiology. New York, The Guilford Press.
McCraty, R. W. A. Tiller, et al. (1996). Head-heart entrainment: A preliminary survey. Proceedings of the Brain-Mind Applied Neurophysiology EEG Neurofeedback Meeting, Key West, Florida.

ثالثًا: القلب كغدة صماء

من الحقائق العلمية المدهشة التى تكشفت حديثًا، دور القلب كغدة صماء! فقد ثبت (حتى الآن) أن القلب يفرز ستة هورمونات:

الهورمونات الثلاثة الأولى يُرمز إليها بالحروف ANH[١] - NPPC[٢] - BNP[٣].

وتقوم ثلاثتها بدور هام فى تنظيم كمية الماء وأملاح الصوديوم والبوتاسيوم بالجسم، لذلك يؤدى الخلل فيها إلى إصابة الإنسان بالعديد من الأمراض، وأهمها ارتفاع ضغط الدم.

كما تقوم هذه الهورمونات بدور هام فى **تنظيم عمل المخ !** فهى تُحسِّن من أداء منطقة تحت المهاد Hypothalamus والغدة النخامية Pituitary gland، المسئولتين عن العديد من الوظائف الحيوية لجسم الإنسان، كتنظيم درجة حرارته، وتنظيم ضغط الدم والتحكم فى نشاط جميع الغدد الصماء بالجسم. كذلك تُنَشِّط هذه الهورمونات تكوين بروتين[٤] مسئول عن **حماية الخلايا العصبية** مما تتعرض له من توترات، خاصة فى منطقة فرس البحر Hippocampus التى هى مركز الذاكرة الواعية.

والهورمون الرابع الذى يفرزه القلب هو **هورمون الأكسيتوسين Oxytocin**، الذى كان يُعتقد أنه يُفرز من الغدة النخامية بالمخ فقط، ثم ثبت أن مستواه فى الخلايا التى تفرزه فى القلب يصل إلى نفس تركيزه فى المخ !

ولهذا الهورمون (المعروف بدوره فى تنشيط عملية الولادة وإدرار اللبن) دور هام فى الأنشطة المعرفية والجنسية والسلوكية، وفى الشعور بالأمومة، كما يدعم قدرة الإنسان على تحمل التوترات والتأقلم معها. لذلك صار الأكسيتوسين يُعرف بأنه **هورمون الترابط والتوافق**.

وأخيرًا أثبت د. آرمور[٥] قيام القلب بإفراز **هورمونَىْ النورأدرينالين Noradrenalin**

(١) Atrial Natriuretic Hormone :ANH.

(٢) Brain Natriuretic Hormone :BNP كان يُعتقد قبلًا أنه يُفرَز من المخ.

(٣) Natriuretic Peptide Precursor :NPPC.

(٤) Beta amyloid Precursor Protein.

(٥) أثبت د. آرمور وجود خلايا تُعرف باسم ICA Intrinsic Cardiac Adrenergic Cells فى جدار عضلة القلب، وهى المسئولة عن إفراز هذين الهورمونين..

ذى الدور الكبير فى إعداد الجسم للتعامل مع التوتر، وكذلك الدوبامين **Dopamin** الناقل العصبى الذى يقوم بدور هام داخل المخ وخارجه.

يا الله... إنها لغة أخرى يتواصل بها القلب مع أجهزة الجسم المختلفة ويوجهها، وعلى رأس هذه الأجهزة السيد... المخ !

التواصل بين المخ والقلب

Heart – Brain Entertainment

تحدثنا فى النقاط الثلاث السابقة عن الجديد فى مجال فسيولوجيا القلب. ربما كان بعض الحقائق العلمية المرتبطة بهذه المفاهيم معلومًا من قبل، لكن استكمال الأبحاث فى هذه المجالات والتوصل إلى أن للقلب دورًا فى المشاعر والأحاسيس، لم يتم إلا مؤخرًا.

وإذا كان المخ هو عضو الشعور والإحساس، وهو المسئول عما يدور بداخلنا من أفكار، فكيف يتم التواصل بين هذين العضوين الحيويين (المخ والقلب)؟

لقد ثبت أن التواصل يتم من خلال أربع آليات:

أولًا: آلية عصبية Nervous Mechanism

ذكرنا أن المخ يتحكم فى تنظيم عمل القلب من خلال الجهاز العصبى اللاإرادى ANS (بشقيه الوُدى والجار ودى)؛ **إذ تنقل أعصاب هذا الجهاز التعليمات من المخ إلى القلب.**

والذى ثبت حديثًا، أن هناك إشارات غزيرة تنطلق فى الاتجاه المعاكس (من القلب إلى المخ) عن طريق نفس الجهاز العصبى اللاإرادى. ولا تنتهى هذه الإشارات عند جذع المخ Brain Stem الذى هو مركز التحكم فى هذا الجهاز، بل تصعد إلى مراكز المخ الأعلى وتؤثر فى عملها، فتصل إلى:

- لوزة المخ Amygdala: وهى المركز المسئول عن وظائفنا الانفعالية وعن توجيه سلوكياتنا، بناءً على مشاعرنا.

- المهاد Thalamus: وهو المحطة الأولى للإشارات القادمة من أعضاء الحس المختلفة (العين، الأذن...). ومن المهاد تصدر الإشارات إلى مراكز القشرة المخية المسئولة عن الإدراك التفصيلى لهذه الأحاسيس.

- **قاع الفص الأمامى للمخ** Base of Frontal Lobe: وفيه يقع المركز المسئول عن التنسيق بين المشاعر والوظائف العقلية.

ومن التطبيقات الهامة وشديدة الدلالة على دور القلب فى توجيه نشاط المخ، ما يُعرف باسم «**تنشيط العصب الحائر Vagus Nerve Stimulation VNS**»[1]. وقد أقرت الهيئة الأمريكية للأغذية والعقاقير FDA استخدام هذه التقنية لعلاج حالات الصرع المستعصية عام ١٩٩٧، ولعلاج حالات الاكتئاب المستعصية عام ٢٠٠٥. وما زالت الإدارة تدرس استخدام هذه التقنية فى علاج حالات أخرى كالتوتر والألزهايمر والصداع النصفى.

ثانيًا: آلية كهرومغناطيسية Electro-Magnetic Mechanism

تحدثنا بإسهاب عن دور القلب كمغناطيس كبير ومولد للطاقة الكهربائية، وعلاقة ذلك بأداء المخ.

ثالثًا: آلية ميكانيكية Mechanical Mechanism

يحتوى الأذين الأيمن للقلب (الغرفة المسئولة عن استقبال الدم الراجع من الجسم إلى القلب)، وكذلك الجزء الأول من الشريان الأورطى (المسئول عن توزيع الدم المدفوع من القلب إلى الجسم) على **مستقبلات ميكانيكية** Baroreceptors، تشارك فى تحديد معدل ضربات القلب وكمية وضغط الدم المدفوعة منه، وتتحكم كذلك فى نشاط القلب الكهربائى. **وتؤثر هذه المتغيرات على النشاط الكهربائى للمخ (موجات ألفا)، ومن ثَمَّ تؤثر فى أداء مراكزه المختلفة.**

---

(١) يحمل العصب الحائر الإشارات العصبية المهدئة من المخ إلى القلب، كما يحمل الإشارات فى الاتجاه المعاكس.
وتعتمد هذه التقنية على لف سلك حول العصب الحائر الأيسر بالعنق وتوصيله ببطارية كمصدر للتيار الكهربائى.
إن تنشيط العصب الحائر بهذا التيار الكهربائى يماثل إرسال القلب (فى الظروف العادية) لإشارات كهربائية للمخ عن طريق العصب نفسه لتنظيم عمل المخ.
وفى الحالتين (إشارات من القلب أو من البطارية) تؤدى النبضات الكهربائية إلى تعديل إفراز بعض الناقلات العصبية بالمخ كالنورأدرينالين والجابا GABA، مما يؤثر على النشاط الكهربائى للقشرة المخية.

رابعًا: آلية كيميائية Chemical Mechanism

تحدثنا عن إفراز القلب لستة هورمونات (على الأقل)، وذكرنا دورها فى توجيه العديد من نشاطات الجسم والمخ.

هكذا يتواصل القلب مع المخ، ويؤدى هذا التواصل إلى أن[1]:

للقلب دورًا فى الشعور !

للقلب دورًا فى التفكير !

فى كتاب «القلب الذكى The Intelligent heart»، يوضح مؤلفاه[2] دور القلب فى توجيه حياتنا الفكرية والشعورية، بأسلوب رشيق لا يحيد عن الدقة العلمية، فيقولان:

مع كل نبضة، لا يدفع القلب دفقة من الدم فقط، بل يبعث برسائل (عصبية - هورمونية - ميكانيكية - كهرومغناطيسية) إلى المخ، مُحَمَّلة بالكثير من المعلومات. **فإذا كانت نبضات القلب فى توافق عالٍ (من ناحية المعدل والتناغم) فسوف تصل هذه المعلومة إلى المخ فتتحسن وظائف القشرة المخية (الحسية والإدراكية والمعرفية والذهنية والنفسية). ويؤدى ذلك إلى صفاء عقلى** ونفسى، مع قدرة أعلى على وزن الأمور واتخاذ القرار، فتتفجر القدرات الإبداعية للإنسان. ويؤدى ذلك كله إلى قدر عالٍ من التوافق العقلى والتوافق النفسى.

ويمكن النظر إلينا باعتبارنا **مغناطيسات متحركة، لها قوى جذب وتنافر تتفاعل مع المتشابهين والمخالفين.** وقد أكدت الدراسات تأثير الحب والحنان والرعاية التى يلقاها مرضى السرطان من قِبَل أهليهم وأطبائهم وممرضاتهم فى الحد من تقدم المرض، وذلك من خلال التحسن الملحوظ فى أداء الجهاز المناعى للمريض.

القارئ الكريم..

تَجَمَّع لنا من هذا الفصل، والفصل السابق له، الكثير من المعلومات، التى تؤكد وجود علاقة قوية بين المفاهيم الروحية والدينية وكذلك الشعور والتفكير، وبين بيولوجية جسم الإنسان.

---

(١) كان ثالوث الفلسفة اليونانية القديمة (سقراط - أفلاطون - أرسطو) يؤمنون أن كلًّا من العقل (مهمة المخ) والشعور (مهمة القلب) يمثلان جانبين متقابلين للروح الإنسانى، وليسا من وظائف الجسد المادى، وأنهما فى صراع دائم لتوجيه الإنسان. لذلك شبه أفلاطون المشاعر بالحصان البرى الجامح الذى يروضه العقل.

(٢) David Mc Arthur و Bruce Mc Arthur من الكتاب المهتمين بالذكاء الروحى وبالعلاقة بين الشعور والتفكير.

وقد ألزمنا التناول الأمين لهذه القضية طرح ما تم التوصل إليه، دون القفز إلى وضع تصور متكامل لهذه العلاقة.

لقد تبنى المهتمون بهذه المفاهيم عِدَّة مواقف:

تبنى الملحدون موقف الرفض، وهذا أمر طبيعي.

اتخذ المتدينون موقفًا من ثلاثة:

- هناك مَنْ هَرْوَلَ إلى وضع استنتاجات حاسمة، معتبرًا ما تم التوصل إليه من مفاهيم حقائق علمية متكاملة، واعتبرها البعض من أدلة الإعجاز العلمى القاطعة للقرآن الكريم.
- هناك من تحفظ بشدة، معتبرًا أن المشاعر الروحية والدينية من شئون الروح، وليس للجسد دخل فيها. ويخشى هذا الفريق أن يَردنا الطرح العلمى إلى الفكر المادى، ومن ثَمَّ إلى الإلحاد. وسنُفَصِّل هذا الموقف فى الفصل القادم.
- من المتدينين من يرى أن الله ﷻ جعل من هذه الآليات البيولوجية حلقة الوصل بين الروح والجسد، تمامًا كما جعل المخ آلة العقل فى الإنسان. ولا شك أن هذا هو الموقف الأصوب.

وككلمة أخيرة، نختم بها هذين الفصلين عن الدين والبيولوجيا، نقول:

إذا كانت النظرة العلمية التقليدية تؤكد انفراد المخ بالنشاط العقلى ومسئوليته عن الحالة النفسية، فقد تمخضت الأبحاث الحديثة الدقيقة عن نظرات ونظريات جريئة، ستكشف النقاب فى المستقبل عن **كيف يسلك الإنسان كمنظومة متصلة متكاملة من منظومات أصغر (الروح – العقل – النفس – الجسد) تقوم فيها الشفرة الوراثية والمخ، كما يقوم فيها القلب، بدور كبير.**

ولا شك أنه لن تمضى سوى عقود قليلة من الأعوام، حتى يكون العلم قد اقترب بشكل كبير من الإجابة عن تساؤلات كل من الماديين والمتدينين.

الفصل السابع

حقيقة الذات الإنسانية

ماذا بعد البيولوجيا؟

انصَب استعراضُنا فى الفصلين السابقين (الإيمان والبيولوجيا) على الجينات، ومراكز المخ ودوائره العصبية، وعلى القلب وعلاقته بالمخ وبما حوله، أى على الجانب المادى للإنسان. فهل تقف حقيقة الإنسان ككائن حى مفكر متدين عند هذا الحد؟

عندما تصدى البيولوجيون لدراسة الظواهر المميِّزة للإنسان (الحياة وما يتبعها من تفكير ومشاعر وسلوك وتدين) استخدموا آليات العلم المادى المعاصر، وأساسها المنهج المادى الاختزالى **Reductionism**، الذى يُشَرِّح الكائن الحى إلى أعضاء، ثم إلى أنسجة، ثم إلى خلايا، ثم جزيئات، حتى يصل بعد ذلك إلى مستوى الذرات والمُكَوِّنات تحت الذرية وموجات الطاقة. ولا شك أن المنهج الاختزالى بذلك يكون قد اختزل الحياة (البيولوجيا) إلى المادة (الفيزياء). وتكون ظاهرة الحياة التى يدرسها قد اختفت من الخلية أصلًا!! فالحياة ليست هى الجزيئات أو الذرات أو الطاقة.

وسنطرح فى بداية هذا الفصل مثالين يُظهران قصور هذا المنهج الاختزالى: جزىء الدنا DNA وعلاقته بالحياة، ثم العلاقة بين المخ والعقل.

الدنا DNA

حين توصل العلماء إلى أهم اكتشاف بيولوجى فى القرن العشرين، وهو **اكتشاف تركيب جُزىء الدنا DNA وآلية عمله**[1]، ظن كثير من البيولوجيين أن العلم قد اكتشف سر الحياة.

وبعد خمسين عامًا من الأبحاث المُضنية زال الانبهار، وبدأ البيولوجيون يرون الحقيقة. وهى أن **الدنا DNA** مجرد جُزىء بيولوجى مُرَكَّب بطريقة مذهلة ويعمل بطريقة مُبهرة، بحيث يحتوى على المعلومات الكيميائية التى تحتاجها الخلية لتصنيع بروتيناتها، ولنقل صفاتها الوراثية[2]، ولكن **ليس ذلك هو سر الحياة.**

إن الدنا DNA كالكلمات المطبوعة على هذه الورقة التى بين يديك، **إن المعلومات لا تكمن فى الورقة ولا فى حبر الكلمات ولا فى كل كلمة منفردة**، ولكن فى المعانى التى تعبر عنها هذه الكلمات المطبوعة على الورقة. هذه المعلومات يمكن أن تُسَجَّل على شريط ممغنط كما فى جهاز التسجيل، ويمكن أن تُسَجَّل بمنظومة رقمية على أسطوانة مضغوطة CD، كل ذلك لا يهم، المهم هو المعلومات التى تُشفِّر لها هذه الرموز.

معضلة التشكيل Morphogenesis

يرى المفهوم السائد عند الماديين الاختزاليين Reductionists أن الدنا DNA (الذى تتكون منه جينات الخلية) يقوم بكل الدور فى بناء الكائن بصفاته الجسمية والنفسية والسلوكية. وقد تأكد أن هذه النظرة الاختزالية مفجعة فى قصورها؛ إذ ثبت للبيولوجيين حديثًا أن الدنا، وإن

(١) توصل جيمس واطسن وفرانسيس كريك وموريس ولكنز فى أوائل الخمسينيات إلى هذا الاكتشاف، وحصلوا من أجل ذلك على جائزة نوبل فى الطب عام ١٩٦٢.

(٢) يتكون جزىء الدنا من العديد من الحلقات التى تنتظم فى شكل سلسلتين تلتفان حول بعضهما على هيئة ضفيرة، وتلتف هذه الضفيرة حول نفسها بطريقة شديدة التعقيد داخل نواة الخلية. ويبلغ طول هذه الضفيرة إذا فَرَدْنا التفافاتها ٢,٠٤ متر لكل خلية. وإذا وَصَّلنا ضفائر الدنا الموجودة فى خلايا جسم إنسان واحد، لبلغت طولًا مذهلًا، يقطع المسافة من الأرض إلى الشمس أكثر من خمسة ملايين مرة !!

وتنقسم سلسلة الدنا DNA إلى وحدات، هى **الكروموسومات**، التى تتكون من وحدات أصغر هى الجينات. ويقوم كل جين بإعطاء الوصفة الكيميائية اللازمة لتصنيع بعض البروتينات. كما توجد أطوال شاسعة من الدنا ليس بها جينات (تعادل حوالى ٩٥٪ من طول السلسلة) أُطلِق عليها سابقًا اسم **سَقْط الدنا Gung DNA** (أى الدنا الذى لا دور له !)، ثم ثبت حديثًا أن لهذا الدنا الذى أُعتبر سقطًا دورًا أساسيًا فى التحكم control فى تنشيط كل جين حسب برنامج زمانى ومكانى يعجز العقل عن تصوره، حتى صار يُنظر إليه باعتباره «مايسترو» الجينات، كما أن له وظائف أخرى لم يكتشف العلماء معظم أسرارها بعد.

كان يحدد الصفات، فإنه يعجز تمامًا عن تشكيل الكائن على هيئته morphogenesis (أى تحويله **من مجرد معلومات إلى وجود حقيقى).**

ويمكن أن نوضح مفهوم التشكيل بمثال يُقَرِّب لنا الصورة: كيف يمكن أن تتحول كلمات نخطها على أوراق، نَصِف فيها هيئة إنسان، مهما بلغت تفاصيلها ودقتها، إلى إنسان حقيقى (من لحم ودم) ! لقد أصبح من الضرورى الإقرار بأن هناك «**نظامًا ما**» هو المسئول عن هذا التشكيل. ولكن كيف؟ وما هو هذا النظام؟ لا ندرى حتى الآن.

المخ والعقل[1]

وبالمثل، عندما نختزل المخ المادى إلى مكوناته الجزيئية والذرية وتحت الذرية، هل يوصلنا ذلك إلى فهم **حقيقة العقل؟ وهل يرجع النشاط العقلى إلى كيمياء وكهرباء المخ**، التى هى فى النهاية أيونات صوديوم وبوتاسيوم فى حركة دائبة عبر جدار الخلية العصبية؟ كيف تُمكننا حركة هذه الأيونات من أن ندرك المفاهيم المجردة **Concepts** مثل قولنا «إن الإنسان هو ذلك الكائن السامى الباحث عن المَعنَى، المُحِب للجمال، المنبهر بالمجهول، والمتطلع إلى الحقيقة والحق والخير والعدل»؟!

إن المخ جهاز مادى يتكون من شبكات بالغة التعقيد من الخلايا العصبية[2]، تتعامل كلها بلغة واحدة وهى **النبضة الكهروكيميائية**، ويستحيل مهما بحثنا – حتى الآن – داخل المخ، أن نعثر على ما يشير إلى ملايين المشاعر والمفاهيم المُجَرَّدة والأفكار والأحاسيس العقلية.

إن الفرق بين المخ و العقل كالفرق بين نُطق الكلمة ومعنى الكلمة. فالنطق آليه من عالم الطبيعة المادية، إنه عبارة عن صوت مستمر تُخرجه الحنجرة على هيئة ذبذبات واهتزازات فى

(١) يُطلَق اصطلاح العقل على عدد من الوظائف العليا التى تمارسها القشرة المخية للنصفين الكرويين لمخ الإنسان، وتشمل هذه الوظائف: الشعور – التعلم – الذاكرة – اللغة – المنطق – القدرة على الحكم على الأشياء.

(٢) ينبغى أن نذكر هنا أن الخلايا العصبية Neurons التى تم التركيز على دراستها لمعرفة وظائف المخ تمثل حوالى ١٠٪ من خلايا المخ، بينما تمثل الخلايا الدبقية الداعمة Glial Cells حوالى ٩٠٪ من خلاياه، وقد ثبت حديثًا أن لهذه الخلايا دورًا هامًّا فى وظائف المخ يتجاوز كثيرًا ما تم اكتشافه حتى الآن من وظائف داعمة. كذلك ذكرنا أن الدنا الذى أُعتبر سقطًا ولا وظيفة له (سقط الدنا) يمثل حوالى ٩٥٪ من بنية الدنا، إن ذلك يعنى أن العلماء بتركيزهم على الجينات الموجودة داخل الخلايا العصبية عند دراستهم لعمل المخ قد ركزوا على حوالى $\frac{١}{٢}$٪ فقط من مادة المخ!! (١٠٪ × ٥٪) مما يعنى أن حوالى ٩٩,٥٪ من مادة المخ الوراثية لم تتم دراستها جيدًا بعد.

الهواء، ثم يُحدِث الحلق واللسان والشفتان تَقَطُّعات فى هذا الصوت المستمر لتُشَكِّله على هيئة حروف وكلمات، إن الأمر كله فيزياء، هذا هو نطق الكلمات. أما المعنى فهو شيء آخر، فقد يكون تعبيرًا عن الحب أو إعلانًا للحرب أو أى مفهوم آخر، إن معنى الكلمات شيء خارج عن هذه الآليات المادية وعن تركيب الكون المادى!

الإجابة عند الميتافيزيقيين

بدأ بعض كبار العلماء يتحدثون عن العجز الكامل عن فهم آلية التشكيل Morphogenesis اعتمادًا على الدنا فقط، ويتحدثون كذلك عن أن النشاط الكهروكيميائى لخلايا المخ يعجز وحده عن تفسير العقل والسلوك[١].

ويرى هؤلاء العلماء أنه **لا بد من توسيع تصوراتنا، لتشتمل على نوع ما من المجالات فوق المادية Supernatural Fields**، تكون هى المسئولة عن التشكيل، ومسئولة كذلك عن العقل والسلوك لكل كائن حى. لذلك يؤكد فرانكلين هارولد **أن الفكر المادى الطبيعى Naturalism قد فشل فى تفسير أو فهم الظواهر الثلاث الكلية وهى الكون - الحياة - العقل.**

وللفيلسوف دافيد شالمرز[٢] David Chalmers بحث قيم بعنوان: **العقل ومكانته فى الطبيعة** «consciousness and its place in nature» استعرض فيه الأفكار المعاصرة التى تُطرَح حول حقيقة العقل، وتحاول تفسير كيف تنشأ الأحاسيس والمعانى والأفكار المجردة، وما مصدرها.

ويخبرنا شالمرز أنه قد تصدى لهذه القضية اتجاهان رئيسيان: **الاتجاه المادى الفيزيائى** الذى يَفْترض أن العقل ظاهرة مادية من نَتَاج المخ، وأن كهرباء وكيمياء المخ يمكن أن تُفَسِّر لنا العقل وما يمثله من وعى وإحساس وأفكار مجردة، ومن ثم **فليس هناك شيء آخر فوق المخ.**

أما **الاتجاه اللامادى اللافيزيائى**، فيرى أن العقل ظاهرة غير فيزيائية غير مادية، وإن كان على اتصال بالظواهر الفيزيائية. ويرى هذا الاتجاه **أن العقل والمخ يختلفان تمام الاختلاف،**

(١) انظر كتاب «مسار الخلية The way of the cell» (نشر عام ٢٠٠٣) تأليف فرانكلين هارولد Franklin Harold، أستاذ الكيمياء الحيوية والبيولوجيا الجزيئية بجامعة كلورادو.

(٢) أستاذ الفلسفة الشهير ومدير مركز أبحاث العقل فى أستراليا. والبحث المذكور نُشر لأول مرة فى كتاب فلسفة العقل (عام ٢٠٠٢). Phylosophy of mind, classical and contemporary readings.

وينتميان إلى عالَمين مختلفين، المخ ينتمى إلى عالم المادة، بينما ينتمى العقل إلى عالم غير مادى لا ندرك حقيقته بتاتًا.

ظاهرة الرؤية المسبقة = ظاهرة الشعور بالأُلفة

ومن الأدلة القوية التى يقدمها أصحاب الاتجاه اللامادى **ظاهرة الرؤية المُسبَقة** Deja Vu Phenomenon. وهى ظاهرة معروفة فى علم النفس، بل عشناها كلنا أو معظمنا.

تعنى الرؤية المُسبَقة، أننا قد نَمُر فى حياتنا بموقف ما، ونشعر تجاهه بالألفة، وبأننا قد عايشنا هذا الموقف بملابساته وتفاصيله من قبل، بل نشعر أن عقلنا قد سبق واطَّلَع فى أحد أحلامنا على ما سوف يحدث من تفاصيل الموقف !!

لقد بَسَّطَ الماديون الأمر ليخرجوا من هذا المأزق، وعَللوه بأنه مجرد **تَوَهُّم Illusion** نشعر به فى لحظتها. كما قدموا تفسيرًا آخر للظاهرة، وهو **أن أحد نصفى المخ قد أدرك الموقف قبل النصف الآخر** بجزء ضئيل جدًّا من الثانية، وعندما أدرك النصف المُتأخر الموقف، شعر الإنسان بالأُلفة تجاه ما يرى.

وفى المقابل، **هناك العديد من المواقف التى سجلها المهتمون بدراسة هذه الظاهرة**، والتى تدفع تمامًا هذه التفسيرات المادية. من هذه المواقف ما رواه لى صديق من أنه رأى فى أحد أحلامه أن الجزء الأيمن من مؤخرة رأس ابنه حليق. بعدها بيومين، كنت وصديقى عائِدَين إلى المستشفى التى نعمل بها، فإذا بالصبى فى غرفة الاستقبال، والأطباء يخيطون له جرحًا أصابه فى رأسه، وقد حلقوا له بالتحديد هذا الجزء من فروة الرأس! **كذلك يقوم البعض، ومنهم كاتب هذه السطور، بتدوين أحلامهم المُفَصَّلة**، حتى إذا مر بهم موقف استشعروا فيه وجود «رؤية مُسبَقة »، رجعوا إلى ما دَوَّنُوه سابقًا، ليجدوا تطابقًا كاملًا بين بعض هذه المواقف التى يَحيونها وبين إحدى الرؤى المُدَوَّنَة.

إن هذه الظاهرة تَرُدُّ الاتجاه المادى تمامًا؛ إذ كيف يُدرك المخ المادى أمرًا لم يحدث بعد، بتفاصيله !

كان طبيعيًّا ألا يقف العلم التجريبى فى موقف المتفرج تجاه قضية «العقل وحقيقة الذات».

ومن العلماء الكبار الذين اهتموا بهذه القضية د. جارى شوارتز Gary Schwartz[1].

ومجال اهتمام د. شوارتز هو **ما وراء النفس (الباراسيكولوجى Parapsychology)**، لذلك فإن هدف مركز أبحاث الطاقة البشرية الذى يُشرِف عليه بقسم الطب النفسى بجامعة أريزونا، هو إثبات **أن المخ البشرى يعمل كمستقبل Antenna-Receiver للذات الإنسانية**، وليس كمصدر للذات Creator، وكذلك اختبار **فرضية Hypothesis أن جوهر الإنسان يبقى بعد موت الجسد.**

وتعتمد دراسات د. شوارتز على أسلوب معروف فى الباراسيكولوجى، **وهو اتصال بعض الأشخاص الوسطاء Mediums بأشخاص ماتوا.** ويؤكد د. شوارتز أن هذه هى الوسيلة الأفضل (حتى الآن) لدراسة هذه القضية، بشرط الالتزام بالمنهج العلمى فى التأكد من مصداقية الوسطاء، وفى تحليل النتائج.

وينطلق د. شوارتز فى نظريته عن الذات الإنسانية من مفاهيم فيزيائية ومنطقية. **فجميع أفعال الإنسان كالكلام والحركة تنطلق فى الفضاء على هيئة موجات كهرومغناطيسية ولا** تفنى، فنحن باقون، تمامًا كالضوء الذى يأتينا من النجوم البعيدة، التى ربما تكون قد انفجرت وتلاشى وجودها المادى منذ ملايين السنين!

ويؤكد د. شوارتز أنه إذا كان العلم هو الوسيلة لمعرفة كيف يفكر الإله[2]، فإنه أيضًا الوسيلة لمعرفة حقيقة «الذات الإنسانية»، التى يطلق عليها المتدينون اسم «الروح». ويعلن أنه لم يصل - حتى الآن - إلى الأدلة العلمية القاطعة على حياة الذات الإنسانية بعد الموت. ولكنه

(١) حصل جارى شوارتز على الدكتوراه من جامعة هارفارد، ويشغل الآن منصب أستاذ الطب النفسى بجامعة أريزونا، بعد أن كان أستاذًا للطب النفسى والأمراض العصبية ومديرًا لمركز الطب النفسى بجامعة ييل بالولايات المتحدة. وله عدة مؤلفات حول حقيقة الذات، منها «الأدلة العلمية على الحياة بعد الموت Breakthrough Scientific Evidence of Life After Death» و«الطاقة الحية فى الكون The Living Energy in Universe».

تعمدت أن أُعَرِّف بدكتور شوارتز بالتفصيل، لنعرف قدر الرجل الذى يواجه معارضة كبيرة من الكثير فى الأوساط العلمية، التى تعتبر أن الخوض فى هذه الأمور من العلم الزائف Pseudoscience.

(٢) استخدم أينشتين هذا الاصطلاح، ويقصد به إدراك القوانين الطبيعية التى تحكم الكون والإنسان.

متأكد من أن العلم (فى زمن قريب) سيتجاوز فكرة فناء الإنسان بموت الجسد، تمامًا كما تجاوز فكرة أن الأرض مستوية.

الذات والمخ التابع لها

وللإجابة على التساؤل حول حقيقة الذات الإنسانية، وضع كارل بوبر[1] Karl Popper فيلسوف العلوم الأشهر، مع سير جون إكلز[2] John Eccles، كتابًا فى أكثر من خمسمائة صفحة، يشى عنوانه بأبعاد القضية. وعنوان الكتاب «الذات والمخ التابع لها[3]» The Self and its Brain، أى أن لكل منا ذاتًا حقيقية تستعمل المخ كأداة و كآلة. وهذا هو نفس المعنى الذى تحدث عنه د. شوارتز من أن المخ يعمل كمستقبل للذات الإنسانية.

ويمكن، انطلاقًا من عنوان هذا الكتاب، أن نُلَخِّص القضية التى نطرحها فى هذا الفصل، والتى طالما حَيَّرت العلماء والفلاسفة، وإن كانت قد حُسمت عند المتدينين، فى تساؤل واحد: **هل حقيقة الإنسان تكمن فى «الذات والمخ التابع لها» أم «المخ والذات المنبثقة منه»؟**

القارئ الكريم...

كان هدفى عند كتابة هذا الفصل أن أزعزع (بالتناول العلمى) **يقين الماديين بأن المخ هو مصدر الذات الإنسانية، وأن أبين للمتدينين أن قضية الروح قضية علمية يمكن أن تخضع للبرهان العقلى بل والبحث العلمى**[4].

لذلك اكتفيت فى طرحى السابق بعرض مختصر (غير مخل) للتناول الفلسفى والعلمى للذات الإنسانية، واستشهدت بالقليل من الكتب والأبحاث كنموذج لآلاف الدراسات

(١) أستاذ الاقتصاد بجامعة لندن. ومن أشهر علماء فلاسفة العلوم فى القرن العشرين.

(٢) عالم بيولوجيا المخ والأعصاب الكبير، والحاصل على جائزة نوبل فى وظائف الأعضاء عام ١٩٦٣.

(٣) طُبِعَ لأول مرة عام ١٩٧٧، وصدرت طبعته الخامسة عام ٢٠٠٣.

(٤) يظن البعض أن القرآن الكريم ينهى عن البحث فى الروح، لقول الحق ﷻ: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[الإسراء: ٨٥]
إن الآية لا تعنى النهى، لكن تشير إلى عِظَم أمر الروح، وإلى أن ما سنحصله عن حقيقتها بعد البحث لن يكون إلا القليل، وهذا القليل هو ما نبحث فيه. وقد أدرك السلف الصالح هذا المعنى، فأخرج لنا الإمام ابن القيم كتابه الأشهر «الروح».

حول الموضوع. وأعتقد أن فيما عرضت الكفاية للإلمام بالخطوط الرئيسية للقضية. لكن يبدو أن القضية أبت إلا أن تطرح نفسها عليك (قارئى الكريم) بقوة وبمزيد من التفصيل.

فبينما الكتاب ماثلًا للطبع، دار حوار ثرى بين **ثلاثة من المهتمين بالعلاقة بين المخ والذات الإنسانية**. وقد رأيت أن أضم ذلك الحوار إلى هذا الفصل، لاعتقادى أنه **سيثرى القضية، ويدفع بها خطوات إلى الأمام، ويضع النقاط فوق الحروف** كما يقولون.

وأول الثلاثة المشاركين فى الحوار، الصحفى والإعلامى الأمريكى الشهير «لى ستروبيل» Lee Stroble، الذى كان يتبنى الفكر الإلحادى لسنوات ثم فارقه إلى الإيمان والقول بالإله. وأعرض تساؤلاته باعتباره **ممثلًا للفكر المادى**، وسأرمز إليه باسم «**زوبعة**» !

والثانى هو د. موريلاند J.P.Moreland أستاذ الفلسفة الأمريكى المهتم بفلسفة العقل وعلم الأديان. والثالث هو «أنا»، مؤلف الكتاب الذى بين يديك. وأُمثل مع د. موريلاند **وجهة النظر الدينية**، وسأرمز إلينا باسم «**راسخ**» !

وقد اخترت للحوار عنوان:

الوعى والعقل والذات الإنسانية

أثار «زوبعة» الحوار، بأن سأل «راسخًا»:

يتميز الإنسان على سائر الكائنات بالعقل Mind، الذى يُعتَبر «**الوعى**» Consciousness أهم مظاهره، فكيف يمكننا **تعريف الوعى**؟

أجاب راسخ: إن الوعى هو القدرة على التأمل فيما حولنا وفيما بداخلنا. إنه يقف وراء الأحاسيس والأفكار والمشاعر والرغبات والمعتقدات وحرية الاختيار؛ إنه ما يجعلنا نشعر بأننا أحياء.

إن الوعى ببساطة هو **الفرق بين الإنسان المستيقظ والإنسان النائم**. عندما تستيقظ من النوم، ألا تشعر أنك كنت غائبًا أو معدومًا، ثم بدأت تدرك ما حولك: تتعرف على من يوقظك، أين أنت، فيم كنت تفكر قبل النوم، الالتزامات التى عليك القيام بها هذا الصباح. لقد عدت إلى مسرح الحياة، لقد أصبحت واعيًا.

ويمكن تشبيه الوعى **بالتيار الكهربائى الذى لا يعمل الكمبيوتر إلا به**؛ إذ تتلاشى قدرات الكمبيوتر إذا تم فصل التيار الكهربائى عنه.

قال زوبعة: يعتبر كثير من البيولوجيين أن العقل Mind المسئول عن الوعى **نتاج مباشر للمخ المادى Brain، تمامًا كما تنتج الكليتان البول.** لذلك يعتقد أنصار التطور الداروينى، أن ما أن وصل المخ إلى حجمه الحالى وتعقيده المذهل حتى بزغ العقل تلقائيًّا كخطوة تطورية.

لِأَكُنْ أمينًا معك. **لا يمكننى أن أتصور أن التطور العشوائى قادر على تشكيل العقل الإنسانى** بكل ملكاته، فما رأيك أنت؟

أجاب راسخ: لست وحدك الذى تجد صعوبة فى ذلك، انظر إلى ما يقول أستاذ الفلسفة البريطانى بجامعة أكسفورد، كولن ماك جن Colin Mc Ginn:

لا أستطيع أن أتصور أن المادة يمكن بأية آلية بيولوجية أن تكتسب العقل. **إن العقل كالحياة، ضيف جديد تمامًا على الكون، إنه قفزة هائلة من نوع مختلف.** ولا ينبغى أن يتهرب البيولوجيون التطوريون من المشكلة بأن يغضوا النظر عنها !!

وأضاف راسخ: إن القائلين ببزوغ العقل من المخ المادى يواجهون أربع مشكلات:

أولًا: إن قولهم هذا، يعنى **أن المادة تتميز بعقل كامن فيها**، وعند وصول المادة إلى درجة معينة من تعقيد البنية، تتفجر وتظهر هذه القدرات الكامنة!

لقد أَضْفَوا على المادة صفات تخالف تمامًا المفاهيم المادية، **إنها صفات أقرب لمنظور المتدينين من منظور الماديين.**

ثانيًا: إذا انبثق العقل من المادة، دون استمداد من ذكاء مطلق أعلى، **فكيف نثق فى أحكامه؟**

من باب التشبيه، إذا قام شخص متخلف عقليًّا ببرمجة الكمبيوتر، هل تثق فيما نحصل عليه من مُخرَجات الكمبيوتر! فما أدراك لو لم يكن لهذا المبرمج عقلًا بالمرة ؟!

ثالثًا: تؤمن عقولنا **بالعديد من المفاهيم البديهية**[1] التى لا نطلب دليلًا عليها، وأولها اعتقادنا فى سلامة عقولنا وأحكامنا، فمن أين أتت هذه المفاهيم التى نبنى عليها كل أمور حياتنا

(١) من المفاهيم البديهية أن الجزء أصغر من الكل، وأن وراء كل نتيجة سببًا.

وكل أفكارنا ومفاهيمنا؟ وكيف تكون إفرازًا مباشرًا للنشاط الكهروكيميائى لخلايا المخ؟ وكيف يجعلنا المخ نثق فى هذه المفاهيم البديهية بهذا اليقين.

رابعًا: إن بزوغ العقل من المادة يتطلب خضوعه لقوانينها الكيميائية والفيزيائية، وما تتسم به من حتمية. إن افتراض الحتمية يتنافى مع ما يتمتع به الإنسان من حرية الاختيار، فأنت تستطيع أن تستكمل قراءة هذا الفصل، أو أن تغلق الكتاب.

قاطع زوبعة مُلِحًّا: أسألك أن تتماشى معى. لو افترضنا أن العقل انبثاق مباشر من المخ كما يعتقد الماديون، فماذا يترتب على ذلك؟

أجاب راسخ: لن يمكننى أن أتماشى معك كثيرًا، فلو صدق هذا المنظور لَـمـا وُجد العقل الإنسانى أصلًا !!

فإذا كان العقل نتاجًا مباشرًا للمادة (المخ)، لَتَبَنَّى جميع البشر رأيًا واحدًا فى كل قضية؛ إذ إن النظرة المادية واحدة كما نجد فى العلوم الطبيعية. معنى ذلك أن تختفى النظرة النسبية للأمور، والتى هى أهم سمات العقل الإنسانى.

قال زوبعة: لقد طرحت العوائق المنطقية أمام فكرة انبثاق العقل من المخ المادى، واستنتجت من وجود هذه العوائق أن العقل ليس من نتاج المخ. إن مثل هذا الدليل يُعتبر عند علماء المنطق دليلًا سلبيًّا، فهل لديك دليل إيجابى على ذلك؟

أجاب راسخ: سأقدم لك أدلة تجريبية. ولا شك أن الدليل التجريبى هو أقوى الأدلة العلمية.

لقد أجرى د. ويلدر بنفيلد Wilder Penfield (مؤسس علم جراحة الأعصاب الحديث) أكثر من ألف عملية جراحية لمرضى الصرع الذين لا يستجيبون للعلاج، وقد حاول أثناء إجرائه للجراحات أن يتوصل إلى موضع العقل داخل المخ البشرى، وذلك عن طريق التنشيط الكهربائى لمراكز القشرة المخية المختلفة، فى الوقت الذى يكون فيه المريض تحت التخدير الموضعى.

وعند تنشيط منطقة معينة، كانت يد المريض تتحرك، فيحاول المريض أن يمنعها عن الحركة بيده الأخرى. وعندما ناقش بنفيلد مرضاه، أجابوا بأنه هو الذى يحركها، وأنهم لا يستطيعون منعها.

معنى ذلك، أنه بينما كانت إحدى يدى المريض تحت التحكم المباشر للنشاط الكهربائى للقشرة المخية، كانت إرادة المريض تحاول أن تمنعها باستخدام اليد الأخرى. إن ذلك يؤكد أن **للإنسان إرادة منفصلة عن النشاط الكهروكيميائى للمخ.**

وبالرغم من أن د. بنفيلد كان يهدف من أبحاثه إلى إثبات أن مخ الإنسان هو كل شيء، وليس وراءه شيء آخر، فإنه **أقر فى النهاية بأن كلًا من المخ والعقل يمثل وجودًا مستقلًا، وذو طبيعة مختلفة!**

كذلك أكد د. روجر سبيرى Roger Sperry (حصل على جائزة نوبل لأبحاثه حول اختلاف وظائف كل من نصفى المخ) بعد تجاربه وأبحاثه المستفيضة على المخ البشرى، أن **الوظائف العقلية لا تعتمد على نشاطات المخ المادى، وإن كانت تستعمله كآلة.**

قال زوبعة: لا شك أن قضية مصدر العقل الإنسانى من أهم القضايا فى حياتنا، وإن لم تثر اهتمام العامة. فهل هناك المزيد من الأدلة على أن العقل شيء والمخ شيء آخر؟

قال راسخ كأنه يقاطع زوبعة:

أستمحيك عذرًا... لدى موعد لزيارة الطبيب لإجراء بعض الفحوصات المعملية والإشعاعية ليطمئننى على وظائف قلبى ورئَتى ومخى. ولا مانع من أن أجرى بعض الفحوصات وكذلك رسم المخ الكهربائى للاطمئنان على صحة أو خطأ أفكارى ومشاعرى! ها.. ها.. ها.

لا شك أن أية فحوصات تُجرى على المخ لن تستطيع أن تَطَّلع على أفكارنا، وتُقَوِّم صحتها أو خطأها. إن ما يدور فى عقولنا أمر شديد الخصوصية.

قاطع زوبعة راسخًا قائلًا: لقد أثبت العلم إمكانية الاطلاع على نشاطاتنا العقلية، فالأطباء **يستطيعون الآن عن طريق تسجيل نشاط المخ الكهربائى وملاحظة حركات العينين أثناء نومنا، أن يحددوا متى نحلم.**

قال راسخ: هل تستطيع حركات العين ونشاط المخ الكهربائى أن **يُخبرانا بمحتوى أحلامنا؟** لا بد أن نوقظ الشخص ليخبرنا عن مضمون حلمه.

إن النشاط الكهربائى الذى نسجله أثناء أحلامنا يعنى أن هناك تلازمًا بين نشاطنا العقلى وبين نشاط المخ الكهربائى، لكن ذلك لا يحدد أيهما السبب وأيهما النتيجة.

وقف زوبعة متحفزًا وقال لراسخ:

لدَّى دليل علمى قوى، لا أحسبك قادرًا على دفعه، يؤكد أن المخ هو مصدر العقل، بل ومصدر الشعور بالذات.

لقد استطاع الإنسان، منذ قديم الزمان، التحكم فى درجة وعيه وحِدة عقله وشعوره بذاته، عن طريق العقاقير المخدرة والمهلوِسة والخمور:

تارة يقل وعى الإنسان وشعوره بذاته؛ أنا فين !

وتارة تتشوش فكرته عن نفسه؛ أنا جدع !

وتارة ينفصل عن الوجود، وينتقل إلى عوالم أخرى!

وتارة يُحجَب عن عقله!

كذلك استطاع أطباء الأمراض النفسية، عن طريق العقاقير التى تُعَدِّل فى كيمياء المخ، أن يغيروا من مشاعر الإنسان، بل ويغيروا من نظرته لذاته وللوجود. لقد استطاعوا عن طريق العقاقير أن يصلحوا الكثير مما يصيب الوعى والعقل والنفس.

ألا يثبت ذلك كله، أن كيمياء المخ وراء كل شىء، ومن ثَمَّ فإن الوعى والعقل والشعور بالذات تنبثق جميعها من المخ؟

أجاب راسخ مبتسمًا:

من التشبيهات التى تُستخدم كثيرًا وتُعَبِّر جيدًا عن العلاقة بين عقل الإنسان ومخه هو تشبيهها بالعلاقة بين الموجات الكهرومغناطيسية التى تحمل البث التليفزيونى (العقل) وأجهزة التليفزيون المستقبِلة (المخ). ولا شك أننا نستطيع عن طريق التحكم فى أجهزة التليفزيون أن نغير الكثير من مواصفات البث الذى نستقبله.

فنحن نستطيع أن نجعل الصورة ملونة أو غير ملونة، زاهية أو معتمة، نجعلها صافية أو مشوشة، نرفع من شدة الصوت أو نخفضها، بل ونستطيع أن نقوى من قدرة الجهاز على

الاستقبال، كل ذلك والبث التليفزيونى لا يتغير. هذا ما تفعله تمامًا العقاقير المخدرة والمهلوِسة والخمور والعقاقير الطبية فى جهاز التليفزيون، أقصد فى المخ.

قال زوبعة: لقد أَثْبَتَّ لى تجريبيًّا ومنطقيًّا أن عقل الإنسان ظاهرة غير مادية، وليس نتاجًا للمخ البشرى المادى. **فهل العقل هو حقيقة الإنسان وذاته وجوهره؟**

أجاب راسخ: لا، فإذا كان الوعى من وظائف العقل، فإن العقل من مظاهر الذات الإنسانية.

تساءل زوبعة: وما هى الذات الإنسانية؟ ولم لا تقبل فكرة أن العقل هو آخر المطاف، وأنه هو ذات الإنسان؟

قال راسخ:

دعنى أروى لك حكاية حقيقية مؤلمة، لكنها تبين بوضوح ما أقصد:

تعرضت إحدى طالباتى فى الجامعة لحادث شديد أثناء شهر العسل، **فقدت على إثْره «الوعى» لعدة أيام.** وعندما استعادت وعيها، كانت تعانى **من فقدان جزئى «للذاكرة»** أنساها أنها متزوجة. كما كانت تعانى **من تغير فى «شخصيتها وسلوكها».**

وكخطوة علاجية عرضوا عليها تسجيلًا لحفل زفافها، فأدركت تدريجيًّا أنها متزوجة من ذلك الرجل، كما استعادت تدريجيًّا شخصيتها وطبيعتها.

لقد كانت سوزى طوال فترة غيابها عن وعيها **هى هى سوزى** بالنسبة لنا. كما **كانت تدرك طوال فترة فقدانها الجزئى للذاكرة وتغير شخصيتها أنها سوزى!**

ألا يثبت ذلك أن لنا وجودًا حقيقيًّا، مختلفًا عن وعينا وذاكرتنا وشخصيتنا.

إننا نظل «نحن»، حتى وإن غبنا عن وعينا ووهنت ذاكرتنا وتشوهت شخصيتنا وطبيعتنا.

إذا شَرَّحنا مخ الإنسان جزءًا جزءًا، وإذا استطعنا أن ننظر داخل كل خلية من خلاياه، فلن نضع أيدينا على موضع الذات الإنسانية.

نحن لا نعرف شخصية الإنسان عن طريق الفحوصات المعملية والإشعاعية، ولكن عن طريق معرفة كيف يشعر هذا الإنسان؟ فيم يفكر؟ ما هى طموحاته؟ ما هى نظرته للوجود؟ وهكذا.

الخلاصة أن حقيقة الإنسان تتجاوز جسمه ومخه وعقله ووعيه، إنه الجوهر الذى يشعر أنه وجود واحد متكامل، يقول عن نفسه «أنا».

لذلك أعلن سير جون إكلز John C. Eccles عند تسلمه لجائزة نوبل فى الطب (عن أبحاثه فى بيولوجيا المخ): **أجدنى مضطرًّا إلى القول بطبيعة غير مادية لذاتى وعقلى، طبيعة تتفق مع ما يسميه المتدينون «الروح».**

كذلك أعلن سير شيرنجتون[1] Charles Sherington قبل وفاته بخمسة أيام، أن **«الروح هو جوهر الإنسان الذى لا يفنى بالموت».**

اندفع زوبعة قائلًا: لقد قفز شيرنجتون قفزة كبيرة بحديثه عن خلود جوهر الإنسان، فما دليله العلمى على ذلك؟

أجابه راسخ:

لعلك سمعت عن خبرات الذين اقتربوا من الموت Near Death Experiences.

لقد أظهر العديد من الدراسات الموثَّقة حول هذا الموضوع **أن إدراك الإنسان يمتد إلى ما بعد توقف المخ عن العمل.**

اشتملت إحدى أهم هذه الدراسات[2] على ٦٣ مريضًا، أُصيبوا بنوبات قلبية شديدة، أُعلن إثرها وفاتهم إكلينيكيًّا، لكنهم تماثلوا للشفاء، وحكى بعضهم أمورًا عجيبة. ذكر بعضهم أنهم شعروا أنهم مفارقون لأجسادهم، ويطوفون فوقها، ويشاهدون الأطباء والممرضات وهم يتعاملون مع جسدهم المُسَجَّى، ثم إذا بهم يهبطون ليدخلوا مرة أخرى فى أجسادهم! وذكر بعضهم أنه شاهد نفقًا طويلًا مظلمًا، ورأى آخره دائرة من النور. وذكر أحدهم أنه رأى حذاءً للتنس ملقى فوق سطح المستشفى، وقد ثبت صحة ذلك.

لقد ذكروا أمورًا شاهدوها وانطبعت فى ذاكرتهم، وتجاوز بعضها قدرات حواسهم على الإدراك، فى فترة انقطع فيها الأكسجين عن المخ!

(١) أستاذ وظائف الأعضاء بجامعة أكسفورد، والذى وصفته اللجنة المانحة لجائزة نوبل بأنه العبقرى الذى توصل إلى أسس عمل المخ والحبل الشوكى.

(٢) **نُشرت هذه الدراسة فى المجلة العلمية المحترمة Resuscitation. وقُدمت نتائج الدراسة عام ٢٠٠١ أمام اجتماع علماء المخ والأعصاب والرعاية المركزة فى The California Institute of Technology.**

ألا يعنى ذلك أن هناك ذاتًا مستقلة عن المخ، لها قدرات إدراكية عالية، وهى مصدر الشعور بالذات ومصدر العقل، وأن هذه الذات تظل على وعيها عندما يكاد عمل المخ أن يتوقف.

وإذا كان هذا الاستنتاج غير مقبول عند الماديين، فإن المنصفين منهم يُقِرُّون بعجزهم عن تفسير كيف تنبثق القدرات العقلية عن المخ المادى.

وقد أثار هذا المفهوم اهتمام العديد من علماء النفس، فقام بعضهم بالتواصل مع بعض هذه الذوات غير المادية الباقية بعد موت أصحابها، ولم يكن هناك من سبيل لذلك إلا عن طريق الوسطاء الروحانيين!

وقد حرص الجادون من العلماء على تطبيق الشروط الصارمة للبحث العلمى فى مثل هذه التجارب، لكن الأوساط العلمية ما زالت تنظر بريبة لنتائج هذه الأبحاث، لِـمـا لهذا التواصل الروحانى من سمعة سيئة، إذ يَدَّعى تحقيقه الحواة والدجَّالون كما تعلم.

وأخيرًا، أقدم لك دليلًا دينيًا على أن العقل ليس موجودًا قائمًا بذاته، ولكنه نشاط للذات الإنسانية. فالقرآن الكريم يحدثنا عن الجسد وعن القلب وعن النفس وعن الروح، لكن لا يحدثنا عن العقل! بالرغم من أن عملية التعقل وردت ٤٩ مرة بألفاظ مختلفة فى القرآن الكريم. ألا يعنى ذلك أن التعقل عملية يقوم بها الإنسان وليس لها مُكَوِّن قائم بذاته؟

هدأ زويعة وأوشك على الاستسلام، وسأل: هل يمكن أن نعتبر أن الذات الإنسانية هى الروح فى منظور المتدينين؟

وافقه راسخ قائلًا: تشير الأديان السماوية إلى أن الروح هو الجوهر غير المادى للإنسان. فالإنسان روح وجسد، لذلك يمكن وصفنا بأننا أرواح متجسدة أو أجساد متروحنة.

إن ثنائية الروح والجسد Dualism موجودة فى جميع الحضارات، عبر التاريخ وعبر الجغرافيا، وكما تعلم فإن هذه الثنائية كانت محور حياة المصريين القدماء.

وللفظ الروح فى منظور الإسلام مسميان[1]، الأول يُطلق عليه اسم الروح الحيوانى، ويُقصد به الحياة، وهو سمة مميِّزة لجميع الكائنات الحية. وهو المحرك لجميع العمليات الحيوية كالتنفس وعمل القلب والكليتين والهضم، فى اليقظة وأثناء النوم. وهو موجود فى الإنسان منذ أن كان بويضة وحيوانًا منويًا، وإذا فارق الروح الحيوانى الجسد يموت الإنسان.

(١) هذا المفهوم يطرحه الإمام أبو حامد الغزالى فى الجزء الأول من كتاب «إحياء علوم الدين»، باب «العلم».

والمسمى الآخر للروح هو الروح المدرِك، وهو الخاصية المميِّزة للإنسان، وهو المقصود بقول الله ﷻ: ﴿ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي ﴾ [الإسراء: ٨٥]. وهو المسئول عن نشاطاته العقلية، كما أنه المُخاطَب والمُكَلَّف والمُحَاسَب من قِبَل الله ﷻ. ويفارق الروح المدرك الجسد عند النوم، فيغيب الإنسان عن وعيه وإدراكه. والروح المدرك خالد لا يفنى، لكنه يفارق الجسم عند الموت، ويُرَد إليه مرة أخرى عند البعث(١).

ويعتقد الكثيرون أن الروح المدرك هو وحده ذات الإنسان. وأن الجسد ليس إلا دابة للروح. والصواب أن الإنسان كائن متوحد تمتزج فيه الروح والجسد، فتصبح هذه الثنائية هى ذات الإنسان وجوهره(٢).

هدأ زوبعة واطمأنت نفسه، فقد وضع يده على البراهين العقلية والعلمية التى كان يسعى وراءها منذ زمن طويل فى قضية الذات الإنسانية. عند ذلك أضاف راسخ قائلًا:

لى كلمة أخيرة فى هذا الموضوع، أستهِلها بقول تشارلس دارون:

«إذا عجز التطور عن تفسير أية ظاهرة، فينبغى اللجوء إلى التفسير الآخر، وهو مفهوم الخلق الخاص الذى يقف وراءه الإله».

إذا قسنا قضيتنا على هذه القاعدة نقول: لقد وصلنا إلى مفترق طرق، وأصبح علينا **إما أن نُقر بأن الذات الإنسانية، وما تمارسه من تفكير وشعور وسلوك وتَدَّين، يستحيل اختزالها إلى الكيمياء والفيزياء، ومن ثَمَّ نطرق أبواب المعارف الدينية التى تحل لنا هذا اللغز، وتجعل نظرتنا أوسع وأشمل وأعمق، وإما أن ينقلب العِلم إلى وسيلة لإثبات أفكار مادية مُسبقة، بدلًا من أن يصبح هدفه هو البحث عن الحقيقة.**

إن العلم لا ينبغى أن يتبنى ما قاله أحدهم بحكمة خَفيَّة:

I made up my mind, don't bother me with facts

لقد حَسَمْتُ قناعاتى ولملمتُ أوراقى، فلا تزعجنى بحقائق جديدة.

---

(١) ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَاۖ فَيُمۡسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيۡهَا ٱلۡمَوۡتَ وَيُرۡسِلُ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ٤٢ ﴾ [الزمر: ٤٢].

(٢) انظر هذا المفهوم فى الفصل الثامن تحت عنوان «التشدد يتهم العلم».

الفصل الثامن

العلم بين
استغلال الملحدين، واتهام المتشددين

إلحاد فى أسوأ حالاته

أثناء مراجعة أحد أصدقائى المثقفين لبعض فصول الكتاب، قال لى:

إن المصريين (مسلمين ومسيحيين) **شعب متدين بطبعه** منذ عهد الفراعنة. ولا شك أن هذا التاريخ الطويل من التدين، قد ترك بصمته على فطرتهم.

وبالرغم من ذلك، أستشعر من أسلوبك وطريقة عرضك للكتاب **كأنك تخاطب قومًا من الملاحدة**. واستطرد متسائلًا، هل هناك حاجة لما تبذل من وقت وجهد فى تأليف ونشر هذا الكتاب؟ إنى أعتقد أن عرض قضية الدين بهذا الأسلوب لا يعنينا كثيرًا.

أجبت صديقى قائلًا: **لا شك أن المصريين يولدون بميل قوى للتدين**، ثم تتولى الأسرة والمجتمع رعاية هذه البذرة (الفطرة) وتنميتها وصقلها. أى أن العوامل البيولوجية وعوامل التنشئة مسئولة ـ إلى حدٍّ بعيد ـ عن تشكيل الفكر الدينى لكل منا.

لكن لا ينبغى أن يتوقف الإنسان (القادر عقليًا) عند ذلك الحد، بل عليه أن يرقى بتدينه من إيمان الميلاد والتنشئة، إلى «اليقين» العقلى والعلمى، وقد حَفَل القرآن الكريم بالآيات

التى تنبه إلى ذلك، فجاءت الدعوة إلى **التَعَقُّل** أكثر من خمسين مرة، مثل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[الرعد:٤]. وجاءت الدعوة إلى **التَفَكُّر** أكثر من عشرين مرة، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الرعد:٣] كما جاء **مدح الحكمة** أكثر من عشرين مرة، مثل قوله تعالى: ﴿ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [البقرة: ٢٦٩]. وعلى الإنسان الامتثال لهذه الدعوة حتى يصل إلى مرتبة ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر: ٢٨]. **وأحسب أن كتاب «رحلة عقل» خطوة فى هذا الطريق.**

ثم أضفت: إن أفضل طريق لأن يدرك الإنسان قيمة الحق الذى عنده، هو أن يقارنه بما عند الآخرين. وهذا هو المقصود بقول الإمام على بن أبى طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **من لم يعرف الكفر لم يعرف الإيمان. وأحسب كذلك أن كتاب «رحلة عقل» خطوة فى هذا الطريق.**

وبالرغم من إدراكى لذلك كله فإن كلمات صديقى جعلتنى أُمسك عن الكتابة، لأراجع مدى احتياج القارئ المصرى والعربى لهذا الكتاب، وترددت مرارًا بين التوقف والاستمرار.

وبعد بضعة أيام، مررت بهذه **التجربة التى أعادت إلىّ حماسى لاستكمال الكتاب، وأعادتنى إلى الكتابة:**

القارئ الكريم...

دُعيتُ إلى المشاركة فى ندوة عُقدت بالإسكندرية بمناسبة مرور مائتى عام على مولد تشارلس دارون (صاحب نظرية التطور)، وشارك فى الندوة أستاذان من أساتذة كليات الطب المصرية، الذين أنفقا سنوات عديدة من أعمارهما، وقد تجاوز كل منهما السبعين عامًا، فى دراسات حول دارون ونظرية التطور.

قام الأستاذان، بهدوء، بعرض **تصورهما لمفهوم التطور العشوائى، وعَرَضا جهودهما الحثيثة فى طرح أفكار دارون.**

كذلك صَرَّحا بأنه **ينبغى ألا نمزج بين العلم والدين، فلكل مجاله،** لذلك ينبغى ألا ينكر رجال أحد المجالين على ما عند الآخرين، ولا أن يتحفظ على أفكارهم. ومن ثَمَّ ينبغى ألا نعترض (باسم الدين) على العشوائية التى هى محور أفكار الدَرَاونة.

أما مساهمتى فى الندوة، فكانت **عرض مفهوم التصميم الذكى والتطور المُوَجَّه،** الذى يرى أن التطور حقيقة بيولوجية، لكن العشوائية والصدفة لا تستطيع أن توجه قاطرة التطور نحو

إخراج هذا الكم الهائل من الكائنات الحية التى تسكن الأرض، لذلك ليس هناك مخرج من القول بوجود المصمم الذكى وراء توجيه التطور.

بعد الندوة، دَعَا منظم الندوة ومديرها (وهو أستاذ بإحدى كليات الطب، ومن كبار مثقفى مصر) ثلاثتنا لتناول العشاء فى جلسة خاصة امتدت أكثر من ثلاث ساعات، اتجه فيها الحوار حول «**الخالق والخلق والدين والتطور**»اتجاهًا آخر، فسقط حجاب المسالمة، وبدا العداء سافرًا. **وأبدأ بعرض ما طرحه أستاذا الطب من أفكار:**

١- **ما «حاجتنا العملية» إلى القول بمصمم ذكى أو القول بوجود إله؟** خاصة أن حياتنا تسير، سواء آمَنَّا أو أَلحدنا، كذلك لن يغير القول بالإله شيئًا من نظرياتنا العلمية التطبيقية. وسألنى أحدهما إن كان الإيمان بالله سيغير شيئًا من برنامجى اليومى !

٢- إن القول بالمصمم الذكى إنما هو **محاولات توفيقية وتلفيقية بين الدين والعلم**، ومحاولة للإمساك بالعصا من المنتصف، فى مجتمعات تخشى حرية الفكر.

٣- إذا كان العلم لم يقدم تفسيرًا لكثير من الأمور حتى الآن (كنشأة الكون من العدم، ونشأة الحياة من المادة غير الحية) **فإن العلم سيكتشف تفسيرات لهذه الأمور فى المستقبل.**

٤- **لا ينبغى أن نقفز إلى القول بوجود الإله بناءً على نقص فى المعرفة العلمية**، فالعقيدة لا ينبغى أن تنبنى على الجهل.

٥- إن القول بوجود الإله يخالف العلم، **فنحن لا نستطيع أن ندركه بحواسنا أو نرصده فى معاملنا.**

٦- كيف يسمح الإله بما تسببه الحروب من **تقتيل وإبادة للبشر**؟ وكيف يُنزل الإله بالبشر الكوارث الطبيعية المُهْلِكة؟ (إنها نفس معضلة الشر والألم التى دفعت أنتونى فلو إلى الإلحاد).

٧- **كيف تكون ذات الإله، الموجود خارج الزمان وخارج المكان؟**

٨- **إذا كان كل موجود له موجد، فمن أوجد الإله؟**

وكانا سعيدين جدًّا بتسائلهما هذا، وأخذا يتنافسان فى السخرية!

٩- يطرح بعض الفلاسفة المحدثين مفهومًا يُعرف «**بالفوضى الخَلَّاقة Creative Chaos**» التى

تعنى أن الفوضى التى أعقبت الانفجار الكونى يمكن أن ينشأ عنها «تلقائيًا» الانتظام الموجود فى الكون الآن Order. بل ربما كانت هذه الفوضى انتظامًا من البداية، ولكننا لا ندرك قوانينه.

١٠- **إن التزام الإنسان بالقيم العليا والمثل والأخلاق لا يحتاج لأديان سماوية**، إنه جزء خَلْقى من بنية الإنسان.

١١- **لا ينبغى أن نُلَقِّن أبناءنا أمورًا وردت فى الكتب السماوية ولا يوجد عليها دليل**، مثل القول بوجود بعض الأنبياء كإبراهيم ﷺ، فليس هناك دليل على وجود هذه الشخصيات فى التاريخ.

قارئى الكريم، لعلك لاحظت أن ما طرحه الأستاذان ليس فيه جديد، **وأنها نفس حجج الملاحدة البالية منذ مئات السنين. وقد تصديت ومُضَيِّفُنا للرد على ما طرح الأستاذان من أفكار، وتَلَخَّصَت ردودنا فيما يلى:**

أولًا: إن ما دفعنا للقول بالمصمم الذكى ليس محاولات التلفيق أو إمساك العصا من المنتصف، **ولكنه التفكير العلمى المجرد والاستنتاج المباشر**. فقد أثبت العلم أن للكون بداية، وأثبت فى الوقت نفسه عجز قوانين الطبيعة عن تفسير نشأة الوجود من العدم. وهذا ما عبر عنه العلم بقانون بقاء المادة (المادة لا تفنى ولا تُستحدث) وكذلك قانون السببية (أن لكل موجودٍ حادثٍ سببًا). فلم يبقَ أمامنا إلا القول بقوة قادرة على الإيجاد من عدم، ولن تكون هذه القوة إلا الإله.

ثانيًا: ما طرحناه من تساؤلات عن نشأة الكون والحياة ولم يُجِب عنها العلم حتى الآن، إنما **هى تساؤلات معرفية Ontological**، سبق أن أَخْبَرَنا **العلم بعجزه عن تقديم أجوبة عنها الآن وفى المستقبل**، بل أخبرنا العلماء أن هذه التساؤلات تقع خارج نطاق العلم كليةً، وأنها ينبغى أن تُترَك للدين والفلسفة.

فقد أخبرنا علماء الكونيات أن علمهم يبدأ عند الانفجار الكونى الكبير، كما أخبرنا علماء الحياة أن بداية بحثهم هى وجود جزيئات الرنا والدنا والبروتينات، وربما يبحثون فى كيفية تكوين هذه المواد من وجهة النظر البنائية والوظيفية، أما كيف دبت فيها الحياة فذلك خارج نطاق العلم.

ثالثًا: إن أقصى ما طرحه العلم ويقبله العقل، هو أن **الفوضى الخَلَّاقة يمكن أن تُنتج انتظامًا Order**، مثل تراص ذرات وجزيئات بعض المواد على هيئة بللورات، أو الخطوط المنتظمة التى ترسمها الأمواج على رمال شاطئ البحر. أى أنها يمكن أن توجه بعض العمليات الكيميائية والفيزيائية.

أما **تكوين منظومات بيولوجية Systems** كالشفرة الوراثية فى الكائنات الحية، أو حتى رسم حصان على حائط، ففوق طاقة الفوضى الخلاقة، لما يتطلبه ذلك من مواصفات معقدة Specifications.

رابعًا: عندما أجاب الأستاذان عن السؤال عن كيف تَحَوَّلَت فوضى الانفجار الكونى إلى انتظام، بأن الانتظام ربما كان موجودًا منذ البداية لكننا لا ندركه. فإنهما التزما الصمت عندما سألتهما **عن مصدر هذا الانتظام**.

كذلك عندما فَسَّرَا التزام الإنسان بالقيم العليا والمُثل والأخلاق بأنه لا يحتاج لأديان سماوية إذ إنه أمر خِلقى، فإنهما التزما الصمت عندما سألتهما **عن مصدر هذه الفطرة**.

خامسًا: ليس الغرض من القول بالإله تدبير حياتنا العلمية أو تعديل نظرياتنا التطبيقية (كما قال الأستاذان)، وإنما هو إقرار بحقيقة أصبح العلم يطرحها الآن بقوة.

ثم أَضَفْت، **ما العمل إذا كانت الألوهية والربوبية والرسالات السماوية حقائق واقعة، وبناءً على ذلك طُلب من المنكرين الامتثال للحساب والجزاء فى حياة آخرة؟**

سادسًا: قلت للأستاذين: ذكرتما فى الندوة أنه ينبغى ألا نمزج بين العلم والدين، وأنه ينبغى ألاَّ يُنكر أحدهما على الآخر. والآن **تطلبان ألا نُعَلِّم أولادنا أمورًا دينية لم يثبتها العلم والتاريخ**.

إن قصة خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام بالتحديد من الأمور التى وثَّقَها علمُ التاريخ. فالكعبة التى تخبرنا الأديان السماوية أن نبى الله قد قام ببنائها ما زالت بين ظهرانينا. كما أن محققى الأنساب يعرفون بالتواتر والسند الممتد الأجيالَ، بل وأسماء السلف من ذرية إبراهيم عليه السلام فردًا فردًا، إلى زماننا هذا.

وأضفت، إذا كنتما تطالبوننا بالصبر، عسى أن يتوصل العلم إلى أجوبة عن تساؤلات معرفية خارج نطاقه، فلم لا تصبروا حتى يتوصل المؤرخون إلى وجود الشخصيات التى تُـحدثنا عنها الكتب السماوية، ولم يسجلوها حتى الآن؟!

سابعًا: أما عن بعض النقاط الأخرى التى طرحها الأستاذان، **فيمكن الرجوع إلى ما أجبت به** من خلال **فصول كتاب أنتونى فلو وفصل البرهان الكونى فى الميزان**، مثل:

- معضلة الشر والألم.
- من أوجد الإله؟
- عَجْزنا عن إدراك ذات الإله لا ينفى وجوده (الفرق بين التصور والتَعَقُّل).

والنقاط الثلاث الأخيرة أعرض فيها **مفاهيم أساسية** طرحتها على الأستاذين، واخترت أن أختم بها عرضى لأهميتها ولاحتياجها لعرض مُفَصَّل.

ثامنًا: وافقت الأستاذين على أنه «**ينبغى ألا نتخذ من الجهل بشىء دليلًا لإثبات وجود شىء آخر**»، فالتعلل بالقدرة الإلهية كلما عجز العقل عن تفسير أمر ما، قد يؤدى إلى إيقاف العقل وتعطيله، ومن ثم تتوقف مسيرة العلم. فالموت – مثلًا – لا يمكن تفسيره علميًّا بأنه إرادة الله، فبذلك يتوقف بحث العلماء فى الأمراض ومسبباتها وطرق علاجها، ولتوقف الطب عند مرحلة ما قبل أبقراط.

ولكن ينبغى هنا أن «**نفرق بين إنكار الشىء عن علم، وبين إنكاره جهلًا به**». وضربتُ على ذلك مثالين:

إذا اجتمع بعض علماء التشريح وعلماء وظائف الأعضاء، وبعد نقاش أعلنوا أن الإنسان لا يمكنه الطيران دون عون من آلية خارجية. لذلك لو رأينا إنسانًا يطير فلا بد أنه يستخدم آلية تعينه على ذلك، كطائرة أو منطاد مثلًا، أو ربما استخدم جهازًا يلغى تأثير الجاذبية الأرضية على جسمه. هل نقول لهؤلاء العلماء ربما يكون الإنسان قادرًا على الطيران وأنتم لا تعلمون، وأنه لا ينبغى أن تتخذوا من جهلكم بهذه القدرة حجة لإثبات استعانة الإنسان بآلية خارجية! إن هذا ليس إنكارًا عن جهل ولكنه إنكار عن علم.

كذلك إذا قرأنا فى الصحف أن صبيًّا ممن يعانون أشد درجات التخلف العقلى ولا يتجاوز معادل ذكائه (I.Q) ٢٥ درجة، قد توصل إلى «**نظرية التوحيد الكبرى** Grand Unification Theory»

(وهى نظرية تربط بين قوى الطبيعة الأربع[1]) التى مات أينشتين وهو عاجز عن التوصل إليها، هل نقول ربما يكون هذا الصبى (الذى لا يستطيع العناية بأمور حياته اليومية) قد تمكن من التوصل لهذه النظرية بطريقة أو بأخرى ونحن لا ندرى؟ أم نقول بيقين أن هذا الخبر لا أساس له من الصحة؟ أكرر مرة أخرى، أن إنكار الشىء عن جهل يختلف عن إنكاره عن علم.

نحن نعلم بيقين أن الطبيعة ليس لها عقل جبار يستطيع أن يبتكر ما تعجز أذكى العقول البشرية عن مجرد فهمه، كالخلق من عدم ونشأة الحياة والعقل، **فهل عدم قبولنا لأن تكون الطبيعة هى الخالقة والمُدَبِّرة يُعتبر من باب جهلنا بقدرات الطبيعة، أم يكون إنكارنا منطلِقًا من علم بقدراتها، يدفعنا إلى الاعتراف بأمر لا فكاك منه، ألا وهو إثبات وجود الخالق المدبر.**

وقد لخص عالم الطبيعة الأمريكى الكبير جورج إيرل ديفيس ذلك الأمر حين قال: «لو كان للكون أن يخلق نفسه، فإن ذلك يعنى أنه يتمتع بصفات الخالق، وفى هذه الحالة سنؤمن بأن الكون هو الإله... وهكذا ننتهى إلى التسليم بوجود (الإله)، ولكن إلهنا هذا سوف يكون أعجوبة: إلهًا غيبيًّا وماديًّا فى آن واحد !! **إننى أُفضل أن أؤمن بذلك الإله الذى خلق العالم المادى، وهو ليس بجزء من هذا الكون، بل هو حاكمه ومديره ومدبره، بدلًا من أن أتبنى مثل هذه الخزعبلات»**.

تاسعًا: قلت للأستاذين: إن أهم أسباب ما أنتما فيه من التباس، هو الخلط بين العالم المادى المحسوس وعالم الغيب. **إن للإيمان بقضايا الغيب (كالألوهية) منهجًا يختلف تمامًا عن الاقتناع بحقائق العلم.**

فالعلم يقدم الدليل Proof الذى توصل إليه من خلال المنهج التجريبى، أو المنهج العقلى الذى تمثل الرياضيات جزءًا هامًّا منه.

أما قضايا الغيب فنستدل عليها بالشواهد Evidences، وكلما تأمل الإنسان وتَفَكَّر يتعمق الإيمان، نتيجة لتزايد دلالة الشواهد حتى تكاد تصل فى يقينها إلى مستوى الدليل العلمى، ولكنها لن تصل، وإلا لانتفت قضية الإيمان بالغيب الذى هو محور الأديان السماوية.

عاشرًا: قال الأستاذان: إن ما سقتَ من أدلة على وجود إله خالق لهذا الكون، يُعتبر من **الأدلة السلبية**، التى تعتمد على استبعاد أن تكون الطبيعة هى الخالقة، أى أنه إله سد

---

(١) القوة النووية القوية، والقوة النووية الضعيفة، وقوة الجاذبية، والقوة الكهرومغناطيسية.

الثغرات[1]، ونحن نريد **دليلًا إيجابيًّا**، فالعقيدة يجب أن تُبنى على يقين، وليس على جهل. وكلما طرحتُ عليهما دليلًا، قالا إنه دليل سلبى، نريد دليلًا إيجابيًّا !

قلت لهما: إنكما بقولكما هذا قد جعلتما من العلم **«إله سد الثغرات»! فكل ما يعجز الماديون عن تفسيره، تعتبران أن العلم سيتوصل إليه فيما بعد!**

ثم أضفت: **دلونا على الدليل الذى تريدونه، وتعتبرونه إيجابيًّا، ونحن سنسوقه لكم.**

إن الملحدين عبر الزمان، لم يكتفوا بالمعجزات المحسوسة الإيجابية التى ساقها لهم أنبياؤهم، ولا الأدلة العقلية المنطقية. إنهم يقصدون بالدليل الإيجابى هو **أن يدركوا الإله بحواسهم**، إنه عين ما قال قوم موسى لنبيهم ﷺ، كما جاء فى القرآن الكريم:

﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥].

وكذلك قولهم ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: ١٥٣].

كنت أظن، حتى وقت قريب، أن الملحدين المعاصرين فى المجتمعات المسلمة يستحيون من قولها، لكن الأستاذين قالاها، بل قالا ما هو أسوأ منها.

ليت الملحدين يدركون قول عالم الطبيعة جورج ديفيس، الذى استشهدنا به، وهو **أن الإله مغاير لهذا الكون، فلا يُستدل عليه بحواسنا**، إنه:

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١].

لذلك ينزه الله ﷻ ذاته الشريفة عن إدراك الحواس، فيقول عن ذاته ﷻ:

﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ [الأنعام: ١٠٣].

وينزه نفسه كذلك فيقول: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات: ١٨٠].

لقد حدد الله المنهج الذى يُستدل به على وجوده وعلى قدرته، إنه **«منهج النظر والتفكر فى آياته، وليس منهج الإدراك المباشر»**:

﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣].

(١) إله سد الثغرات God of the Gaps: اصطلاح يستخدمه الملحدون، ويعنى أننا كلما عجزنا عن تفسير شىء لم يتوصل العلم إلى تفسيره، سارعنا إلى القول بأن ذلك من فعل الإله.

أى أن الكون وآياته والأنفس وآياتها، هى كتاب الله المنظور، كما أن القرآن الكريم وآياته هو كتاب الله المقروء.

وهذه الآيات التى تملؤنا وتملأ الوجود من حولنا، تمثل برهانًا باقيًا إلى يوم القيامة ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [لقمان:٢٧].

﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ ﴾ [الكهف: ١٠٩].

لم يكتفِ الخالق ﷻ بذلك، فليس البشر جميعًا مثل أنتونى فلو، يستطيعون التوصل من خلال «رحلة عقل» استغرقت أكثر من ستين عامًا إلى القول بوجود الإله؛ لذلك خاطب الله ﷻ العقول والقلوب عن طريق الأنبياء والرسل:

﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [فاطر:٢٤].

وبذلك يكون الوحى عونًا للعقل فى تذكرة الإنسان بما جُبِلَ عليه من وعى فطرى بوجود الله. لقد قام الله ﷻ، بذاته، بغرس الإدراك الفطرى بربوبيته فى الإنسان، دون وساطة من مَلَك مُكَرَّم أو نبى مُرْسَل:

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

وكما فطر الله الإنسان على الإيمان بالإله الواحد، فقد فطره على المنظومة الأخلاقية، فجعل الخير واضحًا والشر واضحًا أمام النفس البشرية.

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ ﴾ [الشمس: ٧-٨].

كما أودع فى فطرته «قانون الخلاص»:

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ ﴾[الشمس: ٩-١٠].

انتهيتُ ومضيفنا على العشاء من الرد على اعتراضات الأستاذين الملحدين، كما انتهيت من عرض منهج الإسلام للتعامل مع قضايا الألوهية والدين والمنظومة الأخلاقية. ويبدو أن ردودنا كانت جديدة تمامًا عليهما، فقد صرحا بأنهما ما كانا يتوقعان هذه الدقة العلمية والفلسفية

والدينية، فقد اعتادا على الطرح السطحى من قِبَل المتدينين! مما كان يزيدهما تمسكًا بمفاهيمهما. ولا أدعى أنهما قد عدلا عن الإلحاد، **فالكِبْر لا ينزل من عليائه بسهولة، لكنى أحسب أننى قد نجحت فى إثارة الماء الراكد.**

عقب هذا العَشَاء العاصف، عدت إلى الفندق، وأنا أضرب كَفًّا بكف، وبت ليلتى أَرِقًا أتساءل:

كم من مثل هذين الملحدين موجود بين ظهرانينا؟ ليتهما من الباحثين عن الحقيقة. ليتهما من أصحاب الحجج المعقولة. ليتهما يطبقان ما يَدَّعيان من أن للعلم مجاله وللدين مجاله. ليتهما يتوقفان عن السخرية.

كم من شبابنا يمكن أن يخدعه هذا المنطق الفاسد؟ ألا يحتاج شبابنا إلى تحصين عقلى، يرفع من مناعته الإيمانية.

استقبلتُ الفجر ونسماته، والعزم يملؤنى على أن استكمل الإبحار فى رحلة العقل.

التشدد يتهم العلم

القارئ الكريم...

بعد أن شرعتُ بهمة ونشاط فى استكمال رحلة العقل، وحين قارَبَت الرحلة الانتهاء، التقيت بعقبة جديدة تختلف عن سابقتيها. **فهى ليست كالتصور بأننا مؤمنون وأن إيماننا (تمام التمام وعال العال)**، وليست **كعقبة الإلحاد المتشح بالعلم**، ولكنها العقبة التى كَبَّلت مسيرة الحضارة الإسلامية على مدى قرون عديدة مضت، وحتى الآن !! **إنها عقبة تهميش العلم والعقل تمامًا؟** كما حدث فى أوروبا فى العصور الوسطى.

فبينما كنت أناقش الفصول الخاصة بالعلاقة بين الدين والبيولوجيا مع صديق له منظور دينى خاص، ومن أصحاب الثقافة العلمية الواسعة، تحول صديقى إلى إعصار مدمر يجتث المفاهيم التى عرضتها فى فَصْلى الدين والبيولوجيا من جذورها ويبعثرها أشلاء !!

كانت بؤرة إعصار صديقى **أن كلًّا من الجسد والروح ينتمى إلى وجود يختلف عن الآخر، وبالتالى يستحيل تخيل علاقة بين الجسد وبين المشاعر الروحية.** لذلك فإن ما أعرضه من مفاهيم

علمية هو منتهى آمال الملاحدة؛ إذ إنه يثبت أن المشاعر تنشأ من الجسد، ومن ثَمَّ ينمحى عالم الغيب كلية (الله - الروح).

امتدت المناقشات الساخنة بيننا طويلًا، من خلال اللقاءات المباشرة، وعبر الهاتف والمراسلات. ولا شك أنك قارئى الكريم فى شغف لمعرفة كيف دار الحوار، وإلى ماذا انتهى:

بدأ صديقى هجومه قائلًا:

لا شك أنه يستحيل إقامة / فهم / تخيل علاقة سببية Causal بين الجسديات والروحانيات. فبالرغم من أن هناك **علاقة تفاعلية** Interaction بين الذات الإنسانية[1] والجسم، تتلقى الذات من خلالها كل المعطيات الكونية Inputs من ضوء وصوت وكيمياء (الشم) وميكانيكا (اللمس)... إلخ، وتتفاعل معها، إلا أن الادعاء بأن **الروحانيات / الشعوريات مصدرها الجسد، فهذا محض هراء لا دليل عليه**، ويستحيل مجرد تخيله.

إن تفجير المشاعر الروحية عند الإنسان يقتضى الإرادة والعزم والتصميم وجهاد النفس، مع إدراك لصفات الله، ومقتضيات الربوبية والعبودية. ولن تستطيع كيمياء النظام الجينى وكيمياء وكهرباء المخ، القيام بذلك.

بل لقد ثبت أن هناك هوة سحيقة بين كيمياء الشفرة الوراثية وبنية المخ المادية، وبين الصفات العليا للإنسان، وأنه **يستحيل وجود قنطرة للاتصال بينهما** Bridging the gap.

قلت لصديقى:

لقد استخدمت فى عرضك اصطلاحات قاطعة جازمة. مثل «ثبت» «ويستحيل»، مع عدم وجود دليل علمى أو دينى على الثبوت أو الاستحالة. **لقد انطلقت من مسلمات تفتقر إلى الدليل**، وهاجمت من خلالها العلم والعلماء (كما سنرى فيما بعد).

كذلك لا يُشْتَمُّ مما طرحناه فى الفصول الخامس والسادس والسابع، أن من استشهدنا بأقوالهم من العلماء يَدَّعون أن الجسد هو مصدر الروحانيات / الشعوريات. إن كل ما نقلناه عنهم هو **بحث فى العلاقة التفاعلية Interaction بين الذات الإنسانية والجسد**، تلك العلاقة التى أقررتَ فى اعتراضك بوجودها، ثم عدتَ لتؤكد استحالة وجود اتصال بينهما !

(١) يستخدم علماء النفس اصطلاح «الذات الإنسانية» كمرادف لمفهوم «الروح المدرك والنفس والعقل» الذى تستخدمه الديانات.

لذلك هناك نقطة جوهرية (ربما هى محور الخلاف كله) ينبغى أن نوضحها، **إنها منزلة الجسد بالنسبة للإنسان، من منظور الإسلام:**

هل الجسد شىء **مُدَنَّس مُنتَقَص، لا يحقق الإنسان العروج الروحى إلا بإذلاله أو تجاوزه، أم هو دابة الروح** (كما يقول الإمام الغزالى)، **أم هو أكثر من ذلك؟** هذه ثلاث مراتب للجسد ينبغى أن نختار من بينها.

لا شك أن كثيرًا من المتدينين يعتقدون فى الفهم الأول أو الثانى، مما يتطلب تصحيح فهمهم وتعديله بشكل جذرى، لذلك نُذَكِّر بأن:

١- كانت **رحلة المعراج لرسول الله ﷺ بالجسد والروح** (فى الرأى الأرجح). والمقصود بذلك ليس إظهار قدرة الله ﷻ، ولا تعظيمه لمنزلة رسوله الكريم فقط، لكنى أرى فى ذلك إشارة إلى أن حقيقة الإنسان هى الجسد والروح معًا، وأن الجسد يمكن أن يرقى إلى مراقى الروح، وأن ينفذ إلى عوالمها غير المادية.

٢- لا ينبغى أن نَرُد على النقطة السابقة بأن هذه خصوصية لرسول الله ﷺ؛ **إذ إن كل إنسان منا يحقق العروج الروحى عن طريق سجود الجسد والروح / النفس فى الصلاة التى هى معراج المؤمن** ﴿ وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب ۩ ﴾ [العلق: ١٩].

٣- عندما أراد الله ﷻ أخذ ميثاق ﴿ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ ﴾ [الأعراف: ١٧٢] من بنى آدم، فقد **خاطب الأرواح / الأنفس من خلال الأجساد**، بعد أن أخرج البشرية جميعًا من ظهر آدم فى أجساد دقيقة كالذر وأَخَذَ عليها الميثاق، ويمكن تفسير آية الميثاق على **أن العهد قد وُضِعَ فى نُطف (الحيوانات المنوية والبويضات) كل إنسان فى زمانه**. إن ذلك يعنى أن الفطرة قد وُضعت فى الجسد، بالرغم من أن المخاطب بالعهد هو الروح / النفس.

٤- تأمل قول الله ﷻ فى سورة النحل: ﴿ وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٧٨ ﴾ [النحل: ٧٨].

إن الإنسان يأتى إلى الدنيا بجسده ونفسه وروحه لا يعلم شيئًا، ثم يبدأ فى اكتساب العلوم والمعارف من خلال حواس الجسد، فتتعلم أمورًا عن عالم الغيب ﴿ وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ [النحل: ٧٧] **وأمورًا عن عالم الشهادة** ﴿ أَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ مُسَخَّرَٰتٖ فِي جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴾ [النحل: ٧٩].

ليس ذلك فقط، بل إن الإنسان يتذكر العهد الذى قطعه الله على الروح/ النفس ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف:١٧٢] من خلال حواس الجسد أيضًا ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا تَحْمِلُ..﴾ [فصلت:٥٣]..

٥- فى العبادات كلها (الصلاة والصوم والزكاة والحج) يقوم كل من الجسد والروح / النفس بدوره. وتصح العبادة من الناحية الشرعية إذا أديناها بالجسد، وإن قَصَّرت الروح والنفس، أما العكس فغير صحيح !

٦- لا شك أن المنفعة تبادلية بين النفس والجسد. فالنفس ترقى بمجاهدات يشارك فيها الجسد، كقيام الليل والصيام. كذلك يحقق السمو النفسى للجسد فوائد جمة، من خلال رفع مستوى المناعة، وخفض معدل النوبات القلبية والمخية، وتأخير الشيخوخة.

٧- بعد موت الإنسان ومفارقة الروح له، تحدد لنا الشريعة كيف نقوم بمعاملة الجسد معاملة تكريم وإعداد للحياة الأخرى. فيتم تغسيله ليكون على طهارة، ويُلَف فى كفن أبيض نظيف، ويُصلَّى عليه، ويُدعى للمتوفَّى بالرحمة فى حضور الجسد، ثم يُسَجَّى مواجهًا للقبلة.

٨- عند البعث، يُحشر الإنسان بروحه ونفسه وجسده، ليتم محاسبته على معاصى النفس ومعاصى الجوارح. ويجازى الإنسان ككائن متكامل، بالنعيم أو بالعذاب.

تؤكد هذه النقط الثمانى، وغيرها كثير، التواصل بين الجسد والروح، ليس فقط من خلال علاقة سببية، بل لأن الجسد هو مظهر الروح، التى لا نعلم عنها شيئًا: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء:٨٥] حتى يمكننا القول: إن كل ما يعتمل فى الروح يطفح على الجسد.

﴿لِتَقْرَأَهُۥ.. إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ [الإسراء: ١٠٧].

﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٩].

سبحان ربى ﷻ !

واضفت...

إذا كان القرآن الكريم يتحدث فى بعض المواضع عن الجسد وعن الروح وعن النفس **بشكل منفصل:**

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴾[ص: ٧١].

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴾ [الشمس: ٧].

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ﴾ [الإسراء: ٨٥].

إلا أن الله ﷻ عندما يتحدث عن الإنسان، أو يوجه له الخطاب، ينظر إليه باعتباره **كلًّا متكاملًا**، منذ يوم «ألستُ بربكم»، وحتى نلقى الله ونحيا خالدين فى الحياة الأخرى.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴾ [الانشقاق: ٦]

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴾ [البلد: ٤]

إن الفصل بين مكونات الإنسان، واعتبار أن بعضها جوهرى (الروح) وبعضها ثانوى (الجسد) وبعضها واسطة بين الاثنين (النفس)، هو مصدر الالتباس. لذلك ينبغى أن نعيد صياغة **نظرتنا للإنسان باعتباره كُلًّا متكاملًا.** إذا أدركنا ذلك سنكون قادرين على تصور التواصل بين بيولوجيا الجسد وبين الروحانيات والشعوريات والسلوكيات، فى سهولة ويسر.

لا شك أن **الإسلام يَتَفَرَّد بهذه النظرة المتكاملة. فاليهودية والمسيحية**، التى بين أيدينا، تنظر إلى الجسد ورغباته باحتقار، وترى أن الخلاص فى الحياة الأخرى لن يكتمل للروح إلا بعد أن يُبَدَّل الجسد المرتكب للمعاصى بجسد خالٍ من الرغبات المادية. كذلك ترى **الهندوسية وديانات الشرق الأقصى** أن حقيقة الإنسان هى الروح فقط، لذلك ترى السعادة الكبرى فى تحرر الروح من الجسدية المدنسة، والتحاقها بالروح الكلى، كما تعود قطرة الماء إلى البحر المحيط.

قال صديقى:

ذكرت فى الفصل السابع (حقيقة الذات الإنسانية) أن العلماء والفلاسفة المؤمنين يؤكدون أن **اللغة الكهروكيميائية التى تتواصل بها خلايا المخ**، لا تستطيع أن تُخرِج لنا المشاعر الإنسانية والروحية، وكذلك السلوك، واستنتجوا من ذلك أنه ينبغى أن يكون للمشاعر والسلوك مصدر

غير مادى. **فكيف نقبل أن تكون بضع قطرات من مادة كيميائية (كالسيروتونين أو الدوبامين) مسئولة عن مشاعرنا الروحية، لمجرد أنها نَشَّطت بعض الدوائر الكهربائية فى المخ؟**

أجبت صديقى قائلًا:

أوافقك على أن الناقلات الكيميائية والدوائر الكهروكيميائية بالمخ ليست هى المصدر الأعلى للمشاعر والسلوك.

إن دراسة العلم للعلاقة بين البيولوجيا والتدين، لا تعنى البحث عن المصدر الأعلى (الذات الإنسانية)، فهذا دور علم النفس والفلاسفة والدين، لكننا **نبحث عن همزة الوصل بين الذات الإنسانية (النفس / الروح) وبين الجسد**؛ إذ إن المشاعر والمفاهيم الكامنة فى الذات، لا بد أن يتم ترجمتها من خلال المخ، ليستشعرها الإنسان.

ونلاحظ ذلك فى المرضى **الذين يصابون بغيبوبة** لسبب أو لآخر، فعند إفاقتهم لا يتذكرون ما لم تدركه حواسهم أثناء الغيبوبة. بل إن ما يُعرَف «**بخبرات العائدين من الموت**»تتركز فى الفترات القريبة من الدخول والخروج من الغيبوبة، أى الفترات التى يكون المخ فيها على درجة من الإدراك.

وأضاف صديقى:

إذا كان هناك احتمالية لوجود منظومة من الجينات Genetic Networks عند بعض الأشخاص، تجعل أجسادهم قادرة على التواصل مع أرواحهم، فسيكون ذلك **عند الأنبياء والأولياء**؛ فإن أجسام هؤلاء تكون مختلفة عن عامة الناس! ليكونوا جاهزين للتواصل مع عوالم الغيب.

قلت لصديقى:

لا شك أن أجساد الأنبياء والأولياء تتمتع بقدرة أعلى على التواصل مع عوالم الغيب. وقد أثبتت الأبحاث العلمية ذلك فى التجارب التى ذكرناها، والتى أجريت على الرهبان والعُبَّاد. كما تذكر كتب السيرة ثِقَل الوحى (تواصل الذات الإنسانية مع عالم الغيب) على جسد المصطفى ﷺ.

لكن هذا لا ينفى أن التواصل بين «الذات الإنسانية غير المادية» وبين الجسد الإنسانى موجود عند كل البشر.

اعترض صديقى قائلًا:

لماذا نبحث فى العلاقة بين البيولوجيا المادية وبين المشاعر والروحانيات؟! **أليس الله وحده هو الفاعل الحقيقى من وراء ستار الأسباب؟!** ألم يُجمع علماء الأمة على أن الله **يخلق الفعل فى كل مرة دون سبب**، وعَبَّروا عن ذلك بقولهم أن السكين لا تقطع، لكن الله يُحدث القطع عند حد السكين فى كل مرة، أليست هذه هى عقيدتنا؟!

إن ذلك يعنى أن وجود همزة وصل بين الجسد وبين الروح / النفس غير مطلوب. فالله القادر على أن يخلق الفعل دون وسائط، قادر أيضًا على تفجير المشاعر فى الإنسان دون وسائط.

وأضاف صديقى:

لقد سمعتك مرة تؤكد حتمية الربط بين الأسباب والنتائج، وتهاجم الفصل بينهما، وتقول أن ذلك يجعلنا أضحوكة العالم المتقدم، وقتها أحزننى ذلك منك كثيرًا، لذلك أنتهز هذا الحوار، لأؤكد **أن ذلك العالم شديد التأخر بالمقاييس الإنسانية والدينية**، ولا ينبغى أن نهتم برأيه، بل **يجب أن نتخلص من عقدة النقص هذه، والتى نعانى منها منذ قرون !**

هدَّأت من انفعال صديقى، ثم قلت له:

بعد أن استمعت إلى كلامك هذا، أصبحتُ على يقين **أن مكمن داء أمتنا هو إهمال الربط بين الأسباب والنتائج، بالرغم من تأكيد الإسلام على احترام السنن الكونية**. لقد تقاعَسَ المسلمون عن الأخذ بالأسباب بحجة أن الله هو الفاعل فى الحقيقة. فكانت النتيجة الحال السيئ الذى وصل إليه العالم الإسلامى.

وعندما تَعَرَّض الإمام أبو حامد الغزالى لقضية فاعلية الأسباب (وهو حجة الإسلام الأصولى الصوفى الفقيه) أكد **أن الله ﷻ قد وضع فى الأسباب القدرة على الفعل، حتى صار الصواب أن نؤمن بأن السكين تقطع، بالرغم من أن القطع يتم بقدرة الله فى كل مرة.**

وبالرغم من ذلك، فإن بعض علماء العقيدة فى عصرنا، بعد أن يذكروا رأى الأمام الغزالى، ويستحسنونه، ويرون أنه يتمشى مع العقل ومع الواقع، يعودون فيؤكدون أن عقيدة أهل السنة والجماعة، هى **أن الأسباب لا تعمل!! وأن السكين لا تقطع**، معتقدين أن القول بغير ذلك ينقص من طلاقة القدرة والفعل الإلهى، ومن ثَمَّ ينتقص من كمال التوحيد وكمال التنزيه لله!

ومن اهتمام الله ﷻ بالأسباب، جعلها وسيلة تنفيذ أمره الإلهى «كن»لخلق كل شىء. فالحياة فى كوكب الأرض مخلوقة بكلمة كن، وقد تطلب ذلك إعداد الأرض (من خلال قوانين الطبيعة) لاستقبال الحياة، على مدى ثمانية مليارات عام.

كما خلق الله ﷻ كل إنسان منا بكلمة «كن»، وتم تنفيذ هذا الأمر الإلهى من خلال تزاوج أمهاتنا وآبائنا، ثم بقائنا فى الأرحام لمدة تسعة أشهر.

بل إن الله ﷻ يخبرنا أنه يستخدم الأسباب فى إدارة شئون الكون: ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴾[ق: ٩]

أى أن الله ينبت الزرع بالماء وليس عند الماء (كما يقول البعض)، بالرغم من أنه قادر على الإنبات دون أسباب.

وأضفت قائلًا لصديقى:

إن إنكار فاعلية الأسباب التى وضعها الله ﷻ **يشبه موقف فيلسوف الإلحاد الكبير ديفيد هيوم فى بعض الجوانب**؛ فهذا الملحد يأبى أن يكون هناك نظامًا للكون، ويرى أنه لا يخضع لقوانين، ويعتبر أن ما نراه من التزام الكون بنظام معين إنما هو من حكم العادة! وهذا تمامًا ما يقوله بعض علماء العقيدة!

وأنهى حديثى حول هذه النقطة، بأن أشير إلى موقف أمير المؤمنين عمر بن الخطاب عندما سأل رجلًا عن أمر ما، فأجاب الرجل مُظهرًا التقوى والخشوع: الله أعلم. فضربه عمر بعصًا فى يده، وقال له: **لا أسألك عن علم الله، لكنى أسألك عن علمك أنت.**

وهذا هو حالنا، فعند دراستنا لقوانين الكون ينبغى أن نلتزم بالعلم الذى علمه الله لنا، ولا نتخذ من مشيئة الله وقدرته المطلقة تُكَأة لإنكار السنن الكونية. كما لا ينبغى فى محاولتنا لتنزيه

الله ﷻ أن نتنكر للأسباب والقوانين الطبيعية، معتقدين أن ذلك من كمال التنزيه، بل ينبغى أن يكون مصدرنا فى جميع الأمور الغيبية هو القرآن الكريم والسنة الصحيحة.

أضاف صديقى:

كذلك أرفض قولك بأن الله يضع فينا الاستعداد لتقبل المفاهيم الدينية، وأن هذا الاستعداد قد يختلف فى قوته من إنسان لآخر. كما أرفض قولك أن للتنشئة دورًا فى تبنى هذه المفاهيم، وأؤكد لك أنه لا فرق بين أن يُنَشَّأ الإنسان فى عائلة ملتزمة أو فى عائلة غير ملتزمة. إن الإيمان هبة إلهيه محضة، يهبها الله لمن يتوجه (مجرد توجه) إلى الحق والحقيقة.

إن قولك هذا يقدح فى العدل الإلهى، ويمثل خللًا شديدًا فى العقيدة!

قلت لصديقى، بعد أن سألت الله ﷻ أن يحفظ علينا العقيدة الصحيحة:

ذكرنا أن الله ﷻ وضع فينا فطرة التدين، واستشهدنا على ذلك بأدلة الدين والعلم، كذلك فإن دور التنشئة والتربية فى التمسك بالمفاهيم الدينية لا ينكره منصف.

وأعتقد أن كل إنسان إذا تأمل من يعرف من العائلات الملتزمة دينيًّا وغير الملتزمة، فسيتأكد من صدق هذه المفاهيم البيولوجية والتربوية، حتى صار القول الذى يُنسب لرسول الله ﷺ: «تخيروا لنطفكم فإن العرق دَسَّاس» بمثابة الأثر المحترم والحكمة الحكيمة عند العرب، حتى وإن لم يصح تخريجه عند رجال الحديث[1].

وأضفت، إن التفاوت فى استعداداتنا الوراثية والبيئية لتَقَبُّل المفاهيم الدينية، لا يتعارض مع العدل الإلهى. فالخالق ﷻ أعلم منا باستعداداتنا، ولا شك أن هذا الاستعداد يؤخذ فى الاعتبار عند الحساب، فالعدل الإلهى ليس فى معاملة البشر جميعًا بنفس المقاييس، ولكن فى محاسبة كل منا تبعًا لظروفه التى خلقه الله فيها.

بعد أن انتهى صديقى من طرح اعتراضاته الخاصة بالعقيدة، انتقل إلى الهجوم على العلماء المهتمين بالعلاقة بين المشاعر الروحية وبين البيولوجيا، وإلى الهجوم على من ينقل عنهم، فقال:

(١) أورده الديلمى وصححه ابن الجوزى، وقد رواه عن عمر وابن عمر وأنس وعائشة.

١- تعلم يقينًا أن العلماء الماديين الملحدين لا يعترفون بأية قيم أخلاقية! لذلك يمارسون الغش والدجل، ويتجاهلون الصدق والأمانة والشرف فى أبحاثهم العلمية.

٢- **ينطلق هؤلاء المهرجون من أساسيات يؤمنون بها**، منها أن التطور الداروينى حقيقة، وأن المخ المادى هو ذات الإنسان. والصواب أن ينطلقوا فى بحثهم متجردين من أى مفاهيم مسبقة.

٣- يقوم هؤلاء الماديون بالبحث فى الأصول المادية للمشاعر والعقائد، قاصدين أن يثبتوا أن الإنسان ليس إلا المادة فقط. ولا مانع لديهم من لَىِّ المفاهيم التى يتوصلون إليها، **ويقيمون فوق هذه النواة الصغيرة بناءً شاهقًا من الخداع والدجل والغش**، ليؤيدوا آراءهم المادية المسبقة، ثم يخاطبوننا من خلال كتبهم كما لو كنا قطيعًا من الأنعام، لا نفهم ولا نميز.

٤- إن التعامل مع كتابات هؤلاء، **لا يكون بالتحليل والنقد**، وموافقتهم فيما يقولون من صواب، ورد ما نراه خطأً. إن الأسلوب الصحيح هو الرفض التام لادعاءاتهم المادية، ثم البرهنة على هذا الرفض، ثم محاولة تقديم التفسير الأصح. ولا ينبغى أن نعيد صياغة ما يقولون، أو نضيف إليه، من أجل تصحيح صورتهم.

٥- أظنك توافقنى على أن الروح هو المتحكم فى الجسد؛ لذلك ينبغى أن يبدأ البحث العلمى من الروح. أما هؤلاء الدجالون فيخالفون المبدأ العلمى، ويبدءون بحثهم **من أسفل لأعلى**، من المادة (البيولوجيا) إلى الروح، وأنَّى لهم باجتياز الهوة بين الاثنين. لذلك فالصواب أن يترك العلم قضية المشاعر الروحية للدين، وألا يقترب من هذه المنطقة المحرمة.

أجبت صديقى قائلًا:

١- إن النقاط التى ذكرتها، تحتم عَلَىَّ أن أوضح مبدأً محوريًّا فى منهج التفكير العلمى، عسى أن يزيل ذلك الكثير من اللبس:

يجب أن نُفَرِّق بين ما يتمخض عنه البحث العلمى من إثبات أو نفى لبعض المفاهيم المطروحة للدراسة، وبين تأويل هذه النتائج ووضعها فى سياقها الفكرى.

أوضح هذا بمثال: لقد أثبت العلم أن **التواصل بين المراكز العصبية المختلفة فى مخ المرأة أغزر من التواصل بين هذه المراكز فى مخ الرجل**. هذه حقيقة علمية، تبناها دعاة تفوق المرأة على الرجل Feminists، واستنتجوا أن التواصل بين مراكز اتخاذ القرارات وبين المراكز الشعورية يجعل المرأة تضع الاعتبارات الإنسانية فى الحسبان عند اتخاذ أى قرار، أى أن نظرة المرأة تكون أكثر شمولية من نظرة الرجل. أما دعاة تفوق الرجل على المرأة Musculinists فيستنتجون من الحقيقة العلمية نفسها أن العواطف والانفعالات تُشَوِّش على اتخاذ القرار عند المرأة، وتجعل قراراتها غير صائبة.

سبحان الله! **نفس الحقيقة العلمية تم استغلالها لإثبات وجهتى نظر متضادتين.**

إذا عدنا إلى قضيتنا الأساسية، وجدنا أن العلم قد أثبت عددًا من المفاهيم والعلاقات بين الإيمان والبيولوجيا (عرضناها فى الفصلين الخامس والسادس)، وقد تبنى الباحثون تجاه هذه المفاهيم، أحد موقفين متضادين:

- اعتبرها الماديون دليلًا على أن **المادة هى الذات الإنسانية**، وأننا لسنا بحاجة إلى وجود غيبى (كالروح) لتفسير المشاعر الروحية والإنسانية والمنظومة الأخلاقية، وألَّفوا فى ذلك الكتب.
- واعتبرها المتدينون دليلًا على أن الله ﷻ قد وضع الفطرة الدينية والأخلاقية فى مخ الإنسان وفى شفرته الوراثية، واعتبروا هذه المفاهيم **همزة الوصل بين الروح والجسد**. وألَّفوا فى ذلك الكتب.

لذلك لا ينبغى للباحث المنصف أن يرفض المفاهيم العلمية إذا لم تتماشى مع عقيدته، ولكن ينبغى عليه دراسة هذه المفاهيم ووضعها فى سياقها الفكرى المناسب.

٢- إذا كان بعض الماديين ينطلقون من مفاهيم مسبقة، فإن هذه ليست سِمَتَهم جميعًا، فهذا أنتونى فلو يتبع البرهان إلى حيث يقوده، وقد قاده بالفعل إلى أن هناك إلـهًا.

بل يؤسفنى أن أقول أن **الانطلاق من المفاهيم المسبقة التى قد تخالف ما عليه الدين والعلم قد أصبح سمة غالبة عند الكثيرين من المتدينين!** ومن هذه المفاهيم، قولكم إنه يستحيل إقامة/ فهم/ تخيل علاقة سببية بين الجسديات والروحانيات. وكذلك قولكم: إن تفاوت استعداد الناس لتقبل المفاهيم الدينية يتنافى مع العدل الإلهى.

ومن هذه المفاهيم المسبقة أيضًا اعتبار أن الملحدين جميعًا عديمو الشرف والصدق، وأنهم غشاشون ودجالون، بالرغم من اتفاقنا أن المنظومة الأخلاقية منظومة فطرية، سبق وجودُها الديانات، ومن ثَمَّ لا ينبغى أن نعتبر أن الملحدين يحيون فى خواء أخلاقى!

٣- أتفق معك فى أن الذات الإنسانية هى الموجِّهة للجسد، لكن هذا لا يعنى أن البحث العلمى ينبغى أن يبدأ من الذات فقط. بل **إن المنهج العلمى يسمح بأن يتجه البحث من الأعلى إلى الأدنى، وكذلك من الأدنى إلى الأعلى**. وقد اشتملت الكتب الثلاث التى عرضناها تحت عنوان (مراكز التدين فى المخ) على كلا المنهجين فى البحث.

صديقى العزيز...

أرجو ألا تثير ردودى الضيق لديكم.

أعلم مقدار ما تحملونه من رفض لمفاهيم الماديين، وأعرف أسبابه، لكن **ينبغى ألا ننزلق إلى القذف والتشهير والهجوم الشخصى**، خاصة أن هذا الأسلوب يفقدنا الكثير من حجية براهيننا؛ لذلك ينبغى أن نتمسك بالأسلوب الأمثل الذى حدده القرآن الكريم:

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾[النحل:١٢٥].

إن فى هذه الفترة من عصر العلم فرصة ذهبية لتعريف الناس بربهم. فالعالَم يموج بالاهتمام بالعلم، حتى أن كتابًا مثل «تاريخ موجز للزمن» تأليف ستيفن هوكنج، الذى يتحدث عن خلق الكون، أصبح أكثر الكتب مبيعًا فى التاريخ، فقد بيع بمعدل نسخة لكل ٥٠٠ إنسان يحيون على الأرض. كما كان البرنامج التليفزيونى (الكون) الذى أعده كارل ساجان، أكثر البرامج مشاهدة فى التاريخ. كذلك أصبحت الكتب التى تتحدث عن علاقة الدين بالجينات وبالمخ من أكثر الكتب مبيعًا The Best Sellers.

إن العلم هو اللغة التى يفهمها إنسان القرن الحادى والعشرين فى جميع دول العالم، وسبحان من أخبرنا بهذا منذ أربعة عشر قرنًا:

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾[فصلت:٥٣]

ويأتى ما نقلناه عن مجلة التيم الأمريكية فى تعليقها فى تغير موقف أنتونى فلو، كأنه استجابة مباشرة لهذه الآية. قالت المجلة: «**على رأس الاكتشافات المبهرة التى توصل إليها العلم الحديث، يأتى اكتشاف أن هناك إلـهًا**».

صديقى...

لا ينبغى أن يكون موقف المتدينين تجاه ما يتوصل إليه العلم، هو **الرفض، والرفض فقط**، لكل ما يخالف فهمهم، خاصة وأننا فى هذا الطور الحضارى **مقصرون فى تحصيل العلم والمعرفة**.

وإذا كان المسلمون يمتلكون النص المقدس المعصوم (القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة)، فهذه **مسئولية كبرى فى أعناقهم، تحتم عليهم أن يُعملوا عقولهم** للفهم عن الله لنصوص قُصد منها أن تتجاوب بسلاسة ويسر مع المستجدات العلمية والحضارية، حتى تدرك البشرية من خلال هذه المستجدات أن الله حق.

وإذا كنا فى العصر الحديث، قد عجزنا (مع استطاعتنا) عن أن نقود الإنسانية فى طريق العلم، فليس أقل من أن ننهل مما يَتَكَشَّف من المعارف، **فالحكمة ضالة المؤمن أنَّى وجدها فهو أولى الناس بها**.

إن آيات القرآن الكريم، **كالرحيق فى الزهرة**، ينبغى على النحل بذل الجهد الكبير حتى يحوله إلى عسل صاف فيه شفاء للناس. **أما ادعاء الاستئثار بالمعرفة**، لمجرد أننا نمتلك النص المقدس دون بذل الجهد للفهم والتفاعل الحضارى فخطأ فادح. كذلك **أن نوصد الباب أمام العقل باعتبار أن كل ما نقول أمورًا من العقيدة** التى لا ينبغى النظر فيها، وهى ليست كذلك، فهو خطأ أكبر.

لا ينبغى فى هذا العصر أن نضفى القداسة على ما قاله المسلمون السابقون، **كما فعلت الكنيسة فى العصور الوسطى**، وأن نعتبره الحق المطلق، ونردده فى مجالسنا ومنتدياتنا و«حَضَرَاتنا»، و«نمصمص الشفاة» سعداء بأقوال تحتاج إلى إعادة نظر وإعادة فهم.

إننا بهذا الأسلوب نخاطب أنفسنا وننتشى لما نقول، بينما العالم والعلم يتجاوزوننا، ولا يلقون إلى معارفنا بالًا. هذه المعارف التى يحتاجها الإنسان كاحتياجه للطعام والشراب، لكننا قد كَدَّرنا المنهل ولَوَّثنا المَشْرَب، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

الفصل التاسع

الوجود الإنسانى

المصدر ـ المسار ـ المنتهى

مدخل...

قال لى المفكر الكبير، الذى أعتز بآرائه كثيرًا، بعد أن راجع فصول الكتاب وأثنى عليها:

أراك فى عرضك لأفكار «رحلة عقل» تحلق بين القمم السامقة للفلسفة والعلم، ثم أجدك تربط بينها وبين المفاهيم الدينية، **فأستحضر أسلوب بعض خطباء المساجد الذين يتحدثون فى قضايا عامة أو قضايا علمية، ويرصعون ما يقولون ببعض آيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية، بأسلوب فيه ما فيه من تحريف للعلم وإنكار لبديهات العقل. لقد أصاب هذا المنهج الكثيرين بالملل وجعلهم يعزفون عن الدين.**

ولا يقف هذا الطرح عند الوعاظ فى المساجد وفى الإعلام. هل تعلم أن من بين أفضل ثلاثين مقالًا علميًا عالميًا تم اختيارها عام ٢٠٠٧، كان مقالًا بعنوان «**العلم والإسلام فى صراع**» Science and Islam in Conflict.

وجاء فى مقدمة المقال الذى نُشر فى Discover Magazine.

«فى جميع دول العالم، على اختلاف ثقافاتها ولغاتها، يتحرك العلم بناءً على المفاهيم والأسس العلمية، باستثناء العالم الإسلامى، حيث يتحكم القرآن فى العلم!».

ويدور المقال حول **الأصوليين الإسلاميين المهتمين بالإعجاز العلمى فى القرآن الكريم**، ويبين بالأمثلة الصارخة كيف يلوون الحقائق العلمية لتتمشى مع **بعض مفاهيمهم السطحية للدين**. ولا مانع من تعديل أو رفض النظريات العلمية أو ابتكار نظريات جديدة فى ضوء هذا الفهم. وعندما سأل مندوب المجلة العلمية أحد هؤلاء الأعلام عن مصدر أحد تصوراته العلمية، أجاب: القرآن.

لقد جعل هذا الأسلوب الكثيرين من المفكرين الجادين والباحثين الصادقين عن الحقيقة **يفقدون الثقة فى الفكر الدينى**، فيلقون ما يقرءون جانبًا إذا وجدوا فيه أى استشهادات دينية، حتى وإن كان دراسة علمية أو فلسفية عميقة، بل ويعتبرون أن الكاتب يتحايل ليبيع لهم فهمه السطحى للدين.

إننى لا أعترض على البحث فى الإعجاز العلمى للقرآن الكريم، لكن أطالب بأن يتحرى الباحثون الدقة العلمية والدقة الدينية فيما يعرضون.

أخشى أننا نكرر **مأساة الكنيسة فى العصور الوسطى فى أوروبا**، ونكرر ما حدث لفرانسس كريك (الحائز على جائزة نوبل فى الطب) حين وجد تعارضًا بين شروح التوراة وحقائق العلم، **فآثر العلم وتبنى الإلحاد**.

وافقت المفكر الكبير فى كل ما قال، فأنا أعيش الأزمة التى وضَعَنا فيها هذا التناول القاصر للدين. لكن... **هل يعنى ذلك أن نطوى صفحة الدين ونضعه وراء ظهورنا**، كما يفعل من فقدوا الثقة فى الفكر الدينى؟

لا بأس من هذا الحل لنريح أدمغتنا، لو كان الدين رفاهية فكرية أو قضية فلسفية نظرية، أما إذا كانت **الإلوهية حقيقة واقعة** وكان **الدين منهج حياة نُحاسَب فى ضوئه فى حياة أخرى بعد الموت**، فالأمر يختلف.

قاطعنى المفكر الكبير قائلًا:

إنك تطالب الناس بأن يتخذوا الدين منهجًا حياتيًا لأنهم سيُبعثون ويحاسبون بعد الموت. إن المشكلة أن الكثيرين من المفكرين لا يؤمنون بقضايا الغيب، أو على الأقل ينحونها جانبًا،

ولو اهتموا بها لانتهى الأمر. إن الإيمان بالغيب ينبغى أن يسبق الالتزام، إنك بهذا تضع العربة قبل الحصان.

قلت لمحاورى القدير، لم يعد أمام هؤلاء خيار، لقد زالت الحواجز بين العلم الحديث وبين قضية الإلوهية والدين، حتى لقد أعلن الفيزيائى العظيم نيلزبور[١] بشجاعة «أن الفيزياء الحديثة أصبحت تعيش فى تخوم الميتافيزياء».

لقد أعلن علماء الكونيات أن علمهم يبدأ من الانفجار الكونى الأعظم، أما ما قبل ذلك فخارج مجالهم. كما أعلن البيولوجيون أن علمهم يبدأ من دراسة المركبات العضوية والتفاعلات الكيميائية الحيوية، أما حقيقة الحياة وكيف دبت فى المادة غير الحية فذلك يتجاوز نطاق علمهم.

هل نقبل تفسيرات الملحدين لنشأة الكون من العدم بأنها من الأشياء النادرة التى يمكن أن تحدث تلقائيًا من حين لآخر! هل نقبل تفسيراتهم بأن الحياة قد ظهرت عندما بزغ فجأة جزىء الدنا السحرى! هل نقبل تهرب ريتشارد دوكنز عندما سُئل عن كيف ظهر العقل الإنسانى؟ فقال لا أدرى، إلقوا الكرة فى ملعب غيرى! هل تكتفى عقولنا بهذه التفسيرات ثم ندعى أننا علميون؟ أم ندعو القادر على الإدلاء بدلوه إلى أن ينزل إلى الساحة؟

لقد أحالنا العلماء المنصفون إلى الفلسفة والدين لنطرق أبوابها للوصول إلى هذه المعارف، وأيضًا لوصول إلى التفسيرات الغائية للوجود، بعد أن قَصَرَ العلماء علومهم الطبيعية على التفسيرات الآلية للظواهر.

اجابنى المفكر الكبير: إذا كان الأمر بين الفلسفة والدين، فإن الكثيرين من الباحثين عن الحقيقة يفضلون طريق الفلسفة، لأن عقولهم تثق فى استدلالاتها، ويعزفون عن الدين الذى يرون براهينه كالثوب البالى الذى خَلِق من كثرة الاستعمال، وكاللحن الممل الذى يعزفه من تنقصهم المهارة ولا يُقَدرون خطورة ما يقولون.

---

(١) من مؤسسى فيزياء الكم والحاصل على جائزة نوبل.

إذا أقررنا بأن تلك المفاهيم الغيبية أمر واقع بحكم العقل، وهى فى الوقت نفسه فوق طاقة الفلسفة. فلا مفر من أن يبحث العقلاء من الناس عمن يرسم لهم الطريق إلى عوالم الغيب التى سينتقلون إليها حتمًا، ولم يعد أمامهم لهذه المهمة إلا الدين. هذا هو حكم العقل.

لذلك لا ينبغى لمن يملكون القدرة أن يتهربوا من القيام بدورهم لينفضوا على الدين ما تراكم عليه من الجهل والتعصب، ودَفَع الكثيرين بعيدًا عنه. إن على المتدينين المستنيرين وبصفة خاصة المهتمين بالعلم والفلسفة أن ينزلوا إلى الميدان ليتحملوا كامل مسئولياتهم فى الثورة التى تهدف إلى «تجديد الخطاب الدينى». ولن يكون ذلك إلا بوضع الدين فى موضعه، ووضع العلم فى موضعه، ووضع العقل فى موضعه، وإظهار التلاقى حيث يوجد التلاقى.

سيدى... فى هذا الإطار، يأتى استشهادنا بآيات القرآن الكريم فى كتابنا، إنه استكمال وإتمام «لرحلة العقل»، وليس استشهادًا منفصلًا عنها أو دخيلًا عليها.

وقد دارت وتدور استشهاداتنا حول محورين:

المحور الأول: التنبيه إلى أن العقل هو المدخل إلى «معرفة الله» ثم الإحالة إلى الفطرة والدين لاستكمال المعرفة.

المحور الثانى: «معرفة مصدر ومسار ومآل الإنسان»، وهى قضية تقتصر مصادرها على الدين ولا عطاء للدين والفلسفة فيها. وبالرغم من ذلك فهى المرحلة المتممة لرحلة العقل؛ إذ يمكن من خلال المنهج العلمى التأكد من جميع أحداثها، كما سنبين فى هذا الفصل الذى يعتمد على النصوص الدينية:

الإنسان على مسرح الوجود

لقد توصل أنتونى فلو (وغيره من أنصار الديانة الطبيعية) من خلال البراهين العقلية (العلمية والفلسفية) إلى وجود الإله الخالق للوجود، وإلى بعض صفاته، وإلى أن الإله قد وضع القوانين التى تُسَيِّر الكون.

هل يكتفى الباحثون عن الحقيقة بهذا **الـهَذْى الفلسفى**، ويقبلون أن الله **قد اعتزل الوجود**، وتركه للقوانين الطبيعية، وأنه لا يتواصل مع الإنسان؟ ألا ترى ذلك تصورًا مُنَافيًا للمنطق؟

فإذا كان هؤلاء قد توصلوا إلى أن خالق الوجود **إله «حكيم»**، فأية حكمة وراء خلق كائن ذكى تعصف به التساؤلات، وفى الوقت نفسه لا يمكنه التواصل مع خالقه، ليُعَرِّفه الغاية من خلقه؟ هل خلقه الإله الحكيم ليتسلى به ويلهو، كما فعل الإله زيوس؟!

وإذا كان هؤلاء ينسبون إلى الإله كل **صفات الكمال، ومنها العدل**، ألا ينبغى أن يُحاسَب الظالم على ما اقترفه فى حق المظلوم؟ وإذا كان العقاب لا يتم فى كثير من الأحيان فى هذه الحياة، ألا يقتضى ذلك حياة بعد الموت يتم فيها الحساب والجزاء؟

لذلك اهتمت جميع الأديان بهذه القضايا الغيبية، ويتفرد الإسلام عن باقى أديان التوحيد والديانات الأخرى بالاهتمام بتفاصيل قضية **الوجود الإنسانى: المصدر - المسار - المنتَهَى**[1]. ويؤكد هذا الاهتمام أن الإسلام هو الدين الحق؛ إذ إن غاية الغايات من الدين أن يوضح مراد الله ﷻ من مخلوقاته.

وإذا كانت قضية الوجود الإنسانى قضية غيبية، فإنه **يمكن التثبت من صحتها وصدقها من خلال المنهج العلمى**. ذلك أن أغلب أجزاء هذه القصة يقع فى **المنظور الحسى المباشر للإنسان**، أما الجزء الغيبى منها فيمكن التحقق من صدقه من خلال **الاستنتاج العقلى**، أى أن القصة كلها خاضعة للملاحظة والتحقيق، وسنثبت ذلك فى كل مرحلة من مراحلها.

وتجرى قصة وجودنا الإنسانى، فى المنظور الإسلامى، على النسق التالى:

١- الخلافة على الأرض

تبدأ قصة الوجود الإنسانى بأن يخبر المولى ﷻ الملائكة، أنه سيجعل من أحد مخلوقاته خليفة له فى الأرض. معنى ذلك أن هذا المخلوق **سوف يتصرف فى الأرض بقدْر من الحرية والاقتدار**، يحدده المولى ﷻ:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ .. ﴾ [البقرة: ٣٠].

(١) عن كتاب المهندس الدكتور محمد الحسينى إسماعيل: الدين والعلم وقصور الفكر البشرى. عام ١٩٩٩ - مكتبة وهبة.

لم ترَ الملائكة فى هذا الكائن إلا مخلوقًا بدائيًّا يُفسِد فى الأرض، بل وتمنوا أن يحوزوا هذه المنزلة. فتعجبوا قائلين:

﴿من ..قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ ...﴾ [البقرة: ٣٠].

فيجيب المولى ﷻ الملائكة:

﴿... قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠].

ويُخبرنا الله ﷻ **أن الإنسان قَبِل الخلافة بمحض إرادته:**

﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

قَبِل الإنسان الأمانة (الخلافة - التكليف بأوامر الله ونواهيه - حرية الاختيار...)، لكنه **كان جهولًا** لأنه لم يولِ هذه القضية الاهتمام الكافى، **وكان ظلومًا** لنفسه لأنه لم يقبل الهداية والعون الإلهى للقيام بها على مدار حياته.

وخير دليل مادى على قبول الإنسان القيام بالخلافة فى الأرض، هو إقباله على ممارسة مهامها بحرية واقتدار.

٢- الإنسان كائن متكامل، ثنائى التكوين

جسد مادى وروح نورانى

﴿إِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن طِينٖ ٧١ فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ٧٢﴾ [ص: ٧١-٧٢].

ولا شك أن طبيعة الروح وكنهها بعيدة عن إدراك العقل، لذا استأثر الله بعلمها:

﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ٨٥﴾

[الإسراء: ٨٥].

ليس معنى الثنائية أن الروح هى جوهر الإنسان، وأن الجسد يمثل عَرَضًا زائدًا. بل إن الذات الإنسانية هى الشقين معًا. وقد برهنا على هذا الأمر فى الفصل السابق بالأدلة العلمية والعقلية والدينية.

٣- كائن يتميز بالعلم والتفكير

وتبدأ رحلة إعداد هذا الكائن البدائى للخلافة بالتعليم، الذى ميزه به الله على الملائكة:

﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [البقرة: ٣١-٣٣].

وآدم فى هذه الآية الكريمة، يمكن أن يشير إلى البشرية جمعاء. وتعليمه الأسماء، يشير إلى تعريفه بالأشياء كلها.

ثم تأتى مرحلة أخرى من التعليم:

﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾ ﴾ [الرحمن: ٣-٤].

والبيان هو النطق مع إدراك العلاقة بين الأشياء بعضها ببعض، وذلك هو التفكير.

٤- كائن على وعى فطرى بوجود الله

قام الله ﷻ بذاته بغرس الإدراك الفطرى بربوبيته فى الإنسان، دون وساطة من مَلَك مُكَرَّم أو نبى مُرْسَل:

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

وسواء يحدث ذلك حين يكون كل إنسان من البشر فى طور النطفة (البويضات والحيوانات المنوية)، أو فى يوم أخرج الله ﷻ فيه ذرية آدم كلها قبل الخلق وأشهدهم على ربوبيته، فقد أصبح من خصائص النفس البشرية الوعى الفطرى بوجود الإله الخالق.

٥- ويسعى نحو العبادة

كذلك يؤهل المولى ﷻ الإنسان للعبادة، ويجعلها ميلًا فطريًا لديه:

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الذاريات: ٥٦].

لكن الإنسان لا يدرى ماذا يعبد، ولا كيف يعبد، لذلك تتباين صور العبادات إلى حد كبير. فهؤلاء يعبدون الأصنام والأشجار والحيوانات والأسلاف، وهؤلاء يعبدون الله تبعًا لمفاهيم قد حُرِّفت، حتى ينتهى الإنسان إلى العبادة الصحيحة طبقًا لدين الإسلام.

ولا ينافى ذلك عدم عبادة الملاحدة لإله، فوجود الفطرة لدى الإنسان لا يُلزم أن يتجاوب الإنسان معها، فقد يطمسها كِبر أو عناد أو جهل. لكن خضوعًا للفطرة يمارس هؤلاء «العبادة المستترة» فى شكل اهتمام مبالَغ فيه بفلسفة أو علم أو رياضة...

٦- كائن يملك الفطرة الأخلاقية

وحتى يعيننا الله على فعل الخير ونبذ الشر لم يتركنا لتفكيرنا، بل جعل الخير واضحًا والشر واضحًا أمام النفس البشرية.

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ ﴾ [الشمس: ٧-٨].

٧- كما أودَع فى فطرته «قانون الخلاص»

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ ﴾ [الشمس:٩-١٠].

يدور قانون الخلاص حول «حرية الاختيار»، المبدأ المحورى فى الإسلام، والذى يتنكر له بعض الجبرية المنحرفين الذين يُسقطون مسئولية الإنسان عن أفعاله، ومن ثم يعفونه من الجزاء! ومن بديهيات العقل أن يطالبنا الخالق لفطرتنا الأخلاقية بالالتزام بها.

٨- وعَرَّفه طبيعة الحياة الإنسانية فى هذا الكون المادى

لقد جعل الله ﷻ الإنسان فى هذه الحياة الدنيا على حال من المشقة والمعاناة:

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾ ﴾ [البلد: ٤].

ولا شك أن الكَبَد سمة من سمات الوجود الإنسانى، فالمؤمن يعانى والكافر يعانى:

﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ ﴾ [النساء: ١٠٤].

والطريق لتخفيف هذه المعاناة وتحقيق السعادة، هو اتباع الإنسان لهدى الله:

﴿ ... فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ ﴾ [طه: ١٢٣-١٢٦].

ولا شك أن من المصائب ما هو قَدَرِىٌّ، لهذا ينبغى الاعتدال فى كل الانفعالات، وألا نترك هموم الحياة تعتصرنا:

﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الحديد: ٢٢-٢٣].

أليس فى هذا الفهم البسيط الواضح لطبيعة الوجود الإنسانى فى كوننا المادى تفسير لمعضلة الشر والألم، التى قادت الكثير من الفلاسفة إلى الإلحاد؟

٩- لا فضل!

لا شك أن قوة ووضوح الدوافع الفطرية السابقة كافٍ لأن تجعل الإنسان يَقْبل أى دين تربى على اعتناقه ! ما دام أنه يُشبع فيه هذه الفطرات، حتى وإن كانت نصوصه مليئة بالخرافات والوثنيات الفكرية والأساطير !

إن ذلك يعنى أن الإنسان مستعد **لأن يضحى بعقله ومنطقه، عن أن يضحى بالدين والعبادة التى نشأ عليها**، والتى تغذيها عمليات غسيل المخ طويلة المدى التى يقوم بها الكهنة ورجال الدين فى جماعته.

والمدهش أن معظم علماء الأديان والنفس والأجناس (الأنثروبولوجيا) يتنكرون لهذه

الفطرات السابقة، ثم يلجأون إلى وضع فرضيات خاطئة حول دوافع الإنسان الذاتية لتبنى العقائد الدينية وقيامه بالعبادة على نحو أو آخر !

١٠- غاية الغايات من الخلق

لكن الفطرة غير كافية لأن يدرك الإنسان كل غايات وجوده. هنا يبرز دور **العقل الذى يخاطبه الله** ﷻ ليحدد له مقاصده وغاياته من خلقه، والتى تتلخص فى قوله تعالى:

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ... ﴾ [الإسراء: ٢٣].

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الذاريات: ٥٦].

والغاية القصوى من العبادة هى **معرفة الله ﷻ حق المعرفة.**

ويقوم الله ﷻ **بإخبار الإنسان بالغايات من خلقه عن طريق الأنبياء والرسل** الذين يصطفيهم من عباده، والذين قامت على صدقهم الأدلة التاريخية بجانب الأدلة الدينية.

﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ ﴾[النساء: ١٦٥].

١١- التكليف والاختبار فى حدود قدرات الإنسان

﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [النساء: ٢٨].

بل عندما استشعر المسلمون مشقة بعض التكاليف، أنزل الله ﷻ حكمه بالتخفيف ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

١٢- اختبار ينتهى بالموت، ومن دور واحد

والاختبار هو **تعريض الإنسان للخير وتعريضه للشر** أثناء حياته الدنيا، ليرى الله ﷻ كيف نسلك:

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

[الأنبياء: ٣٥٥].

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ﴾ [الملك: ٢].

وليس هناك مجال لفرصة أخرى.

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [المؤمنون: ٩٩-١٠٠].

مرة أخرى: **إن إدراك الغايات من خلق الإنسان وابتلائه بالشر، يحل معضلة الشر والألم التى حيرت الفلاسفة**، ودفعت الكثيرين منهم إلى الإلحاد.

١٣- الخلاص الإنسانى

إن حياة الإنسان **وجود متصل خالد، فلا موت بالمعنى المألوف**، بل انتقال من وجود إلى وجود، تفصل بينهما لحظة الموت. وهذا شعور فطرى آخر! تجمع عليه الأديان، ويتمثل فى رفض النفس البشرية أن يكون مآلها إلى العدم.

﴿ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ ﴾ [الواقعة: ٨٣-٩٤].

١٤- المُنتَهى

ويَجِدّ الإنسانُ فى السير إلى الله ﷻ، بفعل الخير ونبذ الشر، **فهذا هو طريق الخلاص والوصول إلى الله**، وهذه هى النتيجة الحتمية لمراحل الرحلة السابقة.

﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ ﴾ [النجم: ٤٢].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴿٦﴾ ﴾ [الانشقاق: ٦].

ويؤكد الله ﷻ أن الإنسان فى تقلباته بين السراء والضراء، إنما هو سائر فى الطريق إليه، سواء وعى ذلك أم لم يعِ. إن من لم يعِ يعتقد أنه يفعل الخير استجابة للفطرة الأخلاقية فقط.

إنها قصة الوجود الإنسانى كما يعرضها القرآن الكريم، والتى تصبح بجوانبها المشهودة والغيبية فى منزلة الحقيقة العلمية المطلقة. وقد رأينا الدليل المادى والبرهان العقلى على كل مرحلة من مراحلها.

القارئ الكريم...

يدور حديثنا عن رؤية الإسلام للعلاقة بين الإنسان والدين حول فطرية الشعور بوجود الله، ثم يأتى الوحى مخاطبًا العقل، ليؤكد ويُفَصِّل هذه الحقيقة أولًا، ثم ليُبَيِّن للإنسان دوره فى هذا الوجود.

مع سورة النور:

ولعل من أفضل ما قيل عن تلاقى الوحى والفطرة، ما ذكره الدكتور فاروق الدسوقى فى كتابه «القضاء والقدر فى الإسلام[1]»، الذى ننقل لك بعضًا منه فى معنى الآية ٣٥ من سورة النور:

﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾ [النور: ٣٥].

يقول د. الدسوقى مسترشدًا بما قاله أُبي بن كعب[2]: بدأ الله بنور ذاته، ثم ذكر **النور الذى أودعه فى قلب المؤمن، وشبهه بالمصباح فى قنديل من الزجاج الصافى داخل مشكاة (كُوَّة فى الحائط، تُجَمِّع الضوء).**

(١) أعد الدكتور فاروق الدسوقى هذه الدراسة توطئة للحصول على ماجستير الفلسفة الإسلامية عام ١٩٧١، ثم طُبعت عام ١٩٨٤ فى كتاب من ثلاثة أجزاء. وقد حصل الكتاب على جائزة الملك فيصل العالمية.
وقد شغل د. فاروق الدسوقى منصب أستاذ الفلسفة الإسلامية بجامعة الإسكندرية، وأستاذ العقيدة والثقافة الإسلامية بجامعة الملك سعود.

(٢) ابن قيم الجوزية: مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ص ٣٦٦.

ويضيف د. فاروق الدسوقى: أن هذا النور ليس آتيًا من خارج، فزيته المضىء من زيتونة من عالم خارج عالمنا ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾، إنه نور الفطرة التى أودعها الله ﷻ فى قلب الإنسان يوم الإشهاد. إن نور الفطرة كافٍ وحده لهداية الإنسان لرب الكون ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ﴾ حتى ولو لم تأته الرسالات السماوية ﴿وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾. فإذا ما جاء الوحى، وهو نور تطابقت معرفته وحقائقه مع معرفة وحقائق الفطرة، أضحى ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾، وحصل فى النفس اليقين الذى لا يدانيه يقين.

مع أبى الأنبياء...

وفى ضوء هذا المفهوم، يقف د. فاروق الدسوقى متأملًا موقف أبى الأنبياء إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ كما ورد فى سورة الأنعام:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأنعام: ٧٤-٧٩].

كان إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ منكرًا للأصنام ومؤمنًا بفطرته (دون برهان أو استدلال) بوجود خالق عظيم مدبر لهذا الكون، ومن ثَمَّ شرع فى البحث عن معرفته، وكلما دله عقله على شىء ليتخذه ربًّا وإلـهًا، عاد ورفضه بالفطرة والعقل، فاستبعد الكواكب ثم القمر ثم الشمس. وكانت نتيجة محاولة الوصول إلى الله بالدليل والعقل الفشل والتسليم بالعجز، فرجع من حيث بدأ، وعاد إلى فطرته، وهى الإيمان بوجود خالق له وللكون، مع العجز عن الوصول إلى أكثر من هذه المعرفة العامة الشاملة المُبْهمة.

عندئذ فَرَّ إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ إلى ربه ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾ وأعلن ﴿يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾. لقد عجز عن الوصول إلى المعرفة الكاملة

بالعقل، وأدرك احتياجه إلى إمداد من ربه ليُعَرِّفه بأسمائه وصفاته، وليُعَرِّفه حقائق الكون، والحكمة من الخلق، وحقائق الغيب، وكيفية التقرب إلى الله وعبادته.

لذلك عاد إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ مسرعًا إلى فطرته التى بدأ منها، مفضلًا ذلك على الركون إلى ضلالات قومه التى توقعه فى الشرك ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، وصبر حتى جاءته هداية الله فيما بعد عن طريق الوحى.

ونستكمل الرحلة: المنهج...

إذا كان أبو الأنبياء، إبراهيم عليه الصلاة والسلام، عانى الكثير فى رحلته إلى الله، فنحن نبدأ من حيث انتهى.

لقد شاءت إرادة الله ﷻ، أن نأتى إلى الدنيا بعد أن أضاءها نور الوحى. **لقد أصبح دورنا إعمال العقل فيما لدينا من آيات:**

آيات كتاب الله المقروء: القرآن الكريم.

آيات كتاب الله المنظور: الآفاق والأنفس.

وقد بَيَّنَّا فى الفصل الثامن، تحت عنوان (إلحاد فى أسوأ حالاته – عاشرًا)، المنهج الذى نستطيع عن طريقه الوصول إلى الله، الذى لا تدركه الأبصار، والذى ليس كمثله شىء.

إنها ثلاث كلمات فيها النجاة: الفطرة – العقل – الوحى.

فسبحان الذى هدانا لنوره...

فاجتمع نورٌ على نورٍ... على نور.

الفصل العاشر

بين وحين

حىّ بن يقظان

تُعتبر قصة حى بن يقظان من أشهر القصص التى شغلت العقل العربى المُسلم؛ إذ إن للقصة رواجًا كبيرًا بين الفلاسفة والمتصوفة وعاشقى الأدب العربى[١].

ترجع قصة حى بن يقظان التى كتبها الفيلسوف الأندلسى ابن طفيل[٢] إلى القرن الثانى عشر الميلادى، أى تسبق رحلة أنتونى فلو العقلية بأكثر من ثمانية قرون.

وإذا كان أنتونى فلو يصف رحلته من الإلحاد، إلى القول بوجود الإله الخالق، بأنها «رحلة عقل»، فكذلك كانت قصة «حى بن يقظان». ففى القصة يعرض ابن طفيل كيف تمكن العقل الفلسفى المسلم من التوصل إلى وجود الإله الخالق وإلى بعض صفاته. وزاد على ما توصل إليه أنتونى فلو بأن حدد كيف تكون العلاقة بين الله وبين الإنسان. كما تقارن القصة بين ما توصل إليه العقل المُنَزَّه عن الهوى وبين ما أتى به الوحى السماوى.

(١) كُتبت القصة (بتناول مختلف) أربع مرات. كان أولها ما كتبه الشيخ الطبيب الفيلسوف ابن سينا (المتوفى عام ٤٢٨هـ). ثم كتبها الصوفى المتفلسف شهاب الدين السهروردى (المقتول عام ٥٨٧هـ). وبعدها بقرابة قرن من الزمان كتبها الفيلسوف الطبيب ابن النفيس (المتوفى عام ٦٨٧هـ). والصياغة الرابعة (وهى أشهرها) التى نتناولها فى هذا الفصل.

(٢) أبو بكر محمد بن عبد الملك بن محمد بن طفيل، الفيلسوف الأندلسى (٥٠٤ - ٥٨١ هـ)=(١١٠٥-١١٨٥م).

وأعرض القصة هنا تلخيصًا وتبسيطًا عن كتاب «قصة الإيمان» للشيخ الفيلسوف نديم الجسر مفتى طرابلس بلبنان. ويدور الكتاب على هيئة حوار بين الشيخ «الموزون» (الذى يشير فى الحقيقة إلى مؤلف الكتاب) وبين تلميذه الباحث عن الحقيقة «حيران بن الأضعف»[1].

يقول الشيخ الموزون لتلميذه حيران بن الأضعف

ليس فى قصة (حى بن يقظان) يا حيران من الخيال إلا اسم البَطَل ومسرح الأحداث. ولو أبدلت عنوان القصة بكلمة (العقل)، واعتبرت أن الجزيرة النائية التى تدور فيها الأحداث هى عالمنا الذى نعيش فيه، **لانقلبت القصة واقعًا صحيحًا، ليس فيه أثر للخيال.**

حيران: وكيف ذلك يا مولاى؟

الشيخ: إن القصة هى **«رحلة العقل» فى أى مكان وأى زمان، عندما يترقى فى مسالك المعرفة ومراتب الفلسفة، حتى يعرف الله والحق والخير والجمال.**

وقبل أن أحكى لك القصة يا حيران، أضع أمام عينيك أهم المفاهيم التى أراد ابن طفيل أن يبسطها فى ثنايا قصته، لتدرك ما بين السطور من مقاصد وأفكار.

لقد أراد ابن طفيل أن يبين فى قصته المفاهيم الآتية :

أ- **يتدرج العقل الإنسانى، فى سلم المعرفة**، من (المحسوسات الجزئية) حولنا، إلى (الأفكار الكلية). كأن يدرك العقل من خلال مواقف متعددة تقابلنا فى الحياة حقيقة «هناك إله».

ب- **العقل الإنسانى قادر، من غير تعليم ولا إرشاد على إدراك وجود الله، من خلال آثاره فى الوجود، وقادر على إقامة الأدلة الصادقة على ذلك.**

(١) الأسماء فى قصة «حى بن يقظان» وفى «قصة الإيمان» ذات دلالات رمزية.
فبطل القصة الأولى، يشير اسمه «حى بن يقظان» إلى القلب الحى والعقل اليقظ.
كما تَظهر شخصية «أبسال» قرب نهاية القصة. من البسالة والجرأة فى الغوص وراء المعانى فى القرآن الكريم عند البحث عن الحقيقة.
كما يرمز اسم الشيخ «الموزون»، بطل قصة الإيمان، إلى التزام الطريق الوسط الذى يجمع بين الشريعة والحقيقة. بينما يرمز اسم تلميذه «حيران بن الأضعف» إلى ما يعانيه الباحث عن الحقيقة من حيرة وانكسار حتى يصل إلى غايته.

جـ- أن هذا العقل **قد يعتريه العجز عندما يريد «تصور» بعض المفاهيم**، مثل الأزلية المطلقة، والعدم المطلق واللانهاية والزمان والقِدَم والحدوث. وإن كان العقل يستطيع من خلال الأدلة المنطقية «إدراك» هذه المفاهيم. وهذا ما يسميه الفلاسفة: **الفرق بين «التَصَوُّر» «والتَعَقُّل أو الإدراك»**.

د- سواء تَرَجَّح لدى العقل **قِدَم العالم** (أزلى لا بداية له) **أو حدوثه** (له بداية)، **فإن كلا الاعتقادين يشير إلى وجود الله ﷻ**.

هـ- **أن الإنسان قادر، بعقله، على إدراك أسس الفضائل وأصول الأخلاق العملية والاجتماعية.** وقادر كذلك على إخضاع شهواته الجسدية لحكم العقل، من غير إهمال لحق الجسد أو إفراط فيه.

و- **يلتقى ما يدركه العقل السليم (بدون وحى سماوى) مع منهج الإسلام** عند نقاط واحدة بلا خلاف.

ثم يبدأ الشيخ الموزون فى حكاية القصة لتلميذه حيران

يصور لنا ابن طفيل **طفلًا** رضيعًا **أسماه** (حىّ بن يقظان)، **أُلقِىَ** به فى جزيرة خالية من الناس، فحَنَّت عليه ظبية فقدت صغيرها، فأرضعته وتعهَّدته، حتى كبر وتعلم أصوات الحيوانات.

ورأى الطفل الظبية كاسية مسلحة وهو عار أعزل، فاتخذ من الورق والريش سِترًا وكساءً، ومن العصىَ سلاحًا.

ثم ماتت الظبية، فهاله سكوتُها وسكونُها، **وأراد أن يعرف عِلَّتها**. وعندما تأملها لم يجد فى ظاهرها تغيرًا، فرَجَّحَ **أن العِلَّة** فى عضو محجوب عن بصره. فشق صدرها حتى وصل إلى قلبها، فلم يجد فى ظاهره آفة، فلما شَقَّه وجد الغرفة اليسرى من القلب خالية، فمال إلى أن الشىء الذى كان فى هذه الغرفة وارتحل عنها هو الذى أفقد الظبية حياتها. فأدرك أن **حقيقة الظبية هى ذلك الشىء المرتحل، وما جسدها إلا آلة**، وزاده يقينًا بهذا أنه رأى الجسد يُنتِن. ثم رأى غرابًا يوارى أخاه الميت، فوارى هو الظبية فى التراب.

ثم اكتشف النار، واستخدمها فى الإضاءة والتدفئة، وفى شىّ اللحوم وإنضاجها... وازداد تعجبه من هذه النار التى لها قدرات كثيرة. وخطر بباله أن الشىء الذى ارتحل من قلب الظبية وأدى إلى موتها قد يكون من جنس النار، فأخذ يبحث عن آثار النار بتشريح الحيوانات، فعرف الكثير من وظائف أعضائها.

وعندما بلغ العام الحادى والعشرين من عمره، أخذ يتأمل فى الكون، وما فيه من حيوانات ونباتات وجمادات، فرأى لها أوصافًا كثيرة وأفعالًا مختلفة، **فتكونت عنده فكرة (الكثرة)**. ثم رَأى أن **الثلاثة تتفق فى صفة (الوجود) وفى (الجسمية)** وإن اختلفت فى (الصورة)، فاعتقد أن **الكل شىء واحد، وإن عَمَّته الكثرة**، كما تكونت عنده فكرة **(حقيقة الشىء وصورته)**.

ثم عاد إلى الأجسام البسيطة، فرأى صورها تتغير. فالماء يكون ماءً، وقد يصبح بخارًا أو ثلجًا، ثم يرجع ماءً، فأدرك معنى **اختلاف الصور فى الشىء الواحد**. فأشرف بذلك على تخوم العالم العقلى.

ولاح له أن **روح الحيوانات شىء زائد على الجسمية**، وتتميز به على النباتات والجمادات، وأنه هو الذى يوجه سلوكها، ويفهم ما بداخل الحيوان وما حوله، فعظُم فى عينه أمر (الروح)، وعلم أنها أعظم وأسمى من الجسد الفانى.

ثم أخذ **يفكر فى أصل الأشياء**، فلاحظ أن أبسطها هى التراب والماء والهواء والنار. فَرَجَّح أن هذه العناصر الأربعة **هى أصل الوجود**.

وأدرك من كل ما مر به أن كل حادث لا بد له من مُحْدِث. ومن ثم فإن الأفعال المنسوبة إلى الأشياء، ليست فى الحقيقة لها، وإنما هى لفاعل يفعل بها. واشتاق إلى معرفة هذا الفاعل، فأخذ يبحث عنه بين المحسوسات، **فوجد أن جميعها حادثة وتحتاج إلى مُوجد، فأهملها كلها**.

وانتقل إلى الأَجرام، وتفكر فيها وتساءل: هل أى منها ممتد إلى ما لا نهاية، فى الزمان وفى المكان؟ ثم لاحظ أنها تأفل فى النهار وأنها محدودة مكانًا، فأدرك أن جسمًا لا نهاية له زمانًا ومكانًا شىء غير ممكن ولا يُعْقل(١).

(١) يخبرنا المتخصصون فى الفنون الجميلة أن أى جسم لا بد أن يحيط به فراغ من أجل أن نكون قادرين على إدراكه ورؤيته. ومن ثم، لا يمكن أن يمتد جسم إلى ما لا نهاية.

ثم فكر فى العالم بجملته، هل هو شىء حدث بعد أن لم يكن، وأنه خرج إلى الوجود بعد العدم، أم كان موجودًا أزلًا ولم يسبقه العدم؟ ولم يترجح عنده أى الحُكْمين.

فالقِدَم مستبعد لاستحالة وجود موجود لا بداية له.

وكذلك (الحدوث) مستبعد، لأن نشأة الوجود بعد أن لم يكن، يتطلب وجود زمان يسبقه، والزمان جزء من الوجود فلا يمكن أن يتقدمه. وترجيح الحدوث يطرح تساؤلًا صعبًا: لِمَ أوجد المُحدِثُ الوجودَ الآن، ولم يوجده قبل ذلك؟ أَلِطارئ طرأ على المُحدِث؟ كيف ذلك ولم يكن هنالك شىء يمكن أن يطرأ.

وأخذ (حيٌّ) يفكر، ما الذى يلزم عن كل واحد من الاعتقادين؟ فرأى أن حدوث العالم يلزمه وجود فاعل يُخرجه من العدم إلى الوجود. ولا ينبغى أن يكون الفاعل جسمًا، لأنه لو كان جسمًا لاحتاج إلى مُحدِث، ولو كان المحدِث الثانى جسمًا، لاحتاج إلى مُحدِث ثالث، والثالث إلى رابع، ويتسلسل ذلك إلى غير نهاية، وهذا مستحيل.

وإن اعتقد قِدَم العالم، فمعنى ذلك أن حركته قديمة، وكل حركة لا بد لها من قوة تحدثها، والقوة تسرى (أو تؤثر عن بعد) فى الأجسام، لذلك لا بد أن يكون مصدر القوة بريئًا عن المادية وعن صفات الأجسام، وأن يكون سابقًا عليها، وألا يكون فى حاجة إلى مُحدِث.

انتهى نظر (حى بن يقظان) إلى أنه سواء كان العالم قديمًا أو مُحدَثًا، فإنه يتطلب وجود مُحدِث أو محرك قديم أزلى. وأنه يتوجب، عقلًا، لهذا الخالق العظيم جميع صفات الكمال، من علم وقدرة وإرادة واختيار ورحمة وحكمة.

ولما حصلت له المعرفة بهذا الخالق العظيم، أراد أن يعرف بأى شىء عرفه، فلم يجد فى الحواس وسيلة لإدراكه؛ إذ إنها تدرك الأجسام، وهو برىء من صفات الأجسام، فتبين له أن ذاته التى أدرك بها الخالق ليست بجسم.

ثم رجَّح أن هذه الذات البريئة من الجسمية لا يعتريها الفناء، وأنها ستبقى فى حياة خالدة، مُنَعَّمة أو معذبة، بحسب ما كان لها من الإقبال على ملاحظة خالقها ومراقبته فى الحياة قبل الموت، فبدأ يفكر فى طريقة ينظم بها حياته لينصرف إلى التأمل فى هذا الخالق العظيم.

ولما نظر إلى نفسه، وجد فيها شيئًا من صفات الحيوان، وهو الجسد المادى، الذى يطالبه بالمتع الحسية. وعلم أن هذا الجسد لم يُخلق له عبثًا، وأنه يجب عليه أن يُصلح من شأنه. ورأى أنه

يشبه، من جهة ثانية، الكواكب، من حيث أن لها أجسامًا، وشعر أنها قريبة فى السماء من الخالق. ورأى من جهة ثالثة أنه بجزئه الأشرف، الذى عرف به (الخالق واجب الوجود) فيه شبه ما منه، فصمم على التشبه بهذه الثلاثة (الحيوانات - الكواكب - الله).

فأخذ يتشبه بالحيوانات، بفعل ما يضمن صلاح جسده وبقاءه بقدر الضرورة والكفاية. فاقتصر على التغذى بالنباتات، وإن لم يجدها أكل من الحيوانات، على شرط أن يحافظ على بذور النبات، وأن يختار من الحيوانات أكثرها وجودًا، حتى لا يستأصلها.

كما أخذ يتشبه بالأجرام السماوية، من حيث إنها شفافة ومنيرة وطاهرة، ومن حيث إنها تعطى ما حولها النور والحرارة، ومن حيث كونها قريبة من (واجب الوجود)، وتتصرف بحكمته، ولا تتحرك إلا بمشيئته. فألزم نفسه بالطهارة والنظافة فى جسده ولباسه. وألزم نفسه ألا يرى ذا حاجة أو عاهة أو مَضَرَّة، من الحيوان والنبات، إلا وسعى فى إزالتها، فمتى وقع بصره على نبات قد حجبه عن الشمس حاجب، أو تعلق به نبات آخر يؤذيه، أو عطشَ عطشًا يكاد يفسده؛ أزال عنه ذلك. ومتى وقع بصره على حيوان قد أرهقه سَبع، أو تعلق به شوك، أو مسه ظمأ أو جوع؛ تكفل بإزالة ذلك. ومتى وقع نظره على ماء يسيل إلى سقى نبات أو حيوان، وقد عاقه عن مساره عائق؛ أزاله.

كذلك ألزم نفسه التحرك فى حركات دائرية مثل الكواكب، فكان يطوف بالجزيرة ويدور على ساحلها أو فى بيته دورات متعددة، إما مشيًا أو هرولة. وأثناء ذلك يستغرق فى التفكير فى واجب الوجود، ويحاول أن ينقطع عن عالم المحسوس، مستعينًا على ذلك بسد حواسه، ليتمكن من مشاهدة الموجود الواجب الوجود.

وللتشبه بالله، رأى حى بن يقظان أنه ينبغى أن يكتسب من صفات الله صفة العلم، وأعلى مستوياتها أن يعرف الله ولا يشرك به شيئًا. كما رأى أنه ينبغى أن يتنزه عن الجسمية، فانقطع عن الطعام والشراب فترات طويلة، يظل خلالها منقطعًا إلى التفكير فى الله، فكانت تمضى أيام وهو مستسلم فى هذه الحالة التى تشبه الغيبوبة.

ثم ينتقل ابن طفيل، فى القصة، إلى وصف جزيرة قريبة من جزيرة حى بن يقظان، فيها قوم يدين بعضهم بالإسلام، وكان من المؤمنين بهذا الدين والساعين للتفقه فيه فتى يُدعى (أَبْسال).

ارتحل (أبسال) إلى الجزيرة التى فيها حى بن يقظان، ليعتزل الناس وينقطع إلى العبادة، فلما سمع (حىٌّ) قراءة أبسال للقرآن، ورأى صلاته وتسبيحه ودعاءه، **أدرك أنه من العارفين بالله**، وإنْ لم يفهم ما يقول.

وعَلَّم (أبسال) حيًّا النطق والكلام. وأخبر (حىٌّ) صديقه الجديد بتاريخ حياته، وكيف أنه ترقى بالتفكير حتى انتهى إلى معرفة الله تعالى. فلما سمع منه (أبسال) وصفه لذات الحق، لم يَشُك فى أن **جميع الأمور التى وردت فى عقيدته، هى نفس ما عرفه حىٌّ بن يقظان وأدركه بعقله ومجاهدته.**

ولما أخبر (أبسال) صديقه (حيًّا) بما ورد فى عقيدته، لم يرَ (حىٌّ) فيه شيئًا على خلاف ما شاهده وعَرِفه بنفسه وأدرك **أن الذى جاء بهذا الدين رسول صادق من عند ربه**، فآمن به وصَدَّقه وشهد برسالته. ثم تعلم ما جاء به هذا الرسول من أمر ونهى والتزم العمل به.

وبقى (حىٌّ) مع صاحبه (أَبْسال) فى الجزيرة المعزولة يعبدان الله تعالى، حتى أتاهما اليقين.

القارئ الكريم...

هكذا اهتدى حى بن يقظان بفطرته وعقله إلى وجود الله ﷻ، وأنه خالق للكون، وأنه يتوجب له - عقلًا - كل صفات الكمال، وتعلم - بقدر المستطاع - كيف يتقرب إلى الله ﷻ.

ثم يجد (حىٌّ) ذلك مطابقًا للدين الذى جاء به الرسول ﷺ، **فتطابق عنده المعقول والمنقول، واجتمع عنده الوحيان: وحى العقل ووحى السماء.**

وبذلك اكتملت رحلة (حىٍّ) إلى الله، وأيقن بالرسالات، وما تطرحه من غيبيات، كالبعث والحساب والجزاء. وهو ما لم يستطع أنتونى فلو وغيره من أنصار الدين الطبيعى الوصول إليه.

إنه نور على نور: الوحي والعقل

وفى قصة خليل الله إبراهيم عليه السلام

نور على نور: الوحي والفطرة

ويعطينا الله عز وجل فى هذا العصر نور العلم

لتصبح رحلة الإيمان فى كمالها

نورٌ على نورٍ على نورٍ على نور.

حصاد الرحلة

لا شك أن «رحلة عقل» مع الإلحاد والإلوهية والأديان، مع الفطرة والوحى والبرهان، **هى رحلة كل إنسان يُعمل عقله، متفكرًا فى مصدره وحياته ومآله.**

فكل ذى عقل تلح عليه الكثير مما عرضنا من التساؤلات، سواء كانت مُنطلقاته دينية أو إلحادية. وقد يطوى الإنسان صفحة هذه التساؤلات سريعًا، أو يقف أمامها متفكرًا ومتأملًا، يدفعه إلى ذلك رغبة لا تُقاوَم للوصول إلى الحقيقة، ليس فقط إشباعًا لنهمٍ علمى معرفى، ولكن **لأن قضية الوجود الإلهى والغاية من وجودنا وتحقيق الخلاص مفطورة فى نفوسنا، وينبغى أن تكون غاية الغايات.**

وعندما بدأت السير فى هذه الرحلة، وعند التأمل فى كل فكرة من أفكارها **كان لَدَىَّ الاستعداد الكامل لأن أتبنى وجهة النظر المقابلة، مهما كانت التبعات.** فلا ينبغى أن نكون أقل حرصًا على الحقيقة من أنتونى فلو حين اتبع قاعدة سقراط فى **«أن نتبع البرهان إلى حيث يقودنا»** وأحسب أن البرهان قد قادنا إلى اليقين الكامل.

مع أنتونى فلو

وفى الجزء الأول من «رحلة عقل»، عرضنا رحلة أستاذ الفلسفة البريطانى سير أنتونى فلو، حتى وصل إلى القول بأن «هناك إله»، بعد أن كان يوصف بأنه أشرس ملحد فى القرن العشرين.

ومن رحلة أنتونى فلو العقلية نخرج بهذه الأفكار:

أولاً: ملحد صغير فى بيت متدين، دون دوافع واضحة

ورث فيلسوفنا عن والده حب الحكمة وشغفه العقلى، ومنهجه التحليلى الدقيق فى البحث. ثم جاء دور رجال تميزوا بحرية الفكر، ليؤصلوا فيه هذه المفاهيم، منهم ناظر مدرسته وبعض أساتذته فى الجامعة. كذلك كان للجو الفكرى الحر الذى يموج به نادى سقراط بجامعة أكسفورد أثر كبير فى اتجاهه للتخصص فى الفلسفة.

يخبرنا أنتونى فلو أن هذه التنشئة دفعته إلى الاهتمام بعالم الفكر، لكنها لا تفسر بالتأكيد اتجاهه إلى الإلحاد. لذلك يقول أنه لا يعرف حتى الآن لماذا رفض مفهوم الألوهية!

ربما كانت «معضلة الشر والألم» هى أكثر القضايا التى وجهته إلى الإلحاد منذ سن الخامسة عشر؛ إذ لم يستطع التوفيق بين ما ينزل بالبشر من شرور وآلام وبين أن الله محب لمخلوقاته رحيم بهم.

ثانيًا: ألبس الإلحاد ثوبًا فلسفيًا منمقًا، لا يستحقه

فى سن السابعة والعشرين، نشر أنتونى فلو بحثه «زيف علم اللاهوت» الذى عرض فيه حججه الإلحادية، وفى الوقت نفسه، دعى إلى الحوار المستمر بين الفلاسفة والمؤمنين.

ثم دَعَا فى كتبه إلى اتباع المنهج العلمى فى تفنيد مفاهيم الدين والألوهية. كما طالب المتدينين بتقديم الأدلة على وجود الإله، بعد أن كانت المسئولية تقع على الملاحدة فى نفى الألوهية.

ثالثًا: حارس مرمى الإلحاد

أصبح أنتونى فلو حارس مرمى الإلحاد فى الغرب، فكان يدعى كثيرًا لإلقاء المحاضرات وإجراء الحوارات التليفزيونية. وكان آلاف المشاهدين يحضرون مناظراته مع المؤمنين، والتى كانت تُنقل عبر وسائل الإعلام.

وقد صارت كتبه وأبحاثه وحججه هى **جدول أعمال الملاحدة خلال النصف الثانى من القرن العشرين.**

رابعًا: خطوات من الإلحاد إلى الشك

ليس هناك خط فاصل واضح فى رحلة أنتونى فلو بين الإلحاد وبين تبنيه الإيمان بوجود الإله.

ويخبرنا أنتونى فلو **أن هذا التَحَوُّل تقف وراءه القفزات العلمية الهائلة**، التى حدثت فى النصف الثانى من القرن العشرين. لقد أكدت هذه الاكتشافات أن الكون والحياة، بما فيهما من تعقيد مذهل، لا يمكن إرجاعه إلى الصدفة والعشوائية، ولا بد أن يكون وراءهما إله حكيم قادر، وهى المفاهيم التى تتبناها «**حركة التصميم الذكى**» التى صارت تؤمن بأن «**أعظم الاكتشافات المبهرة للعلم الحديث هو اكتشاف أن هناك إلـهًا**».

خامسًا: من الشك إلى اليقين

ويفاجئ أنتونى فلو العالم ببيان أذاعته وكالة أنباء الأسوشيتد برس فى ديسمبر ٢٠٠٤، **أعلن فيه أنه قد صار يؤمن بإله خالق للكون**. وفى عام ٢٠٠٧، أصدر كتابه «**هناك إله**»، **يُفَصِّل** فيه رحلته، وأسباب إيمانه.

جاء فى الكتاب عن قناعات فلو الأخيرة:

«لقد صرت على قناعة كاملة **بأن الكون ظهر إلى الوجود عن طريق خالق ذكى**، وأن ما فى الوجود من **قوانين ثابتة متناغمة تعكس ما يمكن أن نسميه فِكر الإله.**

كما أؤمن **بأن نشأة الحياة والتنوع الهائل للكائنات الحية لا ينشأ إلا عن مصدر سماوى.**

لماذا أصبحت هذه قناعتى، بعد أن ظللت ملحدًا لأكثر من نصف قرن؟

إن العلم الحديث يُجلِّى خمسة أبعاد تشير إلى الإله الخالق:

١- الكون له بداية، وخرج من العدم

لقد كان لتَوَصُّل العلم أن للكون بداية (ترجع إلى ١٣,٧ مليار سنة) وأنه نشأ من عدم، **تبعات فلسفية ودينية لم يدركها العلماء الماديون** الذين توصلوا لهذه الحقيقة.

وأول هذه التبعات هو الإقرار بإله خالق للكون، بعد أن فشلت جهود العلماء والفلاسفة الماديين فى الوصول إلى نظرية مقبولة، تفسر البداية من عدم، بمعزل عن الإله الخالق.

٢- أن الطبيعة تسير وفق قوانين ثابتة مترابطة

لا شك أن الانتظام والاتساق فى سلوك الطبيعة (وهو ما يُعرف بالقوانين الطبيعية) يتطلب الإقرار بواضع لهذه القوانين، إلا أن الأكثر دلالة على الإله الخالق هو **أن هذه القوانين تشمل الموجودات كلها، وأنها مترابطة مع بعضها البعض، وأنه يمكن التعبير عنها بصياغات رياضية دقيقة لا تشغل أكثر من صفحة واحدة.**

٣- نشأة الحياة، بكل ما فيها من دقة وغائية، من المادة غير الحية

تشترك الكائنات الحية فى وجود هدف وغاية تجمعها، وهو **المحافظة على وجودها**، كما أن لكل وظيفة من وظائفها (كالحركة والتنفس) هدف يخدم هذا الهدف العام. **فكيف اكتسبت المادة غير الحية هذه الغائية؟**

كذلك تشترك الكائنات الحية فى وجود **نظام للتشفير ومعالجة المعلومات** (الدنا والرنا والبروتينات). ويحمل هذا النظام جميع صفاتنا البنائية والوظيفية، وينقلها إلى أجيالنا التالية، كما يوجه جميع العمليات الكيميائية اللازمة لحياة الخلية. **ويبلغ هذا النظام درجة هائلة من التعقيد فى بنيته وفى آلية عمله.**

والحياة ليست مجرد معلومات وتفاعلات كيميائية معقدة يوجهها نظام التشفير، لكن **الأصعب هو معضلة التشكيل**. فكيف يمكن أن تتحول كلمات نخطها على أوراق نَصِف فيها هيئة إنسان (مهما بلغت تفاصيلها ودقتها) إلى إنسان حقيقى (من لحم ودم !).

إن الصدفة والعشوائية وكذلك كل قوانين الطبيعة التى نعرفها، تعجز مجتمعة عن أن تفسر نشأة الحياة من المادة غير الحية.

٤- أن الكون، بما فيه من موجودات وقوانين، يهيئ الظروف المُثلَى لظهور ومعيشة الإنسان، وهو ما يُعرف بالمبدأ البشرى.

كلما زادت معارفنا عن دقائق بنية الكون، كلما تأكدت ملاءمتها لاحتياجات الإنسان. مما يشير إلى أن هذا الكون قد أُعِد لاستقبالنا.

إن ما وضعه العلماء والفلاسفة الماديون من تفسيرات لهذا التناغم مثير للسخرية، ويجعل **القول بالإله المُصَمِّم لهذا الكون أكثر قبولًا من الناحية العلمية !!**

٥- العقل، خصوصية الإنسان

إن قدرات العقل الإنسانى على التفكير المنطقى فى الأمور المادية وفى المفاهيم المجردة، وإدراك ما يحيطنا وما بداخلنا، وإدراك الذات، لا يمكن أن تكون صادرة عن المادة غير الحية، **ففاقد الشىء لا يعطيه.**

كما لا يمكن أن يكون مصدر تلك القدرات هو المخ البشرى! **إذ لا تستطيع اللغة الكهروكيميائية للمخ، والتى لا تزيد عن نشاط باقى الخلايا الحية، أن تقوم بكل هذه المهام،** وإنتاج كل ما تملكه الحضارة الإنسانية من إبداعات.

لقد أصبح لا مفر من اللجوء إلى عالم ما وراء الطبيعة لتفسير قدرات العقل الخارقة.

وترجع معظم المفاهيم الخاطئة عن العقل الإنسانى إلى تشبيهه بالكمبيوتر، لكن هناك **ثلاثة اختلافات جوهرية بين أدائنا وأداء الكمبيوتر:** فنحن نفعل ما نفعله عن قصد – ونحن مدركون لما نفعل – ونحن فاهمون لما نفعل. **إن ادعاء أن الكمبيوتر يفهم ما يفعل، تمامًا كالادعاء أن جهاز DVD Player يفهم ويستمتع بالموسيقى والأغنيات التى يذيعها!**

ويختم أنتونى فلو عرض حججه الإيمانية قائلًا:

ليست معطيات العلم الحديث فقط هى التى دفعتنى لتغيير قناعاتى، ولكنى أيضًا **أَعَدْتُ النظر فى البراهين الفلسفية التقليدية التى قادتنى من قبل إلى الإلحاد،** ثم طَبَّقت نفس القاعدة السقراطية المنهجية التى عشت عليها طوال حياتى الفلسفية:

«أن نتبع البرهان إلى حيث يقودنا»، فقادنى البرهان، هذه المرة، إلى الإيمان.

سادسًا: خاتمة المطاف

يخبرنا أنتونى فلو، أنه وإن كان قد صار مؤمنًا بالإله الخالق للكون، فإن هناك مفهومين يتبناهما منذ إلحاده، ولم يغير فيهما رأيه:

أولًا: يرفض فلو فكرة تَجَسُّد الإله المطلق فى هيئة بشرية (المسيح)، كما يعتقد المسيحيون.

ثانيًا: لم يتوصل فلو إلى أدلة عقلية وعلمية على التواصل بين الإله والبشر، عن طريق الوحى.

ومن ثم، يؤمن أنتونى فلو بالإله الخالق، ولا يؤمن بالأديان السماوية، ومن ثَمَّ يمكن اعتباره من **أنصار الديانة الطبيعية، وإن كان على استعداد للإيمان بالدين إذا توصل للدليل عليه.**

وفى ختام حصادنا للجزء الأول (تحليل كتاب هناك إله) نسجل لأنتونى فلو قوله:

لقد صرت أؤمن بإله واحد أحد

واجب الوجود

غير مادى، لا يطرأ عليه التغير.

مطلق القدرة، مطلق العلم

كامل الخير[1].

ويضيف فلو: **لقد أَنْجَزَت الفلسفة مهمتها الأساسية بنجاح عظيم عندما تَوَصَّلَت إلى تفسير نشأة الوجود بوجود الإله الخالق، الذى خلق الكون ليكون مُعَدًّا لاستقبال المخلوق العاقل الحكيم، الذى هو الإنسان.**

لقد كان توصلى إلى ذلك عن طريق العقل، دون الحاجة إلى تدخل غيبى خارق من وحى أو معجزات (كما يحدث فى الأديان السماوية)، **لقد كانت رحلة عقل وليست رحلة إيمان.**

* * *

(١) لا شك أن هذا الوصف للإله يتفق إلى حد بعيد مع عقيدة الأديان السماوية المُوَحِّدة.

ونستكمل الرحلة

واستكمالًا لرحلة أنتونى فلو التى توقفت عند الأديان السماوية، وضعنا الجزء الثانى من كتاب «رحلة عقل»، والذى سقنا فيه **الأدلة العلمية والمنطقية على التواصل بين الأرض والسماء وعلى صحة الدين الحق.**

ونخرج من حصاد هذا الجزء بالثمار التالية:

أولًا: البرهان الكونى حق Cosmic Argument

أثبت العلم أن كوننا له بداية، وأنه نشأ من عدم، بحدث يُعرف بالانفجار الكونى الأعظم، ومن ثم **لا بد له من موجد أول**. كذلك فإن ما عليه الكون من دقة تصميم وبناء هائلة، تؤكد أن **وراءه مصمم ذكى.**

وبالرغم من وجاهة هذا الاستدلال المنطقى، واعتماده على أرضية صلبة من العلم والفلسفة، فما زال هناك من يحاول التهرب من القول بمصمم ذكى قديم قادر، خلق الكون. **وتدور اعتراضاتهم حول النقاط التالية:**

١ - طرح البعض **تصورات تجمع بين أن لكوننا بداية، وبين أنه لا يحتاج إلى موجد أول!**

ومن أهم هذه التصورات نظرية «الكون المتذبذب»، ونظرية «الكون الأم». وقد اعتبرها المتخصصون **أقرب إلى الخيال العلمى منها إلى العلم**؛ إذ لا يدعمها أى دليل علمى.

٢ - بعد أن عجز الملحدون عن الوصول إلى أصل مادى أول لكوننا، لم يعد أمامهم إلا القول بأن **الكون يمكن أن ينشأ من العدم، دون سبب**. وقد ثبت خطأ كل التفسيرات التى قدموها.

كذلك فإن هذا القول يدمر العلم من أساسه، فالعلم يقوم على البحث فى العلاقة بين الحَدَث والمُسَبِّب، وهو ما يُعرف **بقانون السبب والنتيجة** The Law of Cause and Effect، وهو من البديهيات العقلية.

٣- بعد أن عجز الملاحدة عن تقديم تفسير مادى لنشأة الكون من عدم، التفتوا إلى مهاجمة **مفهوم الألوهية**، فقالوا:

- إذا كان لا بد من موجد أول للكون، **فهل من الضرورى أن يكون إلهًا؟**

وقد رأينا أن الصفات التى ينبغى أن تتوافر فى الموجد الأول (الأزلية – العلم – الحكمة – القدرة – اتخاذ القرار...) ترقى به إلى الألوهية، حتى وإن أسماه الملحدون «الطبيعة».

– إذا كان الموجد الأول إلهًا، فمن أوجده؟

إن من نبحث عنه هو الموجد الأول لكل الموجودات، ومن ثَمَّ لا ينبغى أن يكون له موجد، ومن ثَمَّ فالسؤال خطأ من الناحية العقلية والواقعية.

– يلجأ المتدينون إلى القول بالإله، كلما عجزوا عن تقديم التفسير العلمى لظاهرة من الظواهر، إنه إله سد الثغرات God of Gaps. ولا شك أن العلم سيقدم فى المستقبل التفسير المادى لبداية الكون من عدم.

وقد أثبتنا أن قولنا بوجود الإله ليس لسد نقص علمى مؤقت، ولكن لتفسير أمور أَقَرَّ العلماء أنها خارج تخصصاتهم، مثل ماذا كان قبل الانفجار الكونى الأعظم؟ وكيف دَبَّت الحياة فى المادة غير الحية.

بل يمكننا القول: إن الماديين أصبحوا يلجأون إلى «العلم» باعتباره «إله سد الثغرات»! إذ يَدَّعون أن العلم سيتوصل إلى تفسير كل القضايا الغيبية التى يعجز أمامها الفكر المادى.

ولا شك أن ما قدمناه من أجوبة على الاعتراضات الثلاث يُزيد من دلالة البرهان الكونى على وجود الإله الخالق، إلى مرتبة تصل إلى اليقين.

ثانيًا: المبدأ البشرى حق Anthropic principle

إن المتأمل لبنية الكون والقوانين التى تُسَيِّره، يدرك تمامًا أن الكون قد تم بناؤه على هيئة تجعله ملائمًا تمامًا لنشأة الحياة والبشر.

إن وجود الكون على هذه الهيئة، تَطَلَّب ضبطًا دقيقًا لعشرات من الثوابت الفيزيائية. مثل كتلة العديد من الجسيمات تحت الذرية وشحناتها وسرعاتها، كذلك قوى التجاذب والتنافر بين الأجرام الهائلة وأيضًا بين الجسيمات الدقيقة، وسرعة الضوء، وغيرها وغيرها.

إن أى خلل فى قيمة أحد هذه الثوابت، ما كان ليسمح باستقرار الكون، أو نشأة الحياة فيه.

كذلك فإن السمات الطبيعية لكوكب الأرض (قطره - جاذبيته - بعده عن الشمس - سرعة دورانه - ميل محوره - سُمك القشرة الأرضية - خصائص الماء...) مضبوطة بدقة تتناسب مع متطلبات نشأة الحياة واستمرارها، ونشأة الإنسان.

إن بناء الكون وكوكب الأرض على هذه الهيئة ليكونْ ملائمًا لنشأة الحياة والإنسان، وهو ما يُعرف بالتفسير الغائى للكون «Why ?»، لا يتعارض مع وجود التفسير الفيزيائى (الآلى) للظواهر الطبيعية «How ?». فكل ما حولنا تحكمه كلٌّ من الآلية والغائية، فنحن نبتلع الدواء ببعض الماء من أجل أن نحقق الشفاء.

ومما يزيد من حجية المبدأ البشرى، أن العالم ليس مجهزًا لخروج الحياة وحسب، ولكن لخروج كائنات حية ذكية منطقية (الإنسان). ومما يُزيد الحجية كذلك غزارة ما فيه من توافق مع احتياجات الكائنات الحية، وخاصة الإنسان ذا الاحتياجات النفسية والعقلية المتميزة، بالرغم من أن قدرًا أقل بكثير من هذا التوافق كان كافيًا لنشأة الحياة.

ثالثًا: علاقة الإنسان بالله علاقة فطرية عاطفية

المفاهيم الدينية عقلية، يمكن قياسها بموضوعية.

عقيدة واحدة، وصلت إلينا فى أكثر من مائة إصدار.

لجأ الإنسان البدائى إلى الأساطير، ثم إلى الفلسفة، لتفسير الظواهر الطبيعية المحيطة به، ثم للإجابة على تساؤلاته المعرفية الشاملة.

وكان وراء البحث عن أجوبة لهذه الظواهر والتساؤلات ثلاث فطرات زُوِّد بها الإنسان.

١ - الوعى الفطرى بوجود الله.

٢ - الشعور بالرغبة فى اعتناق دين ما، يدعم الإنسان فى حياته ويبين له مساره ومآله.

٣ - المنظومة الأخلاقية، وذلك خلافًا لما يدعيه البعض من أن المفاهيم الأخلاقية نسبية.

وتتفق جميع الديانات فى عدد من المفاهيم التى تُشبع هذا الجانب الفطرى فى الإنسان. ويفسر ذلك تمسك أتباع كل دين بدينه، حتى وإن احتوى على الكثير مما يتناقض مع العقل.

وبالرغم من ذلك، يمثل الدين بصفة عامة منظومة يمكن تقويمها بشكل موضعى، وذلك من خلال تقويم مكوناتها الثلاث الرئيسية (محتوى الرسالة - الرسـول - الإله). ومن ثَمَّ، يمكن الحكم بموضوعية على صحة أو خطأ الديانة المعنية بالدراسة.

رابعًا: الديانة الطبيعية: د. جيكل ومستر هايد

يرى أنصار الديانة الطبيعية أن الله قد خلق الكون، ووضع القوانين التى تُديره تلقائيًّا، أى أن الكون صار مكتفيًا بذاته، دون تدخلات من خارجه (كون مغلق).

وهذا المنظور، وإن كان يعترف بالإله الخالق، فإنه يستبعد الغيب وكل ما يتصل به عن الكون والوجود، ومن ثَمَّ ينزع القداسة عن كافة الظواهر بما فيها الإنسان. وتتفق الديانة الطبيعية فى هذا الجانب مع مفهوم العلمانية، الذى هو مفهوم سياسى اجتماعى دينى.

فالفكر العلمانى ينظر إلى الإنسان باعتباره جزءًا من الطبيعة، لذلك يستبعد العلمانيون الدين كمصدر للمعرفة والأخلاق وللقوانين، ويستنبطونها من تجارب الإنسان وخبراته الحياتية، وبالتالى يصبح الإنسان هو المُطلق بدلًا من الله ﷻ.

وينظر العلمانيون إلى الإيمان بالدين باعتباره انتحارًا متواصلًا للعقل البشرى، وقد فاتهم أن نيتشه كان يشير إلى الإيمان المسيحى، عندما أطلق هذه العبارة.

ويعتبر العلمانيون أن ما يشير إليه المتدينون باعتباره فطرة (الحس الإلهى والدينى والأخلاقى) إنما هى أمور مكتسبة عبر تاريخ البشرية، لتحقيق مصلحة الإنسان.

وفى النهاية، يعتبر العلمانيون أن الإنسان هو الذى ابتدع مفهوم الإله، ليرتكن إليه عند الضرورة، وهذا ما يقصده نيتشه بقوله: إن الإنسان هو الذى خلق الإله.

خامسًا: الألوهية والحس الدينى والمنظومة الأخلاقية مدموغة فى جيناتنا ولها مراكزها العصبية فى أمخاخنا

إذا كان علماء النفس يرون أن الإنسان كائن عاطفى بطبعه، ولديه ميل فطرى لتبنى المفاهيم الأخلاقية، وللاستجابة للمشاعر الدينية، فقد ثبت لعلماء البيولوجيا أن هذه الفطرات مدموغة فى جيناتنا.

وتؤكد **نظرية المزاجات والأخلاق** Entertainment and character inventory، التى تلقى قبولًا كبيرًا فى أوساط الطب النفسى هذا المعنى. فالنظرية تحدد عددًا من الاستعدادات التى تُوَرَّث من الآباء إلى الأبناء، ومنها **الاستعدادات لتجاوز الذات** Self-Transcendence والذى يشمل **الميول الدينية والروحية** Spiritual.

وبعد طرح النظرية بعشرين عامًا، حدد دين هامر مجموعة من الجينات تجعل الإنسان مستعدًّا لتقبل مفاهيم الألوهية والتدين. وأسماها **جين الألوهية أو جين الإيمان**.

وفى أوائل القرن الحادى والعشرين وصف هوارد جاردنر «الذكاء الروحى - الوجودى» كأحد أنواع الذكاء التى يتمتع بها الإنسان.

وقد توصل الباحثون إلى المراكز المخية المسئولة عن مشاعرنا الروحية والدينية. وهى موجودة **فى الجهاز الحوفى المسئول عن الانفعالات والمشاعر، وفى القشرة المخية** عند التقاء فصوص المخ: الجدارى والصدغى والخلفى.

وقد أدى هذا الفيض من المعلومات إلى **ظهور علم جديد يبحث فى الأصول المخية والعصبية للتدين**، أُطلق عليه اسم **Neuro-Theology**.

سادسًا: لم يعد القلب مجرد مضخة للدم
للقلب دور فى وظائف المخ العقلية والشعورية

حتى ربع قرن مضى، كانت علوم التشريح والفسيولوجيا تنظر إلى القلب باعتباره مجرد مضخة للدم، بينما تربط الديانات والحضارات القديمة وموروثات الشعوب بين القلب وبين التفكير والمشاعر.

وقد اهتم بعض العلماء ببحث هذا التعارض، فتوصلوا إلى عددٍ من **المفاهيم التى ستغير من نظرتنا إلى القلب بشكل جذرى**، ومن هذه المفاهيم:

١- **يعمل القلب كمغناطيس قوى ومولد كهربائى فعال**، ويؤثر المجال الكهرومغناطيسى للقلب على نشاط المخ الكهربائى. ويمتد هذا التأثير ليصل **إلى جذع المخ** (مركز التحكم فى الجهاز العصبى اللاإرادى)، **ولوزة المخ** (مركز الوظائف الانفعالية)، **والمهاد** (المحطة

الأولى للأحاسيس) وأخيرًا إلى القشرة المخية المسئولة عن نشاطنا الفكرى والشعورى والسلوكى. ومن خلال هذا التواصل يؤثر القلب على وظائف المخ المختلفة.

كما أثبتت القياسات الدقيقة، حدوث تداخلات بين المجالات الكهرومغناطيسية لقلوب أشخاص تفصل بينهم مسافة تصل إلى ثلاثة أمتار !!

وتحمل هذه الموجات الكهرومغناطيسية الكثير من المعلومات، مثلها مثل موجات التليفونات والراديو والتليفزيون والفضائيات والنت. ويعتقد الباحثون الكهرومغناطيسيون فى حدوث تبادل للمشاعر بين الأشخاص، بشكل سلبى أو إيجابى، من خلال تداخل هذه المجالات.

٢- للقلب مخ صغير! وهو قادر على تنظيم عمله بمعزل عن تحكم مراكز المخ (الكبير). بل ويشارك هذا المخ الصغير فى توجيه النشاط الكهربائى لأمخاخنا.

٣- يعمل القلب كغدة صماء تفرز عددًا من الهورمونات التى تشارك فى توجيه عمل المخ (بالإضافة لوظائفها الأخرى)، وأهمها هورمون التعاطف (الأكسيتوسين).

يشير اكتشاف هذه الوظائف إلى أن للقلب دورًا هامًّا فى الشعور وفى التفكير، لكننا لا نريد أن نقفز إلى استنتاجات نهائية. وإن كنا على يقين من أن الأبحاث البيولوجية الحديثة ستكشف النقاب فى المستقبل عن كيف يسلك الإنسان كمنظومة متكاملة من منظومات أصغر (الروح - النفس - العقل - الجسد) تقوم فيها الشفرة الوراثية والمخ، كما يقوم فيها القلب، بدور كبير.

سابعًا: أيها الإنسان... من أنت؟
لستَ مجردَ مواد كيميائية، ودوائر كهربائية.

عندما تصدى البيولوجيون الماديون لمعضلة «الذات الإنسانية»، استعملوا المنهج الاختزالى الذى يُشَرِّح الإنسان إلى أعضاء ثم أنسجة ثم خلايا. ثم إلى جزيئات فذرات فمكونات تحت ذرية، حتى لا يتبقى إلا مجالات الطاقة. لا شك أن ذلك أدى إلى اختزال الحياة (البيولوجيا) إلى المادة (الفيزياء)، وقبل هذه المرحلة تكون الذات الإنسانية قد اختفت، فلا يجدون إلا المادة.

وإذا كان البيولوجيون قد توصلوا إلى بنية الدنا DNA وآلية عمله المذهلة، فينبغى أن نعرف أن الدنا ليس هو الحياة. فالدنا ليس سوى الوصفة لما ينبغى أن تكون عليه بنية الإنسان. أما

كيف تُخرِج لنا هذه الوصفة إنسانًا من لحم ودم، وهو ما يُعرف بالتشكيل **Morphogenesis**، فلا ندرى.

وإذا كانت النبضات الكهروكيميائية للمخ هى آلية عمل المخ المادى، فإن ما نحسه من مشاعر، وكيف نفكر فى المفاهيم المجردة (كالحرية وإنكار الذات) لا تستطيع هذه النبضات أن تفسره. ومن ثم، فالصواب أن ننظر للإنسان باعتبار أن **له ذاتًا غير مادية، تمارس النشاطات العقلية المختلفة وتستعمل المخ كآلة لها.**

وقد اهتمت الأبحاث العلمية والفكر الفلسفى فى السنوات الأخيرة بالبحث عن الذات الإنسانية التى توجه نشاطات المخ العقلية والشعورية والدينية، وتبحث كذلك عن **أدلة بقاء هذه الذات بعد موت الجسم (الروح فى المنظور الدينى).**

يبدو أننا قد وصلنا إلى مفترق طرق، وأصبح علينا إما أن نقر بأن الذات الإنسانية يستحيل اختزالها إلى الكيمياء والفيزياء، ومن ثَمَّ **نطرق أبواب المعارف الدينية**، التى تحل لنا هذا اللغز، وإما أن **ينقلب العلم إلى وسيلة لإثبات أفكار مادية مسبقة**، بدلًا من أن يصبح هدفه هو البحث عن الحقيقة.

ثامنًا: العلم مطية الملحدين
ومحط اتهام المتشددين

تبلور فى الفكر الإنسانى اتجاهان متضادان تجاه ما يتكشف للعلم من مفاهيم. **اتجاه إلحادى اتخذ من العلم مطية يؤكد بها مفاهيمه، واتجاه متدين يرى أن الذات الإنسانية وجود غيبى لا يتواصل مع الوجود المادى للجسد.** ويرى هذا الاتجاه أن الربط بين الجينات والمخ والقلب وبين المشاعر الدينية والروحية يُعطى للملحدين الحجة لإنكار المنظور الغيبى للذات الإنسانية (الروح).

ولا شك أنه ينبغى وضع كل من الماديات والغيبيات فى موضعها، **ثم الربط بين الاثنين، ليس من باب التوفيق والتلفيق ولكن من باب الإقرار بالحقيقة.**

العلم المطية...

استغل الملاحدة الاكتشافات العلمية فى مجال الكون والحياة لادعاء عدم الحاجة إلى الإله، سواء فى نشأة هذه الظواهر أو فى استمرارها.

وتدور ردود «رحلة عقل» على حجج الملحدين حول أن العلم لا يُنْتَظر أن يتوصل لتفسير مادى للمُعضلات التى يطرحها الفلاسفة والعلماء المؤمنون (كخلق الكون من عدم، ومصدر الانتظام الدقيق للقوانين الفيزيائية، ونشأة الحياة فى المادة، وما يتمتع به العقل البشرى من قدرات مبهرة). لذلك فإن **قولنا بالإله الحكيم الخالق لا يرجع إلى جهل علمى سوف يزول فيما بعد، ولكن يرجع إلى عجز نهائى تام أثبته العلماء الماديون**، بل وطالب المنصفون منهم بأن تُتْرك هذه القضايا لأصحابها، الدين والفلسفة.

العلم فى قفص الاتهام...

وقد دارت ردود رحلة عقل على المتدينين والمتشددين المتهِمين للعلم، حول هذه النقاط:

١- **إن العلاقة السببية بين الذات الإنسانية (الروح / النفس / العقل) والجسد ثابتة دينيًا،** بإثبات القرآن الكريم: ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ [الإسراء: ١٠٧]، ﴿تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ﴾ [المائدة: ٨٣].

كذلك ثبت علميًا (كما يلاحظ كل منا إذا تأمل المحيطين به) أن العوامل الوراثية تؤثر فى توجهاتنا الدينية والأخلاقية.

٢- إن العلاقة بين الذات الإنسانية والجسد تتجاوز أنه دابة الروح، أو أنه شىء منتَقَص لا يحقق الإنسان العروج الروحى إلا بإذلاله أو تجاوزه. **فالله ﷻ يتعامل مع الإنسان كوجود واحد متكامل.** فالإشهاد، والتكليف، والأمر والنهى، والحشر، والحساب، ثم الحياة الأبدية فى الجنة أو فى النار، جميعها موجه لكل من الروح والجسد، ويتحمل كل منهما عواقب وتبعات ما يفعل المُكوِّن الآخر.

لذلك ينبغى أن نعيد صياغة نظرتنا للإنسان باعتباره كلًّا متكاملًا، عندها سنكون قادرين على تصور التواصل بين بيولوجيا الجسد وبين الروحانيات والشعوريات والسلوكيات، فى سهولة ويسر.

٣- **إن مكمن داء أمتنا، هو إهمال الربط بين الأسباب والنتائج بحجة أن الله فعال لما يرد،** حتى أصر الكثيرون على الفصل بين الأسباب والنتائج كشرط لصحة العقيدة! وقد انعكس هذا الأمر على حياتنا كلها، ومنها القضية التى نتدارسها.

٤- **ينبغى أن نفرق فى التفكير العلمى بين المعلومة العلمية وبين تأويلها.** فإذا كان الملاحدة يَسْتَدِلُّون من وجود خلفية بيولوجية للمشاعر على مادية الإنسان وخطأ المفاهيم الدينية، فإن المعلومة نفسها (الخلفية البيولوجية للمشاعر) يُستدل منها على أن الفطرة الدينية والأخلاقية، التى يقول بها المتدينون، مدموغة فى جيناتنا ومبرمجة فى أدمغتنا.

٥- على المهتمين بالعلم والفلسفة أن يتحملوا مسئولياتهم فى «تجديد الخطاب الدينى» بعد أن أدى التناول السيئ والعرض السطحى للفكر الدينى إلى عزوف الكثيرين من المسلمين وغير المسلمين عن الدين.

٦- لقد أصبح العالم يموج، خلال العقود الثلاثة الأخيرة، بالاهتمام بالعلاقة بين البيولوجيا والتدين، **وهذه فرصة ذهبية لمواجهة الإلحاد.** ولا يتم ذلك بالتنكر للعلم وإنجازاته، بل نؤكد أن العلم قد صار باب العقيدة الصحيحة الواسع للبشرية جمعاء فى هذه المرحلة: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت:٥٣].

تاسعًا: خُلِقَ الإنسان لغاية

المصدر.. المسار.. المنتهى

يتفرد الإسلام عن باقى أديان التوحيد والديانات الأخرى بالاهتمام بتفاصيل قضية الوجود الإنسانى: المصدر - المسار - المنتهى. واهتمام الإسلام بهذه القضية، يؤكد أنه الدين الحق؛ إذ إن غاية الغايات من الدين أن يوضح مراد الله ﷻ من مخلوقاته.

ونؤكد أن رحلة الإنسان فى الوجود (المشهود والغيبى) كما يعرضها الإسلام تثبت فى جميع مراحلها أمام التمحيص العقلى، ومن ثم فهى بمثابة الحقيقة العلمية المطلقة.

ويقوم المنهج الذى حدده الإسلام للإنسان ليتواصل مع الله ﷻ (وهو غاية الوجود الإنسانى) على المفاهيم التالية:

١- **أن فطرة الإنسان الدينية تشعره بوجود الله ﷻ، وتدفعه للتواصل معه.** ثم يأتى الدين الحق ليخاطب عقل الإنسان ليستكمل طريق الإيمان، «نور على نور».

٢- العقل وحده (دون هداية الله، متمثلة فى المنهج الصحيح) يصل بالإنسان إلى الشرك (القول بآلهة أخرى).

٣- لما كانت الحواس المادية (السمع - البصر - اللمس...) عاجزة عن إدراك الله ﷻ، فإن ذلك يتم من خلال التفكر فى آيات الله، فى:

كتاب الله المقروء: القرآن الكريم.

كتاب الله المنظور: الآفاق والنفس.

لذلك جمع القرآن الكريم منهج الوصول إلى الله فى ثلاث كلمات:

«الفطرة - العقل - الوحى»

عاشرًا: يلتقى ما يدركه العقل السليم مع منهج الإسلام عند نقاط واحدة

يعرض ابن طفيل (الفيلسوف الأندلسى فى القرن الثانى عشر الميلادى) فى قصة «حى ابن يقظان» كيف تمكن العقل الفلسفى المسلم من التوصل إلى وجود الإله الخالق، وإلى بعض صفاته. وزاد على ما توصل إليه أنتونى فلو، بأن حدد من خلال العقل كيف تكون العلاقة بين الله وبين الإنسان.

كما أكد ابن طفيل على أن ما يعرضه منهج الإسلام، وما يدركه العقل السليم (بدون وحى سماوى) من مفاهيم الحق والخير والجمال، يلتقيان عند نقطة واحدة بلا خلاف.

القارئ الكريم...

لعلك أدركت وقد وصلت إلى خاتمة الحصاد والكتاب، أن «رحلة عقل» تخاطب أحد خمسة عقول، لا شك أنك تمتلك أحدها:

١- متدين يريد أن يرقى بإيمانه، من إيمان الميلاد إلى إيمان اليقين، حتى يمتلئ القلب بالشعور بأن الله حق:

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣].

وقد يقترب الإنسان من مقام الخشية:

﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨].

٢- متدين غابت عنه حقيقة الإنسان، كموجود متكامل من جسد وذات غير مادية (روح / نفس / عقل). ومن ثَمَّ نظر إلى الجسد نظرة متدنية عوراء، لا ترى فى الإنسان (كموجود حقيقى) إلا الذات غير المادية.

٣- متدين يرى أن فهمه للدين الذى تربى عليه «تمام التمام»! فلم يُنزل العقل والعلم منزلتهما فى منظومة الإيمان. فغاب عنه الكثير، بل غاب عنه أكثر مما حَصَّل. وربما وصل به الأمر إلى أن يصبح أحد أفراد المجموعة التالية.

٤- متدين يبهره ما يردده الملاحدة من (كلام كبير) حول مساهمة العلم فى تأكيد المفاهيم الإلحادية، حتى قالوا: «إن الإله وهم كبير، وإن الدين أفيون الشعوب»؛ فيغمره شعور خفى بالنقص لانتمائه لهذه الطائفة المتخلفة (المتدينين)، بدلًا من أن يغمره الشعور بالزهو.

٥- ملحد، اتَّشَحَ بالعلم، عن كِبر أو عن جهل، ورأى فيه برهان الإلحاد، بدلًا من أن يرى فيه أدلة الإيمان، فَتَوجَّب أن نوضح له الحقيقة حتى ننقذه من نفسه.

أتمنى أن تكون قارئى الكريم قد وجدت فى «رحلة عقل» أنتونى فلو، وفى رحلتى، ما يُعينك فى رحلة العقل الخاصة بك...

واخيرًا، اؤكد لك عن يقين وتجربة:

أن الفلسفة بحر ليس ككل البحار. تجد الهلاك فى شطآنه، وتجد الأمان فى أعماقه.

هل وصلنا إلى نهاية رحلة عقل؟

لقد كانت كلمة سحرية، قيلت لى من حكيم أثناء إبحارى فى «رحلة عقل». قال: عندما تتأمل الوجود من حولك، انظر إليه **كأنك تراه لأول مرة**. إن الاعتياد على الأشياء التى حولنا يمثل حجابًا بيننا وبين حقيقتها، يسمونه **«حجاب الاعتياد»**.

التزمتُ النصيحة، عندها أحسست أننى أحيا فى عالم آخر. أصبح كل شىء حولى جديدًا كل الجِدَّة، فغمر عقلى طوفان من التساؤلات التى تتجدد كل لحظة. عندها تذكرت مقولة أرسطو: **«بالدهشة تبدأ الفلسفة»**.

وإذا كانت رحلة عقل حققت لى اليقين المعرفى فى القضايا التى طرحناها فى فصول الكتاب، فإنها قد فجرت فى داخلى بركان النهم إلى المعرفة، الذى أشار إليه رسول الله ﷺ حين قال: **«نَهِمَان لا يشبعان: طالبُ علم وطالبُ مال»**.

لقد أسلمتنى نظرة الدهشة الطفولية إلى مُعضِلات تفوق بكثير ما أجابت عنه، فتذوقتُ **«حيرة اليقين!!»** التى عَبَّر عنها الصديق أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بدعائه: **«اللهم زدنى فيك تحيرًا»**!!

ولتوضيح ذلك، أطرح مثالًا مفصلًا بعض الشىء:

كنت أقرأ فى القرآن الكريم عن النعم التى يمن بها الخالق الحكيم على الإنسان، ومنها **«نعمة الإبصار»**. وعندما تبنيت **«النظرة الجديدة»** هالنى ما كشفه العلم الحديث عن هذه الحاسة:

تبلغ مساحة شبكية العين سنتيمترًا واحدًا، ويبلغ سمكها نصف الملليمتر. وتحتوى هذه الغلالة الرقيقة الصغيرة على مائة مليون خلية عصبية تتراص فى خمس طبقات!. وعندما يسقط

على الشبكية فوتون واحد من الضوء، تبدأ سلسلة من التفاعلات التى تشمل مائة ألف جزىء كيميائى!

ويؤدى ذلك إلى أن تتكون على الشبكية كل ثانية عشر صور، تتكون كل منها من مليون نقطة. وإذا قارنا ذلك بعين إليكترونية نجد أن على الكمبيوتر المتحكم فيها أن يجرى مليار عملية فى الثانية ليصل إلى نتيجة مقارِبة.

كيف أدرَكَتِ العين الصفات الفيزيائية للضوء حتى تُشكل صفاتها البيولوجية من أجل أن تتكامل وتتناغم معها؟ كيف وُجد هذا **التوافق بين الفوتون والخلية العصبية**؟ لماذا لا يستطيع جسم الإنسان أن يدرك من الموجات الكهرومغناطيسية (على تباينها الشديد) إلا الضوء، وبشرط أن يكون ذا أطوال موجات محددة وهى ألوان الطيف؟

لقد ظهرت العين كاملة البناء مع الانفجار الكمبرى الأحيائى الأعظم، منذ قرابة خمسمائة مليون عام. وقد ثبت أن وراءها **جينًا واحدًا** (يُعرف باسم Pax-6) فى جميع الفقاريات باختلاف طوائفها. إن ذلك يعنى أن العين لم تنشأ بالتطور العشوائى، كما يُرَوِّج الدراونة، **ولا بد لها من المصمم الذكى**.

وعندما استوعبت ذلك اعترت جسدى رعشة، زادها أننى أدركت أن **الرؤية شىء والإبصار شىء آخر**. فبالرغم من أن الرؤية عملية فيزيائية هائلة التعقيد، إلا أن الإبصار (وهو أن ندرك معنى ما نرى) شىء من عالم آخر، غير عالم المادة وقوانينها الطبيعية.

وقد طرح هذا التفكير على عقلى تداعيات من تساؤلات أخرى؛ مثل **كيف نرى أحلامَنا**، وماذا تعنى، وكيف يرى الشخص الذى وُلد ضريرًا أحلامه. وما الفرق فى **آليات الإبصار الكهروكيميائية** فى المخ بين ما نبصره فى واقعنا، وما نبصره فى أحلامنا، والهلاوس البصرية عند مرضى الانفصام؟ وغير ذلك وغيره من التساؤلات!

وإذا كنت قد طرحت (كمثال) بعضًا من أسرار المعرفة التى جَلَّتها لى النظرة الجديدة إلى الإبصار، بعد أن أسقطتُ حجاب الاعتياد، فإن **كل دقيقة من دقائق الخلق حولنا تحمل أسرارًا مشابهة**. ويمكنك أن تتأمل:

أن كل نبتة من **حشائش المروج الخضراء** تفوق أذكى أجهزة الكمبيوتر فى تعاملها مع النظم التى حولها: الجاذبية وأشعة الشمس والماء والهواء...!

أن الأزهار التى نستمتع بألوانها وروائحها تنتج لنا معظم غذائنا النباتى!

أن ذبابة الفاكهة تتغلب على المشاكل التى تواجه مهندسى الطيران عند التحليق فى الفضاء بأن تضرب بجناحيها فى الهواء بمعدل مائتى مرة فى الثانية الواحدة!

لا توجد بين بللورات الثلج سداسية الأضلاع بللورتان متطابقتان، تمامًا كبصمة الأصابع!

أفهم أن تُعجَب إناث الطيور بتغريد ذكورها، لكن لماذا نُعجب نحن البشر بهذه النغمات، التى لا تعدو إلا أن تكون اهتزازات فى الهواء؟!

لماذا نشأت الكائنات عديدة الخلايا، بالرغم من أن الكائنات وحيدة الخلايا قد تكون أكفأ من الناحية البيولوجية؟!

لماذا وكيف نشأ التكاثر الجنسى بالرغم من أن التكاثر اللاجنسى كان يكفل للكائنات الحية خلودًا لا يوقفه هِرَمٌ ولا موت؟!

وأقف فى ختام هذه الأمثلة مع الخلية الحية، التى تنتج ألفى جزىء من البروتينات فى الثانية الواحدة. أتعلم أن هذه العملية تتطلب من أعلى الكمبيوترات كفاءة فترة مليارات المليارات من السنين (حوالى $١٠^{١٢٧}$ سنة) من أجل أن تحاكيها نظريًّا!

هذه بضعة أمثلة من مئات بل آلاف غيرها.

لقد جعلنى التأمل فى هذه الأمور أتيقن أن «رحلة عقل» لم تنته، ولن تنتهى.

إن إعمال العقل فيما حولنا يصبح كإدمان المدمن، كلما تعاطاه ازداد شرهه إليه.

وكلما أزالت النظرة الجديدة حجاب الاعتياد انبعث من الوجود ضوء اليقين المبهر المحير!

وأختم بما سبق أن ذكرته، من أن الإنسان لا ينبغى أن يتبنى ما قاله أحدهم:

I made up my mind, don't bother me with facts

لقد حَسَمْتُ قناعاتى ولملمتُ أوراقى، فلا تزعجنى بحقائق جديدة

* * *

الكاتب فى سطور

*** د. عمرو عبد المنعم شريف**

* من مواليد بورسعيد عام ١٩٥٠.

* أستاذ ورئيس أقسام الجراحة - كلية الطب - جامعة عين شمس. مع التخصص الدقيق فى جراحات الكبد والجهاز المرارى وجراحة مناظير البطن وجراحات الحوادث.

* حاصل على درجة البكالوريوس فى الطب والجراحة بتقدير امتياز مع مرتبة الشرف الأولى عام ١٩٧٤، ودرجتى الماجستير عام ١٩٧٨، والدكتوراه عام ١٩٨١ فى الجراحة العامة من كلية الطب جامعة عين شمس.

* عضو مؤسس للجمعية الدولية للجراحة، والجمعية الدولية لجراحة الكبد والبنكرياس والجهاز المرارى - بسويسرا.

* اختير المدرس المثالى على مستوى جامعة عين شمس عام ١٩٨٤. والطبيب المثالى على مستوى الجمهورية عام ١٩٨٨.

* مُحاضر فى موضوعات التفكير العلمى ونشأة الحضارات. والعلاقة بين العلم والفلسفة والنقل وبين الأديان.

* من مؤلفاته:

- كتاب «أبى آدم: من الطين إلى الإنسان» طرح فيه مفهومًا جديدًا حول نشأة الإنسان عن طريق التطور الموجه.
- كتاب «رحلة عبد الوهاب المسيرى الفكرية» عرض فيه (من خلال فكر د. المسيرى) إيجابيات وسلبيات الحضارة المادية الحديثة، وأسوأها ظهور الحركة الصهيونية ودولة إسرائيل.
- كتاب «المخ ذكر أم أنثى؟!» وتناول فيه الفوارق التشريحية والوظيفية بين مخ الرجل ومخ المرأة. وانعكاس ذلك على أسلوب تفكير ومشاعر وسلوك كل من الجنسين.
- كتاب «كيف بدأ الخلق» ويتناول نظرية الانفجار الأعظم الذى أنشأ الكون وكوكب الأرض، وكذلك نشأة الحياة والإنسان، وما نقبله من نظرية التطور وما لا نقبله، مع اجتهاد لتفسير آيات خلق الإنسان في القرآن الكريم في ضوء مفهوم التطوير الإلهى.

رحلة عقل

« إننى أهيب بكل باحث عن الحقيقة،
وكل متدين يبحث عن يقين العقيدة،
أن يقرأ هذا الكتاب قراءة متأنية ».

« إنه طرح جديد كل الجدة، يُعتبر
ثورة فى المفاهيم العلمية، وثورة فى
النظر إلى الدين ».

د. أحمد عكاشة

حول موضوع الكتاب قالت مجلة تايم Time الأمريكية

«على رأس الاكتشافات العلمية المبهرة
فى القرن العشرين، يأتى اكتشاف أن هناك إلها»

- جاء ذلك القول تعقيبا على تراجع أستاذ الفلسفة البريطانى أنتونى فلو عن الإلحاد إلى الإيمان، بدافع من الاكتشافات العلمية الحديثة، بعد أن ظل متزعما للفكر الإلحادى طوال النصف الثانى من القرن العشرين.
- ويبدأ كتاب "رحلة عقل" بعرض الرحلة الفكرية لهذا الفيلسوف الكبير، والتى توقفت عند الإقرار بالألوهية دون اعتناق دين من الأديان، كما يقوم الكاتب هذه الرحلة من منظور العلم.
- ثم يستكمل الكتاب الرحلة، فيطرح للبحث العلاقة بين مفاهيمنا الدينية ومشاعرنا الروحية وبين بيولوجيا الإنسان، متمثلة فى جيناته ومخه وقلبه!.
- وأخيرا، يضع الكاتب فى ميزان العقل رحلة الإنسان فى الوجود المشهود والغيبى (كما يعرضها الإسلام) ليرى إن كانت تصل فى حجيتها إلى مصاف الحقائق العلمية.
- إنها رحلة عقلية وإيمانية (جديرة بالتأمل) لعقلين كبيرين عاشا حياتهما يتتبعان الأدلة والبراهين إلى حيث تقودهما.

6 223002 001392